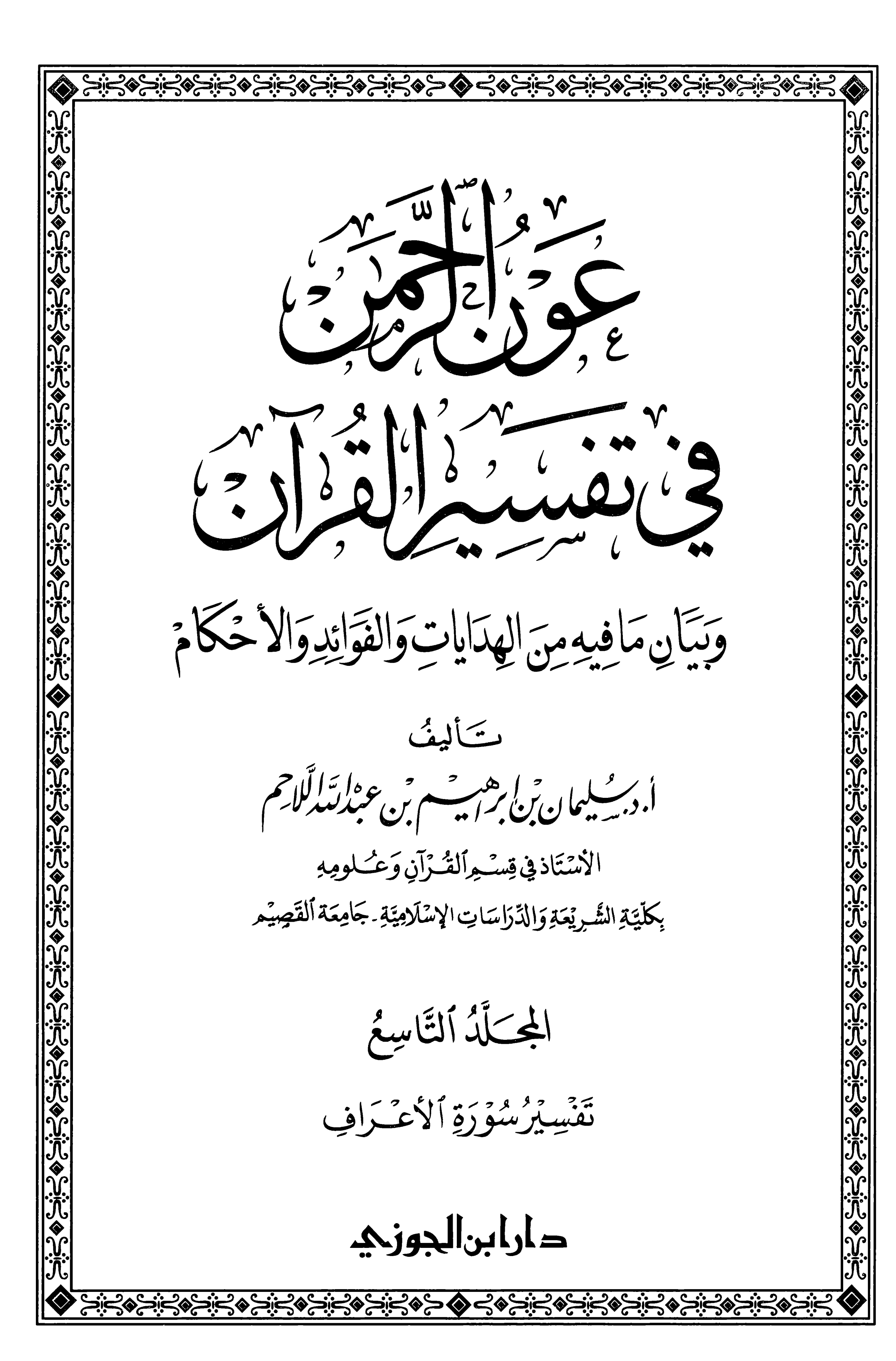


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

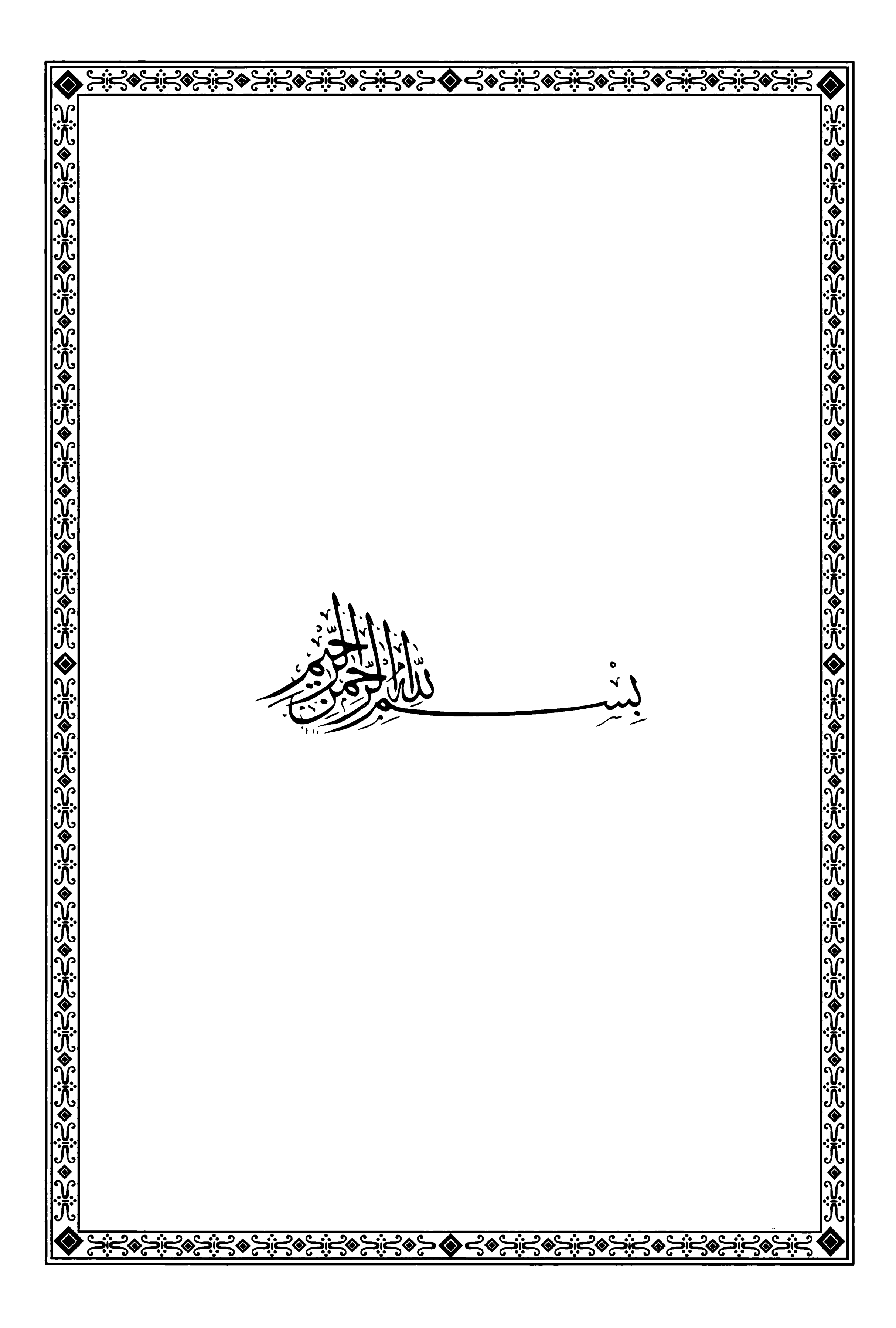
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

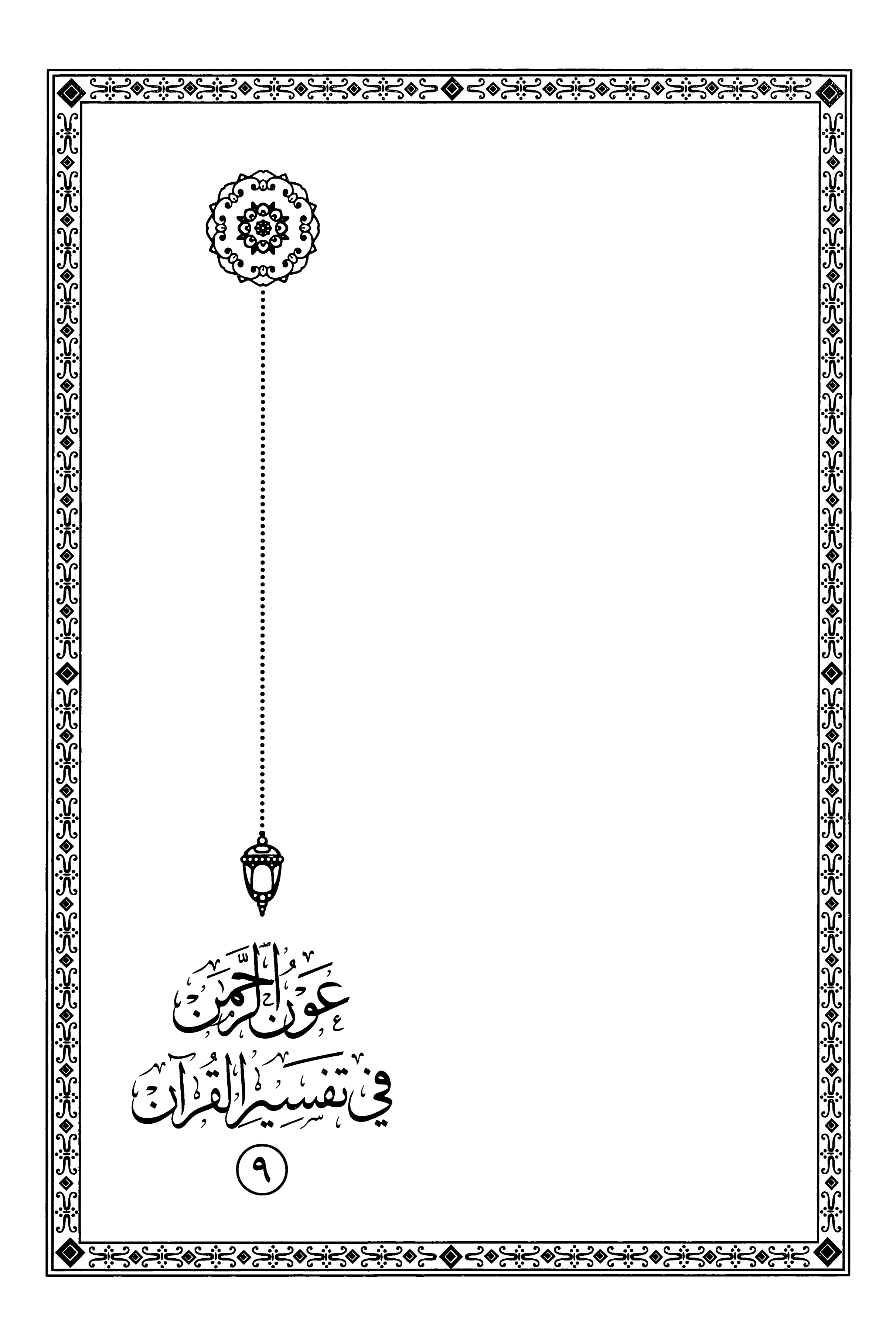
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد التاسع

تفسير سورة الأعراف

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
٩

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٠٢ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



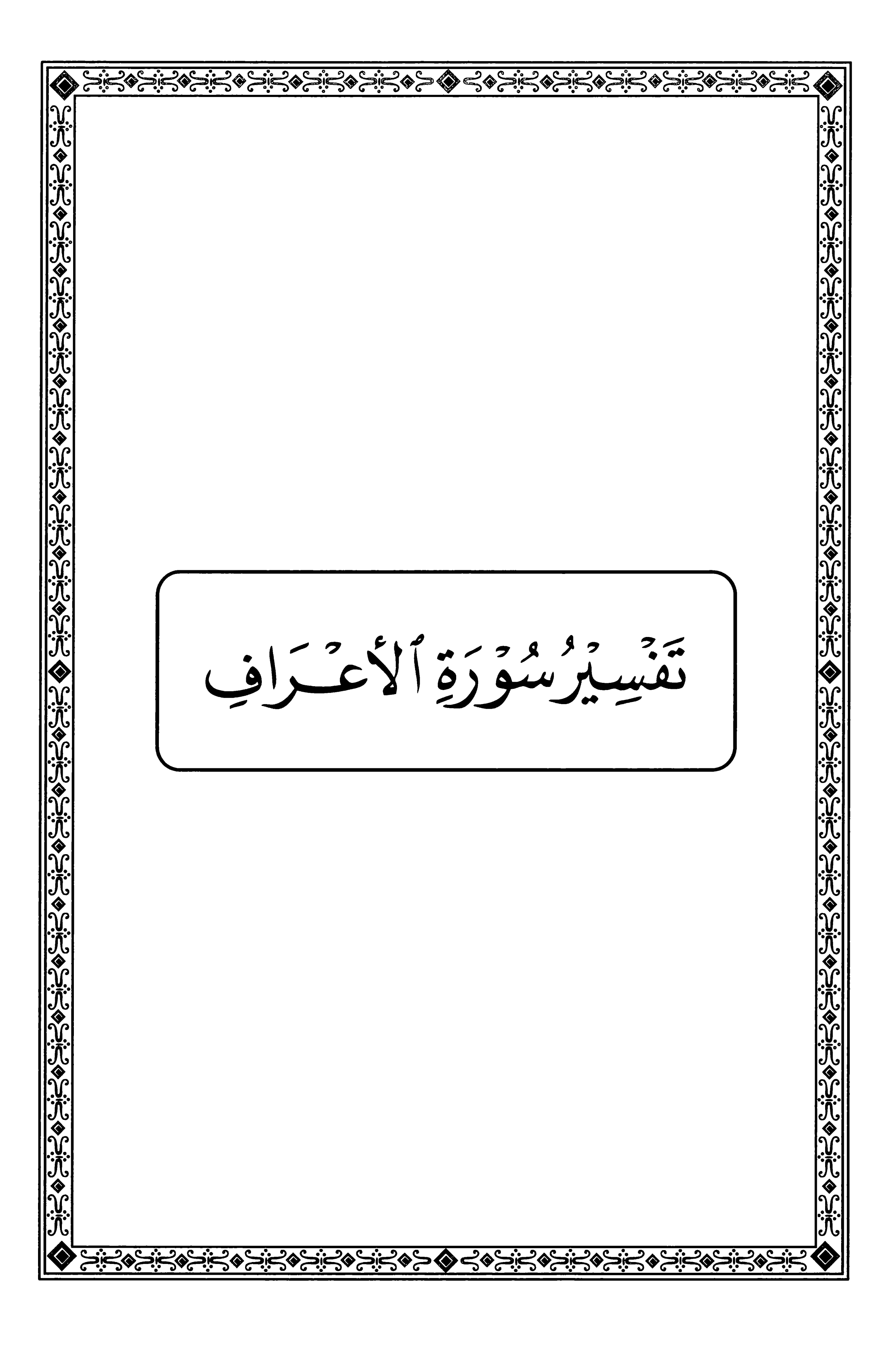
دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

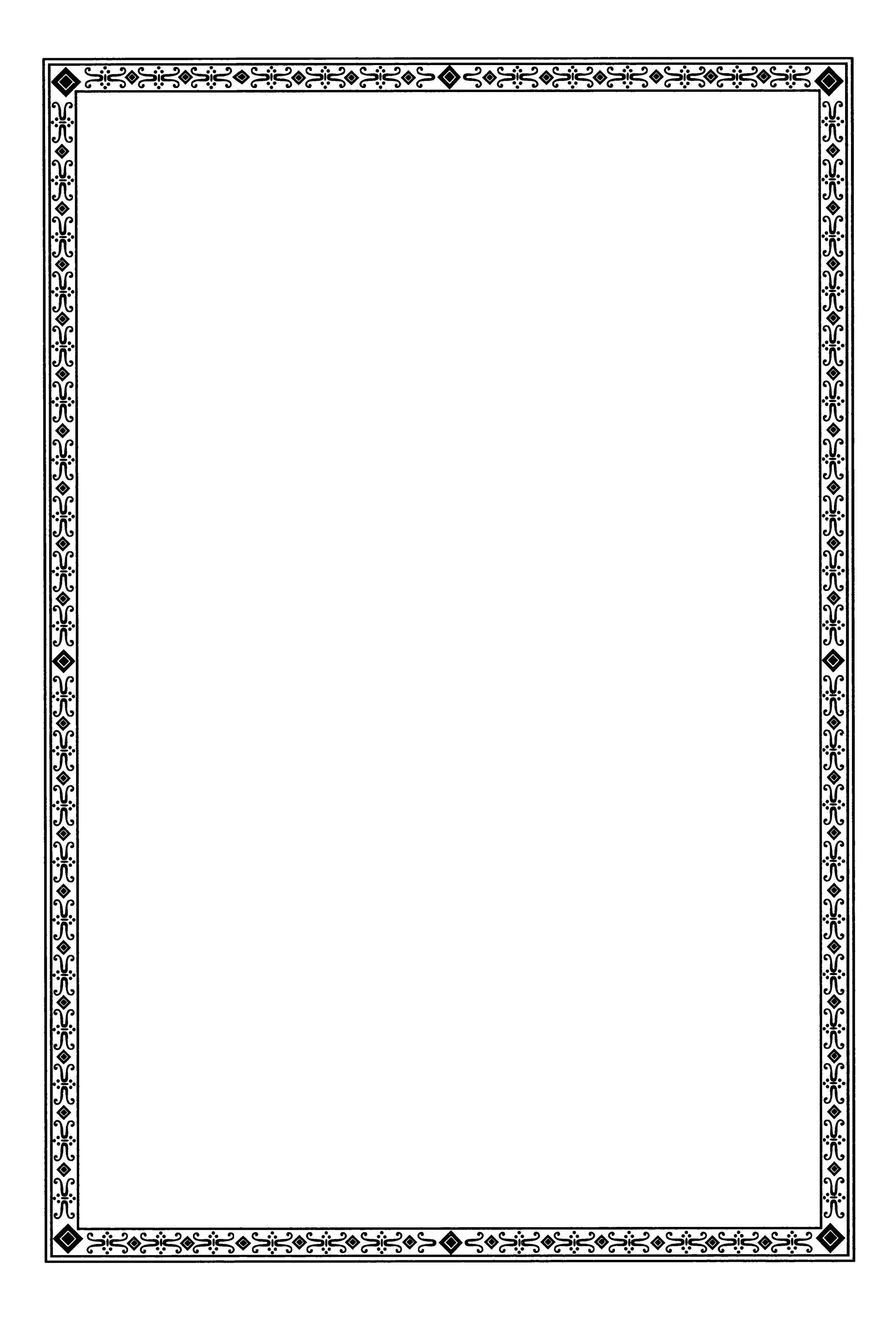
لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net



تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَعْرَافِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الأعراف»؛ لذكر الأعراف فيها في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

ويقال لها: أطول الطوليين؛ فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال لمروان ابن الحكم: «ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور، وقد رأيت رسول الله- عليه الصلاة والسلام- يقرأ فيها بأطول الطوليين؟».

قال مروان: «قلت: يا أبا عبدالله، ما أطول الطوليين؟ قال: الأعراف»(١).

والمراد بالطوليين سورة الأنعام وسورة الأعراف؛ فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام باعتبار عدد الآيات.

ويفسر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرقها في ركعتين»(٢).

وهي إحدى السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الأعراف كلها بمكة ؛ على القول الراجح من أقوال المفسرين.

وقيل: فيها بعض الآيات مدنية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ...﴾ الآية، إلى قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

وكان نزولها بعد سورة «ص» فيما قيل.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٤، وأبو داود في الصلاة ٨١٢، والنسائي في الافتتاح ٩٩٠، وأخرجه مختصرًا عن مروان بن الحكم قال: «قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار السور، وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين؟».

(٢) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٩١.

جـ- مناسبتها لسورة الأنعام:

تعتبر سورة الأعراف كالتفصيل والشرح لما جاء في سورة الأنعام من إجمال في الكلام عن العقيدة وأصول الدين، خصوصًا فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم، وبعثة النبي ﷺ.

د- موضوعاتها:

تدور جل موضوعات سورة الأعراف- كما هو الحال في سورة الأنعام- على المقاصد الإجمالية للسور المكية، والتي من أهمها: إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وإثبات صدق الرسول ﷺ والرسل قبله- عليهم السلام- وإثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ بإقامة الأدلة على ذلك كله.

وقد عرضت السورة هذه الحقائق وأدلتها بأسلوب مؤثر، جمع بين التذكير بنعم الله تعالى على الناس؛ من نعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم، وتمكينهم في الأرض وتمتيعهم بما سخر الله لهم من الخيرات، وبين أسلوب التحذير من العذاب والنقم؛ المتمثل في ذكر قصص الأنبياء الذي استغرق أكثر من نصف السورة في ذكر ما دار بين الأنبياء وأقوامهم، وما آل إليه أمر المكذبين منهم.

١- افتُتحت سورة الأعراف بتعظيم القرآن والامتنان بتنزيله على النبي ﷺ، والأمر باتباعه، والنهي عن اتباع أولياء من دون الله تعالى.

٢- التذكير بإهلاك كثير من القرى الظالمة، وإقرارهم بظلمهم، لما جاءهم بأس الله تعالى، وعدم تمكنهم من دفعه عن أنفسهم.

٣- إثبات سؤال الناس ومحاسبتهم جميعًا: المرسل إليهم، والمرسلين، وقص أعمالهم عليهم بعلم، ووزنها: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

٤- الامتنان على بني آدم بتمكينهم في الأرض، وجعلِ المعايش لهم فيها، وخلقهم وتصويرهم، وأمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم، وسجودهم إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وإسكان آدم وزوجه الجنة، ووسوسة الشيطان لهما بالأكل من الشجرة، وإهباطهم جميعًا: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ

﴿حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، والامتنان على بني آدم بإنزال لباس يواري عوراتهم وريشًا، ولباس التقوى خير لباس، وتحذيرهم أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة.

٥- ذم المشركين بارتكابهم الفواحش وتبريرهم لذلك بقولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، وكذبهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، والرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٦- الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد وفي الصلاة، والأكل والشرب من غير إسراف، والإنكار على من حرموا ما أباح الله من الطيبات، وبيان أن الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والإشراك به، والقول على الله بلا علم.

٧- بيان أن الآجال محدودهْ، والأنفاس معدودهْ، وأن لكل أمة أجلًا، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

٨- حث بني آدم على تقوى الله واتباع رسله، والوعد لمن اتقى وأصلح بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والوعيد لمن كذبوا بالآيات واستكبروا عنها بالنار هم فيها خالدون، وبيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته، وضلال شركائهم عنهم، وشهادتهم على أنفسهم، بالكفر، وإدخالهم في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس في النار؛ كلما دخلت أمة لعنت أختها، وعداوة بعضهم لبعض، ودعاء بعضهم على بعض بمضاعفة العذاب، وحرمانهم وتيئيسهم من فتح أبواب السماء لهم ودخول الجنة، وبيان ما أعد لهم من العذاب: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وبيان ما أعده عز وجل للذين آمنوا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴿٤٣﴾﴾.

٩- بيان ما يجري بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من نداء بعضهم بعضًا،

وسؤال بعضهم لبعض، ونداء أصحاب الأعراف لهم، ومن ثم استغاثة أهل النار بقولهم لأصحاب الجنة: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٠- بيان أنه عز وجل أقام الحجة على الناس بالقرآن الكريم، الذي فصله عز وجل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، لكنهم كذبوا به ونسوه، حتى إذا جاء تأويله أقروا بأن رسله عز وجل جاءت بالحق، وندموا، وأنى ينفعهم ذلك؟ وقد: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

١١- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق، وخلقه السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وخلق جميع المخلوقات وتسخيرها: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

والأمر بدعائه عز وجل تضرعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا، من غير اعتداء في الدعاء، وبيان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

١٢- الاستدلال على تمام قدرته تعالى على إحياء الموتى؛ بإرساله الرياح بشرًا بين يدي رحمته، فتُقل سحابًا ثقالًا يسوقه سبحانه لبلد ميت، فينزل به الماء، ويخرج به من كل الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

١٣- ثم شرعت السورة في قصص الأنبياء، ودعوتهم أقوامهم إلى التوحيد، ونهيهم عن الشرك، وتخويف عقاب الله وعذابه، وما أيدهم الله به من الآيات البينات، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وما في ذلك من العبر والدروس والعظات، وإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين المعاندين بأنواع العقوبات.

فبدأت بقصة نوح عليه السلام وقومه، التي انتهت بإنجائه والذين معه، وإغراق المكذبين من قومه.

ثم قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، التي انتهت بإنجاء هود والذين معه برحمة من الله، وقطع دابر المكذبين من قومه.

ثم قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام، التي انتهت بأخذ الرجفة للمكذبين من قومه، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

ثم قصة لوط عليه السلام وقومه، التي انتهت بإنجائه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وإهلاك المكذبين المجرمين من قومه بإمطارهم بالحجارة.

ثم قصة مدين ونبيهم شعيب عليه السلام، التي انتهت بأخذهم بالرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

١٤- ثم أتبع عز وجل ذلك ببيان أنه ما أرسل في قرية من نبي إلا أخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، وراوح لهم بين البأساء والضراء، وبين الرخاء والنعماء، فلم ينجع ذلك فيهم، بل اعتبروا ذلك مجرد عادة: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

وبيَّن عز وجل أنهم لو آمنوا واتقوا لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذهم بما كانوا يكسبون.

ثم حذر أهل القرى أن يأتيهم بأسه عز وجل وهم غافلون نائمون، أو يلعبون، وحذرهم أن يأمنوا مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وحذر الذين يرثون الأرض من بعد أهلها المهلَكين؛ أن لو يشاء أصابهم بذنوبهم، وطبع على قلوبهم؛ فهم لا يسمعون.

ثم ختم هذا البيان بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

١٥- ثم أتبع عز وجل ذلك بذكر قصة بعث موسى عليه السلام بآياته إلى فرعون وملئه، وظلمهم وتكذيبهم بها، وما هم عليه من الإفساد، وبيان ما دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون من محاورات ومجادلات، وما جرى بينه وبين السحرة من مناقشات انتهت بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وما انتهى إليه أمر فرعون بإغراقه وجنوده، وتوريث الأرض بني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من الغرق وأهلك عدوهم فرعون، وما حصل منهم من التمرد والطغيان، والكفر

والعصيان، وعبادتهم العجل، وعقابهم بأخذهم بالرجفة.

١٦- تلا ذلك وعده عز وجل برحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالآيات: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

١٧- أمره عز وجل للنبي ﷺ بإعلان عموم رسالته للناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

١٨- ثم عادت السورة لبيان أن من قوم موسى أمةً يهدون بالحق وبه يعدلون، فليسوا كلهم سواء، وبيان أن الله جعلهم اثنتي عشرة أسباطًا، ومنَّ عليهم لما استسقوا بتفجير الماء من الحجر، قد علم كل أناس مشربهم، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، وكفرهم نعم الله بتبديل القول الذي قيل لهم، وعتوهم، واحتيالهم على صيد السمك يوم السبت، وإهلاكهم وإنجاء الذين ينهون عن السوء، وأخذ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

وقد أطالت الآيات في شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل؛ حتى استغرق ذلك نصف السورة؛ لِما في ذلك من المواقف والدروس والعظات.

١٩- ثم ذكرت السورة ما أخذه عز وجل على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم؛ من الإيمان بربوبيته وإلهيته، وعبادته وحده لا شريك له: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴿١٧٢﴾﴾.

٢٠- تلا ذلك ذكر قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، وإخلاده إلى الأرض: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ

تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

٢١- بيان ضلال كثير من الخلق؛ من الجن والإنس، وعدم انتفاعهم بقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم، وغفلتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ﴿١٧٩﴾﴾.

٢٢- إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

٢٣- بيان أن ممن خلق الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، ومنهم بعض من هذه الأمة، فليس كل الخلق على ضلال؛ قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

٢٤- استدراجه عز وجل للمكذبين بالآيات، وإملاؤه لهم، وتوبيخهم وتقريعهم على عدم التفكر في صدق النبي ﷺ وإنذاره لهم، وفي عظمة ملك الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

٢٥- ذكر سؤال الناس عن الساعة: أيان مرساها؟ ومتى قيامها؟ وأمره ﷺ برد علمها إلى الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ ﴾ [الآية: ١٨٧].

٢٦- تذكير الخلق بأن الله هو الذي خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وتقريعهم على جعلهم الشركاء له، والتحذير من الشرك، وبيان أن الشركاء لا يملكون لمن أشرك بهم شيئًا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾، والآيات بعدها، وذكر براءته ﷺ من الشرك، وإعلانه ﷺ أن وليه الله وحده؛ وهو يتولى الصالحين، وأن الذين يدعوهم المشركون من دونه لا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون، ولا يسمعون ولا يبصرون.

٢٧- أمره عز وجل له ﷺ بمكارم الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، وأمره بالاستعاذة من نزغ الشيطان، واتباع ما يوحى إليه من ربه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

٢٨- ثم خُتمت السورة بمثل ما بُدئت به؛ من الأمر بالعناية بالقرآن الكريم وتعظيمه، وذكر الله عز وجل، وإفراده بالعبادة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾:

تقدم في مطلع سورة البقرة الكلام مستوفى على مثل هذه الحروف المقطعة أوائل السور، والتي منها ما كان على أربعة حروف؛ كقوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] في مطلع هذه السورة، وقوله: ﴿الٓمٓر﴾ في مطلع سورة الرعد.

وبيان اختيار جمع من المحققين أن هذه الحروف افتتح بها عدد من السور للتحدي بالقرآن الكريم وإعجازه، مع أنه مُكَوَّن من هذه الحروف التي ينطق بها العرب، ولهذا يأتي بعدها غالبًا ذكر القرآن وتعظيمه، كما قال تعالى هنا: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾:

قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، «كتاب»: خبر لمبدأ محذوف، أي: هذا كتاب، أو: هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، أي: أنزل إليك يا محمد من ربك؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ونُكِّر «كتاب» للتعظيم، أي: هذا كتاب عظيم جليل ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، وفيه امتنان عليه وعلى أمته بإنزال هذا الكتاب.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: فلا يكن في صدرك شك منه، أو ضيق من بتبليغه والإنذار به؛ بسبب تكذيب من كذبك من قومك،

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ونهيه ﷺ أن يكون في نفسه حرج منه- وحاشاه ﷺ من ذلك- نهي لأمته من باب أولى وأحرى.

قال ابن القيم: «فالله تعالى قد رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه ارتفع عنها الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]».

وقال أيضًا: «وكذلك الحرج الذي في الصدور؛ فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقًّا من عند الله.

وتارة يكون من جهة المتكلم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن يتكلم به.

وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة، أو الآراء والسياسات.

وتارة يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة من عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم، ولا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك ما شئت»(١).

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]؛ اللام: للتعليل، أي: أنزل إليك الكتاب؛ لأجل أن تنذر به الكافرين؛ بدليل قوله:

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ١٩١-١٩٢).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وليكن ذكرى للمؤمنين، أي: عظة وعبرة لهم.

وتخصيص الذكرى بالمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يتذكرون بالقرآن ويتعظون به وينتفعون، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ودل قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنه إنذار للكافرين، وقدم الإنذار؛ لأنه الأهم بحسب المقام.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

بعدما بين الحكمة من إنزال الكتاب- وهي الإنذار للكافرين والتذكير للمؤمنين- أمر الناس كلهم باتباعه.

قوله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، الأمر: للوجوب؛ وهو أمر عام لجميع الناس.

و«ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: اتبعوا- أيها الناس- الكتاب الذي أنزل إليكم من ربكم، والسنة التي أنزلت بيانًا له، بطاعته ﷺ، وامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه تذكير بربوبيته عز وجل لهم؛ مما يوجب عليهم شكره وطاعته واتباع ما أنزله عليهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تأكيد للأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وإعلام لهم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء، أي: ولا تتبعوا من دون ربكم، أي: غيره، «أولياء»، أي: معبودين وآلهة توالونهم وتعبدونهم من شياطين الجن والإنس، أو الأصنام والأوثان.

وهذا مع قوله بعده: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يدل على دخول الكفار دخولًا أوليًّا في الأمر بقوله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ ابن عامر بياء الغيبة قبل التاء: «يتذكرون».

وقرأ الباقون بتاء الخطاب، لكن قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف

بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على حذف إحدى التائين اختصارًا، وأصلها: «تتذكرون».

وقرأ الباقون بتشديد الذال: «تَذَّكَّرُونَ» على أن أصلها: «تتذكرون»، فقلبت التاء الثانية ذالًا، وأدغمت في الذال الأخرى.

«قليلًا»: نعت لمصدر محذوف، أي: تذكرون تذكرًا قليلًا. أو نعت ظرف زمان محذوف، أي: تذكرون زمانًا قليلًا، و«ما» على هذا مزيدة للتوكيد.

ويحتمل كون «ما»: مصدرية موصولة بالفعل بعدها، أي: زمنًا قليلًا تذكركم.

و«التذكر»: الاعتبار والاتعاظ، أي: قليلًا اعتباركم واتعاظكم بما أنزل إليكم، وقد تحمل القلة هنا على معناها، أي: أنكم تتذكرون قليلًا، وتغفلون وتعرضون كثيرًا. وقد تحمل القلة هنا على النفي وعلى العدم، أي: أنكم لا تتذكرون.

فتذكرهم قليل أو معدوم، والمتذكر منهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾:

بعدما امتن عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بإنزال الكتاب، وأمرهم باتباعه، ونهاهم أن يتبعوا من دونه أولياء؛ أخبرهم محذرًا لهم بما أوقعه بالمكذبين من الأمم السابقة من بأسه وعذابه.

قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، «كم»: هي الخبرية الدالة على التكثير، أي: وكثير من القرى.

و«القرية»: مأخوذة من «القَرْي»، وهو: الجمع؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وتطلق على المدينة.

﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾، أي: أهلكنا أهلها، بقرينة قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، والمعنى: أردنا إهلاكها، فجاءها بأسنا؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨].

ويحتمل أن قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ إخبار عن إهلاكها، ثم عطف عليه الإخبار بكيفية إهلاكها، فيكون من التفصيل بعد الإجمال.

وقيل: معنى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾: خذلناها عن اتباع الحق، وزينا لها الباطل، فجاءها بأسنا.

والإهلاك: الإفناء والاستئصال.

﴿بَأۡسُنَا﴾، أي: عذابنا الشديد في الدنيا.

والمعنى: وكثير من القرى أهلكناها، فجاءها عذابنا الشديد بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم.

وفي هذا تحذير وتهديد لكفار مكة «أم القرى»، فلا يغتروا بما هم فيه من الأمن والراحة، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

﴿بَيَٰتًا﴾ حال، أي: وهم نائمون ليلًا؛ كقوم لوط.

﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ معطوف على الحال السابقة، أي: أو حال كونهم داخلين في القيلولة، وقت الراحة والدعة والنوم، أي: أو هم نائمون في وقت القيلولة والظهيرة: منتصف النهار؛ كقوم شعيب.

والمراد: أن منهم من أتاه بأسنا بياتًا، ومنهم من أتاه بأسنا وهم قائلون، أي: وهم في غفلة، وعلى غرة غير متوقعين له، ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم قائلون.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾:

«ما»: نافية، ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: دعاؤهم واعتذارهم، ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، أي: حين جاءهم عذابنا، «إلا»: أداة حصر. ﴿أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي: إنا كنا بإشراكنا بالله تعالى وتكذيب كتبه ورسله «ظالمين».

والمعنى: فما كان اعتذارهم- حين جاءهم عذابنا ولم يستطيعوا له دفعًا ولا منعًا ولا رفعًا- إلا أن انقطعت كل دعواهم، وأقروا واعترفوا على أنفسهم بظلمهم واستحقاقهم العذاب بشركهم بالله الذي هو أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما هلك قومٌ حتّى يعذروا من أنفسهم**». قال: قلت لعبدالملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1]».

وقيل: «دعواهم»: اسم بمعنى الدعاء؛ كقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾ [يونس: ١٠].

ومعنى الحصر على هذا: أنهم لم يستغيثوا ولا توجهوا إليه بالدعاء، ولكنهم وضعوا الاعتراف بالظلم موضع الاستغاثة، ولذلك استثنى من الدعوى، فيكون في هذا إقرار واعتراف منهم على أنفسهم بالظلم، وتحسر وندامة؛ بعلمهم أنهم كانوا ظالمين، وأن الله لا يهلك إلا الظالمين.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾:

قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، الفاء استئنافية، واللام: لام القسم لقسم

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٦٢- ٦٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٣٨ – ١٤٣٩.

مقدر، أي: فوالله لنسألن الذين أرسل إلهم.

وقد أكد هذا الخبر: بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك، أي: فوالله لنسألن الأمم الذين أرسل إليهم الرسل عن بلوغ الرسالة إليهم، وعما أجابوا به الرسل، وبما قابلوهم، وماذا عملوا، سؤال تقريع وتوبيخ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ معطوف على ما قبله من جملة المقسم عليه، أي: والله لنسألن المرسلين، أي: عن تبليغهم رسالات الله، وعما أجابتهم أممهم؛ ترهيبًا وتخويفًا لأممهم بإشهاد رسلهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا»(١).

وقدم سؤال المرسل إليهم؛ لأن المقصود من السؤال هو سؤال الأمم؛ لإقامة الحجة عليهم، ولأن شهادتهم على أنفسهم أهم وأعظم وأكفى، كما قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ولم يذكر المسؤول عنه من الجانبين، وهو إثبات التبليغ والبلاغ؛ لدلالة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾:

لَمَّا ذكر عز وجل أنه سيسأل الذين أرسل إليهم وسيسأل المرسلين، فربما توهم أحد أن السؤال سؤال استرشاد، فبين في هذه الآية إحاطة علمه بهم وبأحوالهم، واطلاعه على الخلق كلهم.

قوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ ﴾، الفاء عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي:

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٦٤ من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فوالله لنقص «عليهم»، أي: على الخلق جميعًا؛ المرسل إليهم والمرسلين، أي: لنخبرنهم بتفاصيل أحوالهم وبأعمالهم الظاهرة والباطنة؛ لنحاسبهم ونجازيهم عليها.

«بعلم»: متعلق بحال من فاعل «نقصن»، والباء للمصاحبة والملابسة، أي: متلبسين بعلم، أي: بعلم تام منا بذلك كله، ولهذا نكَّره وقال بعده: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ لأن علمه عز وجل واسع محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، الواو عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على الحال المحذوفة، أي: متلبسين بعلم، والحال أننا ما كنا غائبين.

والمعنى: وما كنا غائبين عنهم وعن أعمالهم وأحوالهم، ولا عن شيء من الخلق في وقت من الأوقات، ولا في حال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾:

أخبر عز وجل أنه سيقص على الخلق بعلم، أي: ما هو أعلم به منهم من أحوالهم وأعمالهم، أي: ليحاسبهم ويجازيهم.

ثم بيَّن كيفية حسابه لهم، وأنه بالحق والعدل.

قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، أي: والوزن لأعمال العباد «يومئذٍ»؛ يوم سؤالهم وقص أعمالهم عليهم يوم القيامة، «الحق»: العدل السوي، الذي لا ظلم فيه ولا جور.

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: فمن ثقلت موازينه الصالحات، بأن رجحت حسناته بسيئاته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: فأولئك هم الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك»؛ لرفعة شأنهم ومنزلتهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: خفت موازين حسناته، بأن رجحت سيئاته بحسناته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾، أي: غبنوا أنفسهم نصيبها من الله تعالى، فحرموها جنته وما فيها من النعيم المقيم، وأبقوها في النار وما فيها من العذاب الأليم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك»؛ تحقيرًا لهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كونهم بآياتنا يظلمون. و«الظلم»: ضد العدل.

وعدَّى الفعل «يظلمون» بالباء؛ لتضمنه معنى: «يكذبون»؛ فالمعنى: بما كانوا يظلمون فيكذبون بآياتنا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وصيغة المضارع في قوله: «يظلمون» لحكاية حالهم في تجدد الظلم فيما مضى.

وهاتان الآيتان، كقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣].

وقوله تعالى في سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦- ١١].

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى إعجاز القرآن وتحدي العرب أرباب الفصاحة والبلاغة فيه؛ مع أنه بلغتهم والحروف التي ينطقون بها؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فهو كلام الله تعالى، تكلم به بحرف وصوت مسموع. وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ فله عز وجل العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٥- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، بقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٦- نهيه ﷺ أن يكون في صدره حرج من القرآن ومن تبليغه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، وهو نهي له ﷺ ولأمته، فلا ينبغي لمؤمن أن يكون في شك من القرآن، وفي ضيق من تبليغه والدعوة إليه.

٧- أن الحكمة من إنزال القرآن الإنذار والتذكير: الإنذار للكافرين، والتذكير للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- الإشارة إلى ما سيلقاه ﷺ من الأذى والتكذيب في تبليغه ما أنزل إليه، وكذا أتباعه.

٩- أنه إنما يستفيد من القرآن ويتذكر به المؤمنون؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- وجوب اتباع ما أنزل الله تعالى من الوحي في الكتاب والسنة؛ لقوله تعالى:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

١١- ثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

١٢- النهي والتحذير من اتخاذ أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

١٣- ذم الكفار بقلة تذكرهم وعدم اتعاظهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٤- تحذير الكافرين والمكذبين من إهلاكهم وحلول بأس الله فيهم؛ كما حصل لكثير من المكذبين من أهل القرى قبلهم؛ لقولهم تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

١٥- أن سنن الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين والكفار ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

١٦- أن عذاب الله وبأسه قد يأتي على حين غفلة، وعلى غرة؛ لقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

١٧- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم عند مباغتة عذاب الله لهم، وإقرارهم واعترافهم بما كانوا عليه من الظلم الموجب لعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

١٨- إثبات وتأكيد سؤال الأمم عن بلوغ الرسالات إليهم، وعما أجابوا به رسلهم؛ سؤال تقريع وتوبيخ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، وهذا لا ينافي ما جاء في نفي سؤالهم وما في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩].

١٩- سؤال الرسل- عليهم الصلاة والسلام- عن إبلاغهم رسالات ربهم، وعما أجابهم به أقوامهم، واستشهادهم عليهم ترهيبًا وتخويفًا للمكذبين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

٢٠- إخبار الله للخلق كلهم؛ المرسل إليهم والمرسلين، بأعمالهم وأحوالهم، عن

علم واسع بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾.

٢١- إحاطة الله تعالى واطلاعه على جميع الخلق، ومعيته لهم معية عامة بعلمه وإحاطته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

٢٢- إثبات العدل في محاسبة الخلائق، ومجازاتهم بالوزن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الآية.

وظاهر الآية وما في معناها من الآيات؛ أن الوزن يكون للأعمال، كما قال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»(١).

وقال ﷺ: «**ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق**»(٢).

وقد يكون الوزن لكتاب الأعمال؛ كما في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «**لا إله إلا الله**» فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «**فطاشت السّجلّات، وثقلت البطاقة**»(٣).

وقد يكون الوزن لصاحب الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقال ﷺ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ السَّمِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾(٤).

وفي مناقب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتعجبون من**

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٨٠٦ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٣ من حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان، فيمن يموت وهو شهيد أن لا إله إلا الله ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٠ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٥ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

دقّة ساقيه؟! فوالّذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحدٍ»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد ذكر الأقوال في هذا وأكثر هذه الآثار: «وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار؛ بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم».

والحقيقة أن ذلك كله لا يخرج عن كون الوزن إنما هو للأعمال، حتى ولو كان الوزن لكتاب الأعمال، أو للعامل؛ لأن كتاب الأعمال إنما يثقل بما سُجِّل به من أعمال الخير، ولأن العامل إنما يثقل وزنه بما عمل من خير؛ فعاد الأمر إلى وزن الأعمال.

٢٣- بشارة من ثقلت موازينه بالفلاح والفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، بالفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٢٤- خسارة من خفت موازينهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم بآيات الله؛ لقوله وتعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

وإذا خسر الإنسان نفسه فماذا ربح؟! قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

* * *

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٢٠- ٤٢١.

(٢) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٦.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ
السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ
فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ
إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ
مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

امتن الله عز وجل على العباد في الآيات السابقة بإنزال القرآن الكريم، وأمر باتباعه، ونهى عن اتباع أولياء من دون الله، وحذر من ذلك بذكر ما حل بالمكذبين الظالمين من الأمم السابقة، وبذكر السؤال والحساب والجزاء يوم القيامة، ثم أتبع ذلك بالاستثناء بتمكينهم في الأرض وجعل المعايش لهم فيها، وخلْق أبيهم آدم وتصويره، وتكريمه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتثالهم وسجودهم له إلا إبليس؛ فإنه امتنع عن السجود تكبرًا على آدم، وإظهارًا لعداوته له ولذريته؛ مما يوجب الحذر منه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله، لقد مكناكم في الأرض.

و«قد»: حرف تحقيق.

والخطاب لجميع بني آدم، وبخاصة من اتبعوا من دون الله أولياء.

أي: والله، لقد مكناكم- كونًا- في الأرض، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، وملكناكم فيها، أو مكناكم من التصرف فيها من البناء عليها، واستخراج خيراتها وسائر منافعها؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾، أي: وجعلنا- كونًا- لكم فيها مما يخرج من أشجارها ونباتها ومعادنها: ﴿مَعَايِشَ﴾: جمع «معيشة»، وهي: ما يعيش به الحي من الطعام والشراب. مشتقة من «العيش» وهو: الحياة، من تسمية الشيء باسم سببه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، كقوله فيما سبق: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

والخطاب للمشركين الذين اتبعوا من دون الله أولياء، أي: قليلًا شكركم على هذه النعم التي أنعمنا بها عليكم.

وقد يراد بالقلة العدم، وهو الأقرب؛ لأنهم أبعد ما يكونون عن الشكر؛ لشركهم بالله، واتخاذ أولياء من دونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾:

امتن عز وجل عليهم في الآية السابقة بما هيأ لهم من التمكين في الأرض، وما جعل لهم فيها من معايش، ثم أتبع ذلك بتذكيرهم في هذه الآية وما بعدها بنعمته عليهم بخلق أبيهم آدم، وتصويره، وتكريمه، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وبيان عداوة إبليس له ولذريته، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم؛ حيث امتنع من السجود له؛ ليحذروه ويتخذوه عدوًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾، أي: والله لقد خلقناكم.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: بخلق أبيكم وأصلكم آدم وتصويره، ولهذا قال بعده:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وفي هذا تذكير لهم بنعمة إيجاد أصلهم الذي منه تناسلوا؛ وهو آدم، وتصويره، فتلك نعمة أنعم الله تعالى بها على آدم، وهي نعمة على ذريته؛ ولهذا جمع الضمير في قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وقوله: ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

ومثل هذا قوله تعالى ممتنًّا على الخلق جميعًا: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: حملنا أصولكم وأجدادكم الذين كانوا مع نوح عليه السلام.

وقوله ممتنًّا على بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد بهذا آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام.

والخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وأصله: التقدير.

والتصوير: جعل الشيء صورة.

والصورة: الشكل الذي يشكل الجسم.

وعطف جملة: «صورناكم» بـ«ثم» الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق؛ لأن التصوير حالة كمال في الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقد جعل الله عز وجل صورة آدم وذريته على أكمل وأحسن صورة، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦، التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧- ٨].

وقد أكد الله عز وجل هذين الخبرين في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بالقسم و«قد» تنزيلًا للمخاطبين منزلة المنكرين لمضمونها؛ لأنهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الربوبية فكأنهم غير مقرين به؛ لأنه لا ينفعهم مع شركهم مع الله تعالى بالإلهية.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨- ٢٩].

«والملائكة»: جمع «ملك»، وهم: عالم غيبي، خلقهم الله تعالى من نور، كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نورٍ، وخلق الجانّ من مارجٍ من نارٍ، وخلق آدم ممّا وصف لكم**»(١). وآدم هو: أبو البشر.

أي: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تشريفا وتكريمًا له واحترامًا، وإظهارًا لفضله، وعبوديةً وطاعةً لله عز وجل.

كما أن فيه امتحانًا واختبارًا للملائكة؛ ليظهر المطيع منهم من العاصي، ولهذا قال:

(١) أخرجه مسلم في الزهد، باب في أحاديث متفرقة ٢٩٩٦، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، والفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾: عاطفة، أي: فسجد الملائكة كلهم أجمعون؛ امتثالًا لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣].

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ إلا: حرف استثناء، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلًا، وأن يكون منقطعًا؛ لأن إبليس مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله.

وقد سبق ذكر الخلاف في هذا في تفسير سورة البقرة.

﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حال من «إبليس»، مؤكدة لمضمون ما قبلها، أي: لم يكن من الساجدين لآدم تكبرًا عليه، وإعجابًا بنفسه، وكفرًا بالله، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآيات: ٢٨- ٣١].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧١- ٧٤].

ونفيُ كونه من الساجدين في قوله: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلغ من لو قال: لم يسجد.

قال ابن القيم: «فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه؛ لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد؛ فهو أبلغ في الذم من أن يقال: لم يسجد»(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: قال الله لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، «ما»: استفهامية، والاستفهام للتوبيخ له، وإظهار معاندته وكفره وكبره.

﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: أن تسجد، و«لا»: مزيدة للتوكيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩].

والمعنى: ما الذي صدك وكفك عن السجود؟ كما قال تعالى في سورة ص: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

وقال بعضهم: لا: نافية.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أي: حين أمرتك بالسجود له.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهكذا ذكر الله تعالى عنه في سورة ص في الآية «٧٦»، أي: قال إبليس معارضًا لربه، معللًا لامتناعه من السجود، ومعلنًا تكبره على آدم وإعجابه بنفسه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، أي: أنا أفضل منه.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ هذا بيان منه وبرهان لقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهو الافتخار بأصله، وأنه خلق من نار، وتحقير لأصل آدم وهو الطين، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٢- ٣٣].

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ١٩٢.

قال ابن كثير[١]: «قول إبليس، لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لا يؤمَر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني- لعنه الله-: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟!

ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم؛ وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه.

وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نصِّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، فشذ من بين الملائكة بترك السجود، فلهذا أُبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة.

فأخطأ- قبحه الله- في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا؛ فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُه في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة».

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾:

قوله: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، أي: قال الله بأمر قدري كوني لإبليس- بعدما امتنع من السجود لآدم وعصى أمر الله تكبرًا وإعجابًا بنفسه-: «اهبط منها»، أي: اهبط من الجنة ومن السماء والملكوت الأعلى، أي: اهبط منها إلى الأرض، وإلى دار المصائب والآلام والأحزان.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، الفاء: تعليلية، و«ما»: نافية، والنفي بصيغة: «ما يكون لك» أشد من النفي بصيغة: «ليس لك»، أي: فما يصح ولا يستقيم ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «يكون»، أي: ما يكون لك التكبر فيها، أي: في الجنة.

﴿فَٱخۡرُجۡ﴾: تأكيد للأمر بالهبوط، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية؛ لزيادة تأكيد

(١) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٧- ٣٨٨.

تسبب الكبر في إخراجه.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾، «إن»: لتوكيد الخبر.

﴿مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾، أي: من الذليلين الحقيرين، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤- ٣٥].

فحكم الله عليه بالصغار والذل والهوان والحقارة والغواية، معاملة له بتقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده؛ لتكبره وإعجابه بنفسه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾:

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾، أي: قال إبليس- لما أمره الله تعالى بالهبوط والخروج من الجنة، وحكم عليه بالصغار والذل والحقارة، وأبلس وأيس من رحمة الله، قال؛ حرصًا منه على إغراء بني آدم وإهلاكهم معه؛ لشدة عداوته لهم-: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: إلى غاية يوم يبعثون، أي: إلى يوم يبعث آدم وذريته من القبور؛ لأتمكن من إهلاك أكبر قدر منهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: من الممهلين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦- ٣٨، ص: ٧٩- ٨١].

أي: إلى يوم ينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله. وذلك ابتلاء واختبار للعباد؛ ليتميز الصادق من الكاذب، ومن يطيع ربه ومولاه ومن يطيع عدوه.

ولله عز وجل في ذلك الحكمة البالغة؛ قال ابن كثير(١): «أجابه تعالى إلى ما سأل؛ لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب».

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٩.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]، أي: قال إبليس مخاطبًا ربه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم.

وقد تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك إياي لأقعدن لهم.

والمعنى: فبما أضللتني وحكمت علي بالغواية والضلال ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ اللام: للقسم، أي: والله لأقعدن لهم، أي: لأترصدن لهم.

فالمراد بالقعود هنا: الترصد والملازمة، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

﴿لَهُمْ﴾، أي: لآدم وذريته. ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، «صراط» منصوب على أنه مفعول «لأقعدن» على تضمينه معنى: «لألزمن» ونحوه.

أو منصوب على الظرفية، أو بنزع الخافض، أي: لألزمن لأجلهم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: طريقك العدل السوي، طريق الإسلام، أي: لأعترضن لهم على طريق الإسلام، كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر

دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: أشهي لهم المعاصي».

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: يعني من الدنيا، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: من الآخرة، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قبل حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: من قبل سيئاتهم»(١).

وقال قتادة: «قوله: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: من أمر الدنيا فزينها لهم، ودعاهم إليها، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك الشيطان- يا ابن آدم- من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»(٢).

وهذا القول أعم، وهو لا يناقض قول ابن عباس وما جاء في معناه؛ لأن ذلك منهم إنما هو على جهة التمثيل لا التعيين؛ ولهذا فقول قتادة- مع عمومه- أشبه بالبيان لقول ابن عباس رضي الله عنهما ومن معه.

وعلى هذا يكون ذكر هذه الجهات الأربع للمبالغة والتوكيد؛ لأنها التي يأتي منها العدو غالبًا.

والمعنى: لأجتهدن في السعي لإضلالهم من جميع جهاتهم وجوانبهم؛ لصدهم عن طريق دينك.

وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه؛ كقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥].

وعن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٩٧-٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/٩٦- ٩٧، وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/١٤٤٤-١٤٤٥.

الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه؛ فقعد له بطريق الإسلام؛ فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم». قال: «**ثمّ قعد له بطريق الهجرة؛ فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطّول؟**(١)**، فعصاه فهاجر. ثمّ قعد له بطريق الجهاد؛ فقال له: هو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد**». قال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، أو قتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّةٌ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة**»(٢).

قال ابن القيم بعد أن أشار إلى هذا الحديث: «فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك»(٣).

ولهذا جاء في الدعاء؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللّهمّ إنّي أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللّهمّ استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللّهمّ أن أغتال من تحتي**»(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللّهمّ إنّي أسألك العافية في الدّنيا والآخرة، اللّهمّ إنّي أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللّهمّ استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللّهمّ احفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**»(٥).

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾، أي: ولا تجد أكثرهم شاكرين لك، مؤمنين موحدين، أي:

---

(١) «الطِّوَل» بكسر الطاء وفتح الواو: الحبل.

(٢) أخرجه النسائي في الجهاد- ما لمن أسلم وهاجر ٣١٣٤، وأحمد ٣/ ٤٨٣، وابن حبان ٧/ ٥٧، وصححه، وأخرجه الطبري مختصرًا في «جامع البيان» ١٠/ ٩٣، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٤/ ١٢٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ١٩٦.

(٤) أخرجه البزار وحسنه فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٣٩١.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٧٤، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٣٨٧١، وأحمد ٥/ ١١٢، ١١٣.

بل ستجد أكثرهم كافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

هكذا ظن إبليس- لعنه الله- بأنه سيغوي أكثر الخلق بما علم من غلبة الغفلة على كثير منهم وضعفهم، ولما يبذله من جهد لإغوائهم، وقد صدق عليهم ظنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ تأكيد ثانٍ لقوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾.

وقوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فيه بيان أن خروجه خروج ذم وطرد واحتقار.

﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ حالان، أي: حال كونك مذؤوما مدحورًا، ومعنى ﴿مَذۡءُومٗا﴾: مذمومًا ممقوتًا، ﴿مَّدۡحُورٗا﴾: مبعدًا مطرودًا.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ اللام موطئة للقسم، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، و«جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

﴿مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، أي: منك وممن اتبعك، كما قال تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، والتأكيد بـ«أجمعين» للتنصيص على العموم.

فأقسم عز وجل بأنه سيملأ جهنم دار الظالمين والمكذبين من إبليس وأتباعه على الكفر والتكذيب من الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٣- ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤- ٨٥].

وغلب ضمير الخطاب؛ لأن الكلام مع إبليس، وهو المقصود ابتداء من هذا الوعيد؛ لأنه وعيد على فعله وعلى تسببه في إغواء أتباعه، وهو وعيد لهم في التبع له.

ولأنه لو غلب ضمير الغيبة؛ فقال: «منهم» لما شمله معهم.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد الخبر في القرآن الكريم بالقسم وغيره من المؤكدات، مع أنه قطعي الدلالة والثبوت؛ وفق ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

٢- امتنان الله تعالى على العباد بتمكينهم في الأرض، وجعل المعايش لهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

٣- وجوب شكر نعم الله تعالى بنسبتها إليه، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٤- قلة شكر العباد لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٥- الامتنان على بني آدم بخلق أصلهم وأبيهم آدم وتصويره في أحسن صورة وخلقهم وتصويرهم كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾.

٦- تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فعطف «صورناكم» على «خلقناكم» بـ«ثم» الدالة على تراخي الرتبة. وذلك- والله أعلم- لأن التصوير حالة كمال في الخلق.

٧- أن النعمة على الآباء والأجداد والأسلاف؛ نعمة على الأولاد والأحفاد والأخلاف.

٨- تشريف آدم وتكريمه بأمر الملائكة بالسجود له؛ إظهارًا لفضله، وعبودية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

٩- سجود الملائكة كلهم لآدم؛ امتثالًا لأمر الله تعالى لهم بذلك؛ لقوله تعالى:

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

١٠- معصية إبليس لربه، ومخالفته أمره، وعدم سجوده لآدم استكبارًا وإعجابًا بنفسه، وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

١١- أن إبليس معدود في الملائكة؛ لهذا استثني منهم، لكنه معهم في صورته، وليس منهم في عنصره وأصله؛ فهم خلقوا من نور، وهو مخلوق من مارج من نار.

١٢- توبيخ إبليس في امتناعه من السجود لآدم، وإظهار ما انطوى عليه من الاستكبار والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾.

١٣- تكبر إبليس على آدم وتعاظمه بعنصره الذي خلق منه وهو النار؛ لقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

١٤- أن آدم خلق من طين؛ لقوله: ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

١٥- إهباط إبليس من الجنة والملأ الأعلى في السماء؛ بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله، وتكبره على آدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

١٦- ذم الكبر، وأنه من صفات إبليس، وسبب امتناعه من السجود، وكفره بالله، وإهباطه من الجنة؛ مما يوجب الحذر منه.

١٧- أن الجنة لا مقام فيها للمتكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

١٨- تأكيد تسبب الكبر في إهباط آدم من الجنة وإخراجه منها، وحكم الله تعالى عليه بالصغار والذل؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

١٩- طلب إبليس- لعنه الله- الإنظار إلى يوم البعث؛ ليغوي معه بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٢٠- إثبات البعث؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٢١- حكمة الله تعالى البالغة في إجابة طلب إبليس النظرة؛ ابتلاء من الله عز وجل للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾.

٢٢- شدة عداوة إبليس لبني آدم وأبيهم، وحسده لهم؛ لهذا أقسم على إغوائهم وإضلالهم عن صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٢٣- بيان فساد قول القدرية: إن العبد يخلق فعل نفسه؛ لقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾.

٢٤- أن صراط الله تعالى عدل مستقيم، ودينه قويم؛ لقوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٢٥- أنه ما من طريق إلى الخير والهدى إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالكين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾.

٢٦- أن هدف إبليس اللعين إيقاع بني آدم في الكفر، وحرمانهم من الشكر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

٢٧- صدق ظن إبليس وحدسه في كثرة الكافرين، وقلة الشاكرين؛ لما علمه من غلبة الغفلة والجهل على كثير من بني آدم، ولشدة تسلطه عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

٢٨- تأكيد إهباط إبليس وإخراجه من الجنة، وأن إخراجه منها إخراج ذم وطرد واحتقار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، فجمع له بين الإذلال والإهانة بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وبين الذم والطرد والاحتقار بقوله: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

٢٩- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، لإبليس ومن تبعه من بني آدم بجهنم التي وعدها الله بملئها منه ومن أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٣٠- شدة ظلمة النار، وبعد قعرها، وشدة حرها؛ لهذا سميت بـ«جهنم».

٣١- وجوب الحذر من اتباع إبليس ومن مكائده؛ لأنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب جهنم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾:

بعد أن أهبط عز وجل إبليس من الجنة، وأخرجه منها صاغرًا ذليلًا مذمومًا مدحورًا، أمر آدم وزوجه حواء بسكنى الجنة، والأكل من ثمارها؛ إكرامًا لهما، وحذرهما من الأكل من شجرة بعينها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قوله: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾، أي: وقلنا: يا آدم. وآدم: هو أبو البشر؛ قال ﷺ: «**كلّكم لآدم، وآدم من ترابٍ، لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلّا بالتّقوى**»(١).

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، «أنت»: ضمير منفصل للتوكيد، «وزوجك»: هي حواء عليها السلام، «الجنة»: جنة عدن ودار السلام، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين. أي: اتخذا الجنة سكنا ودار إقامة لكما.

وفي النداء والأمر والخطاب في قوله: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ تشريف وتكريم لآدم وزوجه، وفيه ما لا يخفى من الإهانة لعدوهما إبليس بعد طرده.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أمر عز وجل آدم وزوجه بسكنى الجنة، وأعقب ذلك بالإذن لهما بالأكل من حيث أرادا منها، أي: فكلا من حيث أردتما من أي مكان منها،

---

(١) سبق تخريجه.

ومن جميع خيراتها وثمارها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، أي: ولا تقربا هذه الشجرة بالأكل، والمراد بذلك شجرة بعينها.

والنهي عن قربانها أشد من النهي عن الأكل منها؛ لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، والفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن قربانكما لها بالأكل منها كونكما من الظالمين لأنفسهم، بإيقاعها بالإثم، وتعريضها لعذاب الله، والظالمين بارتكاب ما نهى الله عنه ومخالفة أمره.

وهذا يدل على تحريم الأكل من الشجرة عليهما، وأن النهي للتحريم.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، الفاء: للتعقيب، أي: زين لهما الشيطان الأكل من الشجرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، اللام: للتعليل، و«ما» موصولة، أي: لأجل أن يظهر ويكشف لآدم وحواء الذي سُتر وأخفيَ ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

والمُوَاراة: الستر، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وقيل: اللام في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يبدي لهما ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، «سوءات»: جمع «سوأة»، وهي العورة، أي: من عوراتهما.

وسميت العورة: سوأة؛ لأنه يسوء كشفها ويُستهجن في الطباع السليمة، وكذا النظر إليها.

واستعمل صيغة الجمع في الاثنين؛ للتخفيف؛ كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

فوسوس لهما ليوقعهما في المعصية ابتداء، ولأجل ما يترتب عليها من الأذى والإضرار بهما بكشف سوءاتهما، حسدًا لهما؛ ليسلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

هذا مما وسوس به الشيطان لهما به، مع قوله بعده: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ويدل على هذا قوله في سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

أي: وقال لهما الشيطان؛ كذبًا وافتراءً، مزينًا لهما المعصية بارتكاب ما نهاهما الله عنه والأكل من الشجرة: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أي: عن قربان هذه الشجرة والأكل منها.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«أن»: تعليلية، والمعنى: إلا لئلا تكونا ملكين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

و «ملكين» بفتح اللام: تثنية «ملك».

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، «أو» عاطفة، وهي مانعة خلو، أي: لا يخلو حالكما أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين في الجنة، أو يحصل لكما الأمران: الملكية، والخلود في الجنة، أي: المكث فيها أبدًا.

أي: فلو أنكما أكلتما من هذه الشجرة لحصل لكما ذلكما، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾:

هذا من وسوسته لهما، أي: أقسم وحلف لهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: تحالفا بالله.

﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: أقسم وحلف لهما كاذبًا: إني لكما ممن ينصح في مشورته لكما، وأمره إياكما بالأكل من هذه الشجرة؛ لتكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وقد أكد قوله هذا لهما بثلاثة مؤكدات: القسم، و«إن»، ولام التوكيد.

عن قتادة في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، «فحلف لهما بالله حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله. فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبًا للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك. فقال: «من خدعنا بالله انخدعنا له»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي: جرأهما وأقدمهما على الأكل بغرور منه وخداع، وإطماع لهما، وأنزلهما عن رتبتهما العالية- وهي البعد عن الذنوب- إلى الوقوع فيها.

ودل هذا على أنهما فعلا ما وسوس به لهما الشيطان، فأكلا من الشجرة.

قال ابن القيم: «خروج آدم من الجنة إنما كان بسبب التأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل معصية الرب، والتجرؤ على مخالفة نهيه، وأن يكون ظالمًا مستحقًّا بخروجه من الجنة، هذا لم يقصده أبو البشر قطعًا. ثم اختلف الناس في وجه تأويله».

وبعد أن ذكر ابن القيم عددًا من هذه التأويلات وأبطلها؛ قال: «والصواب في ذلك أن يقال: إن آدم- صلوات الله وسلامه عليه- لما قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ١٠٩- ١١٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٥١.

(٢) ذكره القاسمي في «محاسن التأويل» ٥/ ٢٥.

أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل، لا فعلًا دالًّا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن آدم يظن أن أحدًا يقسم بالله كاذبًا يمين غموس، يتجرأ فيها هذه الجرأة على الله، فغره عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل- وإن كان فيه مفسدة- لمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مسألة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك.

كما تجد هذا التأويل قائمًا في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، إيمانًا لا شك فيه، إذا أقدم على المعصية»[1].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى «حين»، أي: فلما طعما الشجرة، أي: أكلا منها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الآية: ١٢١].

﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ جواب الشرط «لما»، أي: ظهرت وانكشفت لهما عوارتهما بسبب شؤم المعصية؛ عقوبة لهما.

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، أي: وجعلا يضعان على عوراتهما من ورق الجنة، يستتران به حياءً وخجلًا.

و«من» تبعيضية أو بيانية.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ قائلًا لهما: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، الاستفهام: للتقرير والتوبيخ، أي: ألم أنهكما عن قرب تلكما الشجرة والأكل منها.

ومجيء التوبيخ بعد أن بدت لهما سوءاتهما، وتحيَّلا لستر عوراتهما؛ أشد وقعًا في

نفوسهما؛ بظهور أثر معصيتهما لهما، بخلاف ما لو جاء التوبيخ بعد الأكل مباشرة.

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَنْهَكُمَا﴾: للمبالغة في التوبيخ.

وهذا يدل على أن النهي عن قربان الشجرة كان مشفوعًا بالتحذير من الشيطان، الذي تسبب لهما بالأكل منها.

ومعنى ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو بيِّن العداوة ومظهرها بترك السجود لآدم، وتكبره عليه، وحسده له، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [الآية: ١١٧].

وفي هذا تذكير للأمة بعداوة الشيطان لأبيهم، وتحذير لهم منه.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾:

هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٣٧].

قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾، أي: قال آدم وحواء: يا ربنا؛ اعترافًا منهما بالمعصية، ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، أي: نقصنا أنفسنا حقها، وأضررنا بها بالأكل من الشجرة، وفعل ما نهيتنا عنه. فانكشفت بسبب ذلك عوراتنا، وعرضنا أنفسنا لغضبك يا ربنا.

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: شرطية، وقبلها لام: التوطئة للقسم مقدرة، والتقدير: والله، لئن لم تغفر لنا وترحمنا، أي: وإن لم تغفر بستر ما فعلنا من المعصية والظلم لأنفسنا، وتتجاوز عنا.

﴿وَتَرْحَمْنَا ﴾ بقبول توبتنا، وحفظنا من المعاصي، وتوفيقنا للعمل الصالح، وإثابتنا عليه.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم المقدر، أي: لنكونن من الهالكين بارتكاب سبب الخسران، والهلاك بالعصيان.

والخسار والخسران: عدم الربح، أو: عدم الربح مع ضياع رأس المال.

قال ابن القيم: «والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم

يغفر للإنسان فيَقِهِ السيئات، ويرحمْه فيؤتِهِ الحسنات، وإلا هلك ولا بد؛ إذ كان ظالمًا لنفسه، ظلومًا بنفسه»(١).

وقد غفر الله لهما، ورحمهما، وتابا عليهما؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

قال قتادة: «قال آدم: يا رب، أرأيت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذن أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأل التوبة، وسأل النظرة، فأعطيَ كل واحد منهما الذي سأل»(٢).

يقال: سعد آدم بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلى التوبة، ولم يقنط من الرحمة.

وشقى إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، بل أضافه إلى ربه، ولم يتب، وقنط من الرحمة(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢٤﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾، أي: قال الله عز وجل مخاطبًا لآدم وحواء وإبليس، وآمرًا لهم أمرًا كونيًّا: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾.

والهبوط: النزول من أعلى لأسفل.

أي: انزلوا من الجنة ومن السماء إلى الأرض، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ [الآية: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقد يأتي الخطاب بالتثنية، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ١١٦.

(٣) ذكره القاسمي في «محاسن التأويل» ٥/ ٢٦ عن الجشمي.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الآية: ١٢٣] خطابًا لآدم وإبليس؛ لأن حواء تبع لآدم.

وفي هذا إشارة إلى أن العمدة في العداوة آدم وإبليس.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون بعضكم لبعض عدو؛ فإبليس عدو لآدم وحواء، وعدو لذريتهما، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: استقرار، أو موضع استقرار، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولكم فيها متاع إلى حين.

و«المتاع»: ما يتمتع به، وينتفع به.

و«الحين»: المدة من الزمن طويلة أو قصيرة.

والمعنى: ولكم في الأرض متاع تتمتعون به وتنتفعون به؛ من مسكن، ومأكل، ومشرب، وملبس، وغير ذلك، إلى وقت انقضاء آجالكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، أي: قال الله عز وجل: «فيها»، أي: في الأرض، «تحيون»، أي: تعيشون على ظهرها. والمراد: آدم، وزوجه، وذريتهما.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، أي: وفي باطنها تدفنون بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦].

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وابن ذكوان؛ بفتح حرف المضارعة، وضم الراء: «تَخْرُجُونَ»، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

أي: ومنها تخرجون وتبعثون يوم القيامة؛ للحشر والحساب، والجزاء على الأعمال.

الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله عز وجل لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة، وإباحته لهما الأكل مما شاءا من ثمارها وخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

٢- تشريف آدم بخطاب الله تعالى له.

٣- امتحان الله تعالى لآدم وزوجه؛ بنهيهما عن قربان شجرة بعينها، وتحذيرهما من الأكل منها، فيكونان من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤- أن النهي يقتضي التحريم، وأن الوقوع فيما نهى الله عنه ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- وسوسة الشيطان لآدم وزوجه، وتزيينه لهما الأكل من الشجرة، وإيقاعهما في معصية الله؛ ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما؛ لقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

٦- خداع الشيطان لآدم وزوجه، وكذبه عليهما، واستدراجه لهما؛ للأكل من الشجرة، بإطماعه لهما بالملكية أو الخلود إن أكلا منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمَا﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾، وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾.

٨- زعم الشيطان- كذبًا وزورًا- لآدم وزوجه أنه لهما من الناصحين، وإقسامه على ذلك، وتأكيده لهما إمعانًا منه في خداعهما؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٩- إيقاع الشيطان بغروره آدم وزوجه بالأكل من الشجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

١٠- انكشاف عورة آدم وزوجه لهما بذوقهما الشجرة وأكلهما منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ

لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١].

١١- أن كشف العورة أمر مستهجن في الطباع السليمةْ، والفطر المستقيمةْ، لهذا سارع آدم وزوجه للتحيُّل لستر عوراتهما لما ظهرت؛ بخصف أوراق الجنة عليهما؛ حياء وخجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٢- توبيخ الله لآدم وزوجه في أكلهما من الشجرة، وطاعتهما للشيطان في أمره لهما بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٣- إثبات نداء الله تعالى لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾، وفي هذا إثبات الكلام لله عز وجل.

١٤- عدواة الشيطان لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٥- ينبغي لبني آدم الحذر من الشيطان ووساوسه وخداعه وغروره؛ فهو عدو لهم؛ لعداوته المتأصلة لأبويهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

١٦- اعتراف آدم وزوجه بظلمهما لأنفسهما؛ بمخالفتهما أمر الله، وأكلهما من الشجرة، وتعريض أنفسهما لغضب الله وعقابه، وإلحاق الضرر بهما بظهور عوراتهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

١٧- انكسار آدم وزوجه لربهما، وابتهالهما إليه أن يغفر لهما زلتهما ويرحمهما فلا يكونا من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٨- أن المعاصي ظلم للنفس، وتعريض لها للخسران، مما يوجب البعد عنها، واستغفار الله وطلب المغفرة والرحمة لما فرط منها.

١٩- أمر الله تعالى وحكمه كونًا بهبوط آدم وزوجة وإبليس من الجنة ومن السماء إلى

الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

٢٠- ثبوت العداوة كونًا بين آدم وزوجه وبين إبليس؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

٢١- حكم الله تعالى كونًا بأن الأرض مستقر لآدم وزوجه، ولإبليس وذريته، فيها استقرارهم، وفيها متاعهم إلى انقضاء آجالهم وانقضاء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٢- أن في الأرض حياة آدم وزوجه وذريتها، ومعاشهم على ظهرها، وفيها مماتهم ودفنهم في بطنها، ومنها إخراجهم وبعثهم أحياء يوم القيامة للحشر والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

٢٣- مشروعية دفن الميت في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾، «يا»: حرف نداء، و«بني»: منادى، «وبني»: مضاف و«آدم»: مضاف إليه.

و«آدم»: هو أبو البشر، وبنوه: هم البشر، وبنوَّتهم لآدم تعتبر أعم رابطة تربطهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ودياناتهم، ومللهم ونِحَلهم، فكلهم لآدم وآدم من تراب، لا يجوز لأحد أن يفخر على أحد، ولا جنس على جنس، ولا أبيض على أسود، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد أحسن القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء(١)

وأفضلهم وأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**»(٢).

﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ ﴾، «قد» حرف تحقيق، أي: قد خلقنا وأوجدنا لكم ورزقناكم لباسًا، والرزق كله منزل من عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧)، وانظر: «شمس العلوم» (٩/ ٥٨٥٨).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، من حديث طويل عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ.

واللباس: ما يلبس من الثياب بأنواعها كالقميص والإزار، والرداء والعباءة وغير ذلك.

﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ صفة لـ﴿لِبَاسٗا﴾، ومعنى ﴿يُوَٰرِي﴾ يستر. والسوءات: جمع سوأة، وهي العورة.

والمعنى: قد أنزلنا عليكم لباسًا يستر عوراتكم. وسميت العورات سوءات؛ لأنه يسوء كشفها في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، كما يحرم شرعًا كشفها والنظر إليها.

واللباس يستر العورات وسائر الأبدان، كما يتقى به البرد والحر، وإنما وصف بأنه يواري السوءات، دون غيرها؛ لأن من أعظم فوائده ستر العورات التي يجب سترها.

﴿وَرِيشٗاۖ﴾ معطوف على: ﴿لِبَاسٗا﴾، فيكون من عطف الذوات، أي: أنزلنا عليكم لباسًا، وأنزلنا عليكم ريشًا.

وقد يكون ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ فيكون من عطف الصفات، أي: فيكون صفة ثانية لـ ﴿لِبَاسٗا﴾.

والريش والرياش: المال والزينة والجمال في الأثاث والمتاع والثياب والفرش والمراكب وغير ذلك.

عن علي- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «**الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي**»(١).

ولا يعرف قدر نعمة اللباس إلا من فقده، فلم يجد ما يستر به عورته، وما يقيه البرد والحر.

ولك أخي أن تتصور حال الإنسان عريانًا، رجلًا كان أو امرأة، لتحمد الله- عز وجل- وتشكره على نعمة اللباس- فإن الله عز وجل جعل جمال الإنسان بعد تقوى الله باللباس وستر عورته.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر والكسائي: «ولباسَ» بالنصب معطوف على ﴿لِبَاسٗا﴾، فيكون لباس التقوى مما أُنزل عليهم، وتكون جملة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ مستأنفة. وقرأ الباقون: ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرفع، مبتدأ وخبره ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٧، ١٥٨).

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو اللباس المعنوي، بالإيمان بالله وخشيته، وتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ظاهرًا وباطنًا.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على قراءة الرفع، أي: ولباس التقوى المعنوي خير من اللباس الحسي بالثياب والرياش والجمال الظاهر، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له أي: للباس التقوى، فهو خير لباس.

وعلى قراءة النصب تكون الإشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: إلى اللباس، والريش ولباس التقوى أي: إلى الثلاثة، وأشار إليها بإشارة المفرد «ذلك» بتأويل «المذكور» وبإشارة البعيد تعظيمًا لهذه النعم.

والمعنى على هذا: ذلك خير أعطاه الله بني آدم، وفيه امتنان على بني آدم بالجمع لهم بين السِّترين والزينتين، ستر وزينة البدن الظاهر باللباس والرياش، وستر وزينة القلب والباطن بتقوى الله، وبذلك كمال الظاهر والباطن.

قال السعدي[1]: «﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو أن يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك نفع، وأيضًا فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة».

وقد أحسن القائل:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى — تقلب عريانًا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه — ولا خير فيمن كان لله عاصيا[2]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة مستأنفة، والإشارة فيها إلى ما أنزله الله من اللباس الذي يواري السوءات والريش ولباس التقوى، وما أنزل من الآيات الشرعية.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٠).

أي: ذلك المذكور من آيات الله العظيمة الكونية والشرعية، ونعمه الجسيمة، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وتمام قدرته، وكمال فضله، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، وأشار إليها بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمًا لها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ للتنبيه والحض على التذكُّر والتعريض بمن لم يتذكر.

والجملة تعليلية، أي: لأجل أن يذَّكَّروا. والتذكر: هو الاعتبار والاتعاظ.

أي: لعلهم يعتبرون ويتعظون، ويذكرون عظيم قدرة الله- عز وجل- وجزيل فضله ونعمه، فيشكروه ويعبدوه وحده دون سواه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

بعدما امتنَّ الله- عز وجل- على بني آدم بما أنزل عليهم من اللباس الذي يواري سوءاتهم والريش ولباس التقوى، ورغبهم بالتقوى التي هي خير لباس نهاهم وحذرهم من أن يفتنهم الشيطان بنزع هذا اللباس الظاهر والباطن، كما فعل مع الأبوين عليهما السلام، حيث أوقعهما في المعصية فبدت لهما سوءاتهما.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، «لا»: ناهية، و﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ مبني على الفتح في محل جزم؛ لاتصاله بنون التوكيد.

والفتنة: الابتلاء والامتحان.

والمعنى: لا يخدعنكم الشيطان بوسوسته وتزيينه المعصية لكم، والمراد النهي والتحذير من طاعته، والتخلي عما امتنَّ الله به عليهم من اللباس، ولباس التقوى.

والشيطان: إبليس وجنوده وقبيله، وأعوانه من شياطين الإنس والجن. مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل»، أي: لا يفتننّكم فتنة مثل إخراج أبويكم آدم وحواء من الجنة.

وغلب الأب على الأم، وأطلق عليهما أبوين من إطلاق الأب على الجد الأعلى.

وفي هذا: تأكيد للنهي والتحذير من فتنة الشيطان بتذكيرهم بعظيم فتنته، وشدة عداوته لهم ولأبويهم، وأنه عدو مضل مبين، وأن عداوته لهم قديمة متأصلة، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨. الأنعام: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: من الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، فيها ما لا يعلمه إلا الله من أنواع النعيم كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(١).

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: في حال كونه ينزع عنهما لباسهما، حيث تسبب في معصيتهما وأكلهما من الشجرة، ومن ثم نَزْع وخلع لباسهما الظاهر، وظهور سوءاتهما، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

أي: انكشفت لهما عوراتهما بعد أن كانت مستورة، والتعبير بالمضارع ﴿يَنزِعُ﴾ لاستحضار الصورة.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يريهما عوراتهما.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل والتأكيد للنهي والتحذير عن فتنة الشيطان.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان.

﴿يَرَىٰكُمْ﴾، أي: يشاهدكم، والخطاب لبني آدم.

﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، ﴿هُوَ﴾ ضمير منفصل للتوكيد، أي: هو وذريته وجنوده من الشياطين.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، أي: من حيث لا تشاهدونهم، فيأتي الإنسان من حيث لا يدري كما قال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[(١)].

ولهذا أمر الله عز وجل بالاستعاذة بالله منه، وسمَّاه الوسواس الخناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

وهذا لا ينفي أن يُمكِّن الله البشر من رؤية بعض الشياطين أو الجن في بعض الحالات على صورة البشر أو غير ذلك، معجزة لنبي، أو كرامة لولي ونحو ذلك.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتًا من الجن تفلت عليَّ البارحة**- أو كلمة نحوها- **ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]»[(٢)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، قلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة**»؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٩)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)، من حديث صفية- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٤١).

وعيالًا، فرحمته فخليت سبيله. قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**»- وفي آخره قال ﷺ: «**تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟** قال: لا. قال: **ذاك شيطان**»(١).

كما روي تمثل الشيطان للمشركين في دار الندوة برجل من أهل نجد(٢).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: الجملة مستأنفة، فيها تأكيد للنهي والتحذير السابق من فتنة الشيطان، بتوكيد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتبعونهم ويطيعونهم، وفي هذا ذم لهم وتحذير للمؤمنين من مسلكهم.

وفيه طمأنة للمؤمنين بحفظهم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا، تنصب مفعولين، الأول قوله: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، والثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي. والمراد به هنا الجعل الكوني. أي: جعلنا كونًا وقدرًا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتولونهم ويضلونهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن البشر كلهم بنو آدم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وآدم من تراب، فأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٢- تكريم الله- عز وجل- لبني آدم بخطابه لهم.

٣- امتنان الله- عز وجل- على بني آدم بما أنزل عليهم وأوجد لهم من الخير؛ من اللباس الذي يستر عوراتهم والريش الذي ينتفعون به ويتجملون، ولباس التقوى؛

---

(١) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

(٢) سيأتي تخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الآية ٣٠ من سورة الأنفال].

لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

٤- وجوب ستر العورات؛ لأنه يسوء ويحرم كشفها والنظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾.

٥- جواز التجمل والتمتع والانتفاع بما أباح الله من المال والأثاث، والمتاع وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾.

٦- الترغيب بلباس التقوى، وأنه خير لباس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

٧- أن اللباس منه ما هو حسي يستر العورات والأبدان ويتجمل به في الظاهر، ومنه ما هو معنوي وهو أعظم وأجل، وهو لباس التقوى، به ستر العيوب، ومغفرة الذنوب، وتيسير الأمور والمخرج من جميع الكروب.

٨- أن ما أنزل الله تعالى من اللباس والريش، ولباس التقوى كل ذلك من آيات الله- عز وجل- الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته، وعظيم نعمه على عباده مما يستوجب عليهم تعظيمه وشكره؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

٩- أن الحكمة فيما أنزل الله تعالى على بني آدم من اللباس والرياش، ولباس التقوى، لأجل أن يتذكروا ويتعظوا ويذكروه ويشكروه ويعبدوه وحده دون من سواه؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٠- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل.

١١- تحذير بني آدم من فتنة الشيطان ووسوسته وتزيينه وطاعته، والتخلي عما امتن الله به عليهم من اللباس ولباس التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾.

١٢- شدة عداوة الشيطان لآدم وذريته، وتأصلها منذ القدم، بفتنته لآدم وزوجه بتزيينه المعصية لهما بالأكل من الشجرة، وإخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما ليريهما سوءاتهما؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾.

١٣- إطلاق الأب على الجد الأعلى، وإطلاق الأب على الأم تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَبَوَيْكُم﴾.

١٤- حرص الشيطان على إهلاك بني آدم وإبعادهم من الخير وإذلالهم وكشف عوراتهم.

١٥- رؤية الشيطان وقبيله لبني آدم من حيث لا يراهم بنو آدم حكمة لله عز وجل وابتلاءً وامتحانًا لبني آدم مما يوجب الحذر منهم ومن كيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

١٦- تولي الشياطين للذين لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يزينون لهم الباطل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تدفعهم إلى الباطل والشر دفعًا.

١٧- لا ولاية للشيطان على الذين آمنوا، لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولهذا قال تعالى في الآيات بعد هذه الآية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، ثم أتبع ذلك ببيان ما ترتب على ذلك وهو إصرارهم على فعل الفواحش، ومن ثم زعمهم أنهم وجدوا عليها آباءهم وأن الله أمرهم بها، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾، الواو استئنافية و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، و﴿فَعَلُوا﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوا﴾.

والفاحشة: كل ما يستفحش ويستقبح في الشرع وعرف المسلمين وعند أهل الفطر المستقيمة والعقول السليمة، كالشرك بالله، وكشف العورات في الطواف، والزنا والسرقة ونحو ذلك.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، أي: قالوا؛ تعليلًا، وتبريرًا لفعلهم الفاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، أي: أدركنا آباءنا ورأيناهم يفعلونها، فنحن نفعل مثلهم.

كما قال تعالى عنهم: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

وكونهم وجدوا عليها آباءهم لا يبرر لهم فعلها وتقليد آبائهم على جهل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا

يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، أي: والله أمرنا بفعلها.

والمعنى: أن ديدنهم وعادتهم فعل الفواحش والتبرير لذلك بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، والله أمرهم بها، وهذا كذب وافتراء على الله، كما كانوا يحرمون أشياء ويزعمون أن الله حرمها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وسواء كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها أو أمر بها آباءهم فهم يفعلون ما أُمر به آباؤهم فهم بهذا كله كذبة مبطلون.

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فنفى أن يأمر الله بالفحشاء، وأنكر عليهم القول على الله بلا علم.

والأمر في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد ردًّا عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾، أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر بفعل الفحشاء مما تفعلون ولا غيره.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، و«ما»: موصولة، بمعنى الذي، أي: أتقولون على الله القول الذي لا تعلمون أن الله أمر به، ولا تعلمون أن الله لا يليق بجلاله وكماله الأمر به أو بمثله. ومن ذلك قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعنون ما يفعلونه من الفواحش.

وفي الآية إنكار شديد، وتهديد أكيد لمن يقول على الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

رد الله- عز وجل- على المشركين في زعمهم أن الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش، وأبطله إبطالًا عامًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ووبخهم على ذلك بقوله:

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثم أكد بطلان زعمهم ببيان حقيقة ما أمر الله تعالى به فقال: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ الآية.

قوله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أي: قل لهم يا محمد ولغيرهم ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أي: بالعدل في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

أي: قل أمر ربي بالعدل في كل شيء، وهو الوسط في الأمور كلها؛ في العبادات والمعاملات وغير ذلك، وأساس ذلك كله وقوامه التوحيد؛ ولهذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «القسط: لا إله إلا الله».

ومنه العدل في الأقوال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل في الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أقسطوا وأقيموا، أو بأن أقسطوا وأقيموا. كما قيل:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليَّ من لبس الشفوف[1]

وهو أشبه بعطف الخاص على العام، فإن من أعظم القسط والعدل إقامة الوجوه عند المساجد ودعاء الله- عز وجل- وإخلاص الدين له.

أي: وأقيموا وجوهكم بالاستقامة على دين الله عز وجل، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، في المساجد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ [يونس: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ

(١) البيت لميسون بنت بحدل. انظر: «درة الغواص» (ص٤٩).

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ [الروم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: عند كل صلاة وموضع سجود.

﴿وَٱدْعُوهُ﴾، أي: واعبدوه. والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهما متلازمان وكلاهما عبادة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وفي الحديث: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: مخلصين له العبادة والطاعة وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

فهذا الذي أمر الله- عز وجل- به: القسط، والتوجه إليه، وتعظيمه بإقامة الصلاة في المساجد وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له. وليس من ذلك ما يفعلونه من الفواحش ويزعمون أن الله أمرهم به من الشرك بالله، والطواف وهم عُراة، ونحو ذلك.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، الكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية، فشبه عود خلقهم ببدئه تقريرًا وتوكيدًا لكمال قدرته على ذلك.

أي: كما بدأ خلقكم أول مرة ترجعون إليه خلقًا آخر بعد موتكم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٨٥)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٥-٩].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ:** ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»(١).

وقيل: معنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾، أي: كما كتب وقدّر عليكم تكونون، فمن كتب له السعادة فنهايته إلى السعادة، ومن كتب عليه الشقاء فنهايته إلى الشقاء.

كما جاء في حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(٢).

قال ابن القيم بعدما ذكر هذا القول: «وهذا المعنى صحيح في نفسه، دل عليه القرآن والسُّنَّة والآثار السلفية، وإجماع أهل السنة، وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظائرها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله- سبحانه- فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، فجاء باحتجاج في غاية

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧)، ومسلم في الجنة- فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣)، وأحمد (١/ ٢٣٥، ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

الاختصار والبيان ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي: كما بدأكم ترجعون إليه حال كونكم فريقين، فريقًا هدى، وفريقًا حق عليهم الضلالة، والفريق: الطائفة والجماعة من الناس.

أي: فريقًا: وفقهم الله إلى الإيمان به وتوحيده وإخلاص الدين له.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾، أي: ثبتت ووجبت عليهم الضلالة قدرًا وكونًا، فلازموا الضلال والشرك واستمروا على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وقدم في الذكر فريق الهداية تشريفًا وتعظيمًا لهم.

ونسب الهداية إليه، فقال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، بينما قال: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾، ولم يقل: «وفريقًا أضل» تعليمًا لحسن الأدب معه عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٢).

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾، أي: لأنهم ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: جعلوا الشياطين أولياء لهم وأنصارًا يوالونهم ويتبعونهم ويحبونهم من دون الله. فحقت عليهم الضلالة

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي رضي الله عنه.

بسبب ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾، أي: ويظنون أنهم بهذا الضلال على هدى لانطماس بصائرهم، فضلالهم ضلال مركب، ضالون، ولا يدرون أنهم ضالون، بل يظنون أنهم مهتدون، وهذه مصيبة لا تقل عن مصيبة ضلالهم، بل هي أشد؛ لأنها تمنعهم من التفكر والنظر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

الفوائد والأحكام:

١- أن ديدن المشركين فعل الفواحش والاحتجاج والتعليل لذلك بأنهم وجدوا عليها آباءهم، وأن الله أمرهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾.

٢- أن من أسباب ضلال كثير من الناس التقليد الأعمى لآبائهم أو غيرهم، واتباعهم لهم على جهل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ مما يوجب الحذر من ذلك.

٣- جرأة المشركين على الكذب على الله بأنه أمرهم بفعل الفواحش أو أمر آباءهم بفعلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ فجمعوا بين فعل الفاحشة، والكذب على الله بأنه أمرهم بها.

٤- إبطال قول المشركين أن الله أمرهم بفعل الفواحش، وبيان أنه عز وجل يتقدس ويتعالى عن ذلك، ولا يليق ذلك بجلاله وكماله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾، أي: لا يأمر بها شرعًا، وإن كان قدرها وأمر بها كونًا.

٥- الإنكار والتوبيخ للمشركين والتهديد لهم في قولهم على الله بلا علم، بل بمحض الجهل والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦- أن الله- عز وجل- إنما أمر بالقسط، وإقامة الوجوه عند كل مسجد ودعائه والإخلاص له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾.

٧- إثبات أنه ﷺ رسول مبلغ عن الله وحيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي ۖ﴾.

٨- وجوب القسط والعدل في كل شيء في العبادات والمعاملات وغير ذلك، في أداء حقوق الخالق وحقوق الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾.

٩- وجوب الاستقامة على دين الله- عز وجل- وعبادته، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، وإقامتها في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾.

١٠- عظم منزلة الصلاة في الإسلام فهي عموده، وعظم مكانة المساجد ووجوب تعظيمها وإعلاء شأنها حسيًّا ببنائها للمصلين، ومعنويًّا بالعبادة والصلاة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(١).

١١- أن من شرط صلاح العمل وقبوله كونه خالصًا لله عز وجل، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: أخلص العمل لله وهو متبع للرسول ﷺ.

١٢- إثبات المعاد والبعث، وقدرة الله- عز وجل- التامة على ذلك، وأنه عز وجل كما بدأ الخلق أول مرة يعيدهم مرة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

١٣- إثبات قدر الله السابق، وهدايته كل مخلوق لما قدر له؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾.

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٥٠).

١٤- الإشارة للفرق الشاسع، والبون الواسع بين من هداهم الله، ووفقهم بفضله؛ لهذا قدمهم في الذكر بالآية تشريفًا وتعظيمًا لهم. وبين من حقت عليهم الضلالة- بعدله- فضلوا وكفروا؛ لقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

١٥- من كتب الله له الهداية فلا مضل له، ومن كتبت عليه الضلالة فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾. كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال ﷺ: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١).

فهو عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٦- في نسبة الهداية إليه عز وجل في قوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ دون الضلالة تعليم لحسن الأدب مع الله عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**».

١٧- أن العلة في ضلال المشركين وغيرهم من أهل الضلال اتخاذهم الشياطين أولياء واتباعهم لهم من دون الله، مما يوجب الحذر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٨- وجوب موالاة الله- عز وجل- وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أي: هم اختاروا هذا الطريق بأنفسهم وفي هذا رد على الجبرية.

٢٠- انطماس بصائر المشركين ومن كتب عليهم الضلال، حتى إنهم ليظنون أنهم مهتدون، وهم في دركات الجهل والكفر والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وهذه مصيبة أعظم من ضلالهم؛ لأنها تحول بينهم وبين النظر والتفكر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين.

---

(١) أخرجه مسلم في «الجمعة» (٨٦٨)، والنسائي في «النكاح» (٣٢٧٨)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢١- أن الهداية مطلب لكل إنسان، لكن لا يوفق لها إلا من هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كانوا يطوفون بالبيت عراة- الرجال والنساء- الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تِطوافًا تجعله على فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾»(١).

قال ابن القيم: «جمعت هذه الآية أصول أحكام الشريعة كلها؛ الأمر والنهي والإباحة والخبر»(٢).

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾، ﴿مَسْجِدٖ﴾ اسم مكان، وهو البيت الذي بني لعبادة الله عز وجل، أو هو مصدر بمعنى السجود والصلاة، أي: عند كل صلاة.

أي: تزينوا عند جميع المساجد، وجميع الصلوات فرضها ونفلها. والأمر في الأصل للوجوب، وهو محمول على الوجوب في حدود ستر العورة بالإجماع، وهو للاستحباب فيما زاد على ذلك من الزينة، باللباس والطيب والسواك، ويتأكد هذا في صلاة الجمعة،

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير- قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ (٣٠٢٨)، والنسائي في الحج- باب قول الله عز وجل: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ (٢٩٥٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٤٩- ١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٤)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ٢٢٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

وصلاة العيدين، كما دلت السنة على ذلك.

وفي الآية إبطال لما كان يفعله المشركون من الطواف بالبيت وهم عراة.

وقد أمر ﷺ أبا بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة أن ينادي: «أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

وأفضل لباس الزينة للرجال البياض، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر، وينبت الشعر»**(٢).

وقد رُوي أن تميمًا الداري- رضي الله عنه- اشترى رداءً بألف فكان يصلي فيه(٣).

وأين هذا ممن يصلون بقميص ولباس النوم، وبخاصة في الحرم، بينما إذا ذهب أحدهم لأقل مناسبة أو لمقابلة أي شخص، أو خرج إلى السوق لبس أجمل ثيابه.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾، أي: كلوا واشربوا مما رزقكم الله من الطيبات.

والأمر للإباحة، وفيه امتنان عليهم، وإبطال للتحريم الذي ابتدعه المشركون.

وقد يجب الأكل والشرب فيما إذا خاف الإنسان على نفسه من الهلاك جوعًا أو عطشًا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ الإسراف: تجاوز الحد، إما بتعدي الحلال إلى الحرام، وإما بالزيادة على القدر الكافي، مما قد يضر بالصحة من المآكل والمشارب، أو مما قد يضر بالمال من الملابس والمراكب والمساكن والأثاث وغير ذلك، وكل ذلك لا يجوز، والواجب الاعتدال والتوسط في ذلك كله.

قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: **«كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان؛ سرف ومخيلة»**(١).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الطب (٣٨٧٨)، وفي اللباس (٤٠٦١)، وأحمد (١/ ٢٤٧).

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢)- بعد أن ساقه بإسناده عن أحمد: «وهذا حديث جيد الإسناد على شرط مسلم». وأخرجه أحمد أيضًا (٥/ ٧، ١٢)- مختصرًا دون ذكر الإثمد، من حديث سمرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢) من رواية الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

وفي رواية: «**كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة**»(٣).

وعن المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلًا لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٤).

قال الشاعر(٥):

وإنك مهما تعط بطنك سُؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإسراف، أي: إنه عز وجل لا يحب المسرفين في الأكل والشرب، وغير ذلك.

قال الطبري(٦): «يقول: إن الله لا يحب المعتدين حده، في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرم، بإحلال الحرام وتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به».

وإذا كان عز وجل لا يحب المسرفين فإنه يحب المقتصدين المعتدلين، وفي هذا إثبات المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس- قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٥) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد- كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٥) البيت لحاتم الطائي. انظر: «ديوانه» (ص٢٦٨).

(٦) في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٦).

قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

أمر عز وجل بأخذ الزينة عند كل مسجد، وأمر بالأكل والشرب ونهى عن الإسراف، ثم أتبع ذلك بالرد على من حرم شيئًا من زينة الله التي أخرجها لعباده من الملابس والطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك بلا دليل.

﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرّموا أشياء بمجرد آرائهم الفاسدة وأهوائهم.

﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم استفهام، وهو هنا: للإنكار، أي: من الذي حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وفيه تهكم بالمشركين الذين حرموا ما أحله الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقوله: ﴿زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، أي: ما يُتزين ويُتجمل به من أنواع الملابس، ونحو ذلك من المساكن والمراكب، وغير ذلك التي أخرجها الله من الأرض وأوجدها لعباده.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، وهي عبودية الانقياد لأمره عز وجل الكوني القدري، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

فهذه الزينة والطيبات يتمتع بها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وهناك العبودية الخاصة: عبودية أوليائه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ معطوف على ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾، أي: ومن حرم الطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك التي أخرجها الله وأوجدها لعباده، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى

ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

كما في تحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

والطيبات: اسم عام لما طاب كسبًا وطعمًا.

فأنكر عز وجل في هذه الآية على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق تأكيدًا لحلها، ولهذا قال بعده:

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الضمير ﴿هِيَ﴾ يعود إلى الزينة والطيبات من الرزق. واللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تدل على الاختصاص وعلى الإباحة.

قرأ نافع: «خالصةٌ» بالرفع على أنها خبر ثان لـ﴿هِيَ﴾، أي: هي لهم حلال في الدنيا، وهي لهم خالصة يوم القيامة.

وقرأ الباقون: ﴿خَالِصَةٗ﴾ بالنصب على الحال من المبتدأ، أي: هي لهم حلال في الدنيا حال كونها خالصة لهم يوم القيامة.

والمعنى: أن هذه الزينة والطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا؛ لأنهم يستعينون بها على طاعة الله تعالى وشكره، بخلاف الكفار فإنهم يعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على معصية الله عز وجل. ولهذا فإنهم في الآخرة يُحرمون منها، وتكون خالصة للذين آمنوا لا يشاركهم فيها سواهم في ذلك اليوم بخلاف الحال في الدنيا فإن الله تعالى قال: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفرق بين العطاءين، فعطاء الله عز وجل، للمؤمنين ترغيب لهم وحض وتكريم وإنعام، وعطاؤه للكافرين إملاء لهم وإمهال واستدراج وانتقام.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» أي: مثل هذا التفصيل في هذه الآيات ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نوضحها ونبينها.

﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لقوم ذوي علم بالله وما يجب له عز وجل، ينتفعون بعلمهم،

وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى في ذكر الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أمر عز وجل النبي ﷺ أن ينكر على المشركين تحريم الزينة والطيبات مما لم يحرمه الله، ثم أمره في هذه الآيات أن يبين لهم ما حرمه ربه عليهم- فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: إنما حرم ربي الفواحش، وما ذكر معها في هذه الآية، لا ما حرمتموه من الزينة والطيبات.

وفي إسناد التحريم إلى الرب عز وجل في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ تنبيه وإرشاد إلى أن التحريم والتحليل والتشريع إلى الرب عز وجل الخالق المالك المدبر، لا إلى غيره.

والتحريم: هو الحظر والمنع.

والفواحش: جمع فاحشة، وهي كل ما يستفحش ويستقبح لشناعته وقبحه، كالزنا واللواط، والطواف بالبيت عراة ونحو ذلك.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة في الموضعين، أي: الذي ظهر منها وأُعلن وجُهر به، كالزنا علانية والطواف بالبيت عراة، ونحو ذلك، والذي بطن وأُخفي وأُسر كاتخاذ الأخدان وأمراض القلوب، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

وعن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، لهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾، «الإثم» الذنب، وهو كما قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»(٢).

وسمي الذنب إثمًا؛ لأنه يؤثم صاحبه ويوجب له العقوبة.

و«الإثم»: اسم جنس يعم جميع الآثام والذنوب، وهو أعم من الفواحش، وعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وخصت الفواحش وقدمت لقبحها وشناعتها.

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾، أي: الاستطالة على الناس وظلمهم والاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو من «الإثم» وعطفه عليه من عطف الخاص على العام؛ لعظمه وتعدي ضرره إلى الغير، فكل بغي إثم، وليس كل إثم بغيًا.

وقد يحمل الإثم على الذنب الذي ضرره المباشر على فاعله، ويحمل البغي على الذي يتعدى ضرره المباشر إلى الآخرين، وهو في ثاني الحال ضرر على صاحبه.

أما الضرر غير المباشر فإن للذنوب كلها ضررها وأثرها العام على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ صفة لـ«البغي»، وهي صفة كاشفة؛ لأن البغي لا يكون إلا بغير حق.

وفي الحديث: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٣).

والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من

﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على «الفواحش» أي: وحرم عليكم الإشراك بالله، أو الشرك بالله.

والشرك دعوة غير الله وعبادته مع الله، وتسويته بالله، كما ذكر تعالى- عن المشركين قولهم: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم: «كل شرك بالله، وإن دق، في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلًا بغيره في اللفظ، أو القصد، أو الاعتقاد»(١).

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: الذي لم ينزل الله به سلطانًا، والباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للمصاحبة، أو بمعنى: «على»، ﴿سُلْطَٰنًا﴾، أي: حجة وبرهانًا على مشاركته لله، بل أنزل الله السلطان والحجة والبرهان على نفيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوفة كسابقتها على ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، أي: وحرم عليكم القول على الله ما لا تعلمون.

و«ما»: موصولة، أي: الذي لا تعلمون.

والمعنى: وحرم عليكم القول والافتراء والكذب على الله، بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، والزعم بأن له شريكًا وولدًا، وأنه أمركم بفعل الفواحش وحرم الزينة والطيبات ونحو ذلك.

وهذا أعظم وأعم من الشرك، والشرك أعظم من البغي بغير حق، والبغي أعظم من الإثم، والإثم أعظم وأعم من الفواحش. فترتيبها بدءًا من الأدنى إلى الأعلى والأشد في الحرمة.

الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله- عز وجل- وتشريفه لبني آدم وعنايته بهم، لخطابه وندائه لهم

حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

وتوجيههم بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾.

٢- وجوب ستر العورة في الصلاة والطواف، واستحباب التزين للصلاة والطواف وعند المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

٣- إباحة الأكل والشرب، والامتنان على بني آدم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ وقد يجب الأكل والشرب، كما إذا خاف على نفسه الهلاك.

٤- تحريم الإسراف في الزينة والأكل والشرب، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾.

٥- نفي محبة الله- عز وجل- للمسرفين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

٦- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

٧- إثبات محبة الله- عز وجل- لغير المسرفين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه يحب من لم يكن مسرفًا.

٨- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه.

٩- الإنكار والتوبيخ للذين حرموا زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾.

وفي هذا رد على الذين يرون الزهد في ترك الطيبات، وإيثار الخشن من الطعام واللباس.

١٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله عز وجل عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

١١- إباحة الزينة والطيبات من الرزق، وامتنان الله- عز وجل- على العباد بإخراجها وإباحتها لهم.

١٢- أن ما أخرجه الله من الزينة والطيبات هي للذين آمنوا حلال في الحياة الدنيا، الذين يشكرون الله عليها ويستعينون بها على طاعته.

بخلاف الكفار فإنهم يحاسبون ويعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على

معصية الله تعالى، ولهذا فإنها تكون في الآخرة خالصة للمؤمنين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- الترغيب في الإيمان ببيان إباحة الزينة والطيبات من الرزق للمؤمنين في الحياة الدنيا وتخصيصهم بها في الآخرة دون غيرهم.

١٤- أن الإيمان إنما يقبل ويثمر في الحياة الدنيا، بل وقبل غلق باب التوبة ببلوغ الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها، أما الآخرة فليس فيها إلا الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

١٥- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٦- تفصيل الله- عز وجل- وبيانه للآيات الشرعية والكونية، كما فصل هذه الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

١٧- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم أهل العلم بالله وشرعه دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٨- مدح أهل العلم الذين ينتفعون بعلمهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والتعريض بذم أهل الجهل الذين لا ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٩- أن التحليل والتحريم والتشريع للرب عز وجل الذي له الخلق والملك والتدبير والأمر كله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ الآية.

٢٠- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة له ﷺ، وتشريفه وتكريمه بذلك، وبإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّيَ﴾.

٢١- أن الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٢- حرمة الفواحش مطلقًا ما ظهر منها وما بطن، وجميع الآثام والذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾.

٢٣- أن ما ظهر من الفواحش أشد؛ لأن له أثره المتعدي على الناس؛ لهذا قدم في الآية.

٢٤- أن الفواحش من أعظم الإثم، لهذا خصت بالذكر وعطف عليها الإثم من عطف العام على الخاص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾.

٢٥- أن البغي والتعدي على الناس وظلمهم من أعظم الإثم؛ لهذا عطف على الإثم من عطف الخاص على العام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٦- تحريم الشرك بالله؛ صغيره وكبيره، خفيه وجليه، قليله وكثيره، مما لا حجة عليه ولا برهان، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٢٧- تحريم القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٨- أن المقبول من الاعتقاد والقول والعمل ما أنزل الله به حجة، ودل على صحته العلم الشرعي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما عليه المشركون من الكذب على الله تعالى، وتحريم ما لم يحرم من الزينة والطيبات، واتخاذ الشياطين أولياء من دون الله، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول عليه بغير علم، ثم أتبع ذلك بإنذارهم ووعيدهم.

وفيه وعد للنبي ﷺ بالنصر عليهم؛ كما هي سنته عز وجل في المكذبين للرسل.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: ولكل أمة من الأمم المكذبين للرسل.

والأمة: الجماعة والقرن والجيل، أي: ولكل جماعة أرسل إليهم رسول فكذبوه.

أي: ولكل أمة مدة ووقت محدد، أي: إمهال مدة وفترة زمنية إلى وقت أخذهم بالعذاب.

﴿أَجَلٌ﴾، «الأجل»: يطلق على مدة الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء الإمهال.

فعلى الأول يقال: قضى الأجل، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩].

وعلى الثاني يقال: دنا أجل فلان، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والمراد بالأجل في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: ما يشمل الأمرين.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: فإذا جاء وحضر وقت هلاكهم، أي: الوقت المحدد لهلاكهم.

﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط «إذا»، أي: فلا يتأخرون ساعة ولا يتقدمون.

والسين فيهما؛ للتأكيد.

والساعة: مَثَل في غاية القلة من الزمان.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ تأكيد لعدم تأخرهم، أي: فإذا حان وقت هلاكهم فلا يتأخرون عنه أقل زمان، بل يهلكون حال انتهاء مدتهم وحلول أجلهم؛ كما أنهم لا يتقدمون عليه، بل لا بد من استيفائهم مدة إنظارهم وإمهالهم.

وقدم انتفاء الاستئخار؛ لأن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب.

وأسند الفعلين إليهم، وذكرهما بصيغة الاستفعال؛ للإشعار بأنهم يريدون التأخر، ولكن هيهات لهم ذلك.

والمقصود بهذا إنذار ووعيد المشركين والمكذبين من هذه الأمة، فلا يغتروا.

أي: ما أنتم إلا أمة من الأمم، ولكل أمة أجل، فلكم أجل سيحين حينه، فلا تغتروا بالإمهال.

كما قال بعضهم غرورًا منهم؛ فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وليعلموا أن ما هم فيه استدراج لهم، وليترقبوا كل لحظة حلول العقاب فيهم وأخذهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الخطاب: لجميع الأمم قديمها وحديثها.

و«إما»: مركبة من: «إن»: الشرطية، و«ما»: الزائدة إعرابًا، المؤكدة لمعنى الشرطية وعمومها.

﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: من أنفسكم يا بني آدم، ومن جنسكم، وبلسانكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال تعالى ممتنًا على الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وكون الرسول من نفس الأمة نعمة من الله تعالى عليهم، ولهذا امتن الله تعالى على الأمم بذلك، وهو عين الحكمة وتمامها، وهذا يعكس مدى جهل الذين أنكروا أن يكون الرسل من البشر، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أي: يتلون عليكم آياتي، ويبينون لكم ما فيها من أحكام.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط «إن».

أي: فمن اتقى الله بترك الشرك والكبائر والصغائر، وأصلح أعماله الظاهرة والباطنة؛ بكونها خالصة لله تعالى، موافقة لشرعه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

أي: فلا خوف عليهم فيما يُستقبل؛ لتأمين الله تعالى وحفظه لهم، كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى ولا على ما خلفوا في الدنيا، ولا يصيبهم الحزن على شيء؛ لاكتمال ما هم فيه من النعيم، ولهذا يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وعد عز وجل في الآية السابقة من اتقى وأصلح بانتفاء الخوف والحزن عنهم، ثم توعد الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها بالخلود في النار وبئس القرار.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: جحدوها وأنكروها بقلوبهم.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ﴾، أي: واستكبروا عن العمل بها، والانقياد لها بجوارحهم. والسين والتاء للمبالغة.

وضمَّن «الاستكبار» معنى «الإعراض»؛ فعلق به ضمير الآيات «عنها»، أي: واستكبروا وأعرضوا عنها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، أي: صائرون إليها، وملازمون لها، وماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم، وأكد ملازمتهم لها، وخلودهم فيها؛ بكون الجملتين اسميتين.

الفوائد والأحكام:

١- أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل مدة لإمهالهم، ووقتًا محددًا لإهلاكهم؛ كما أن لكل أمة وجيل وقرن نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٢- أن كل أمة إذا حان أجلها حل بها عذاب الله؛ فلا يمكن أن تتأخر عنه ساعة، ولا أن تتقدم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٣- عدم إفلات المكذبين من العذاب، وخلاصهم منه؛ يدل على هذا تقديم

الاستئخار في الآية.

٤- الإنذار والتحذير للمشركين والمكذبين من هذه الأمة بأن لهم أجلًا لعذابهم؛ كما هي سنة الله تعالى في المكذبين من الأمم قبلهم، فلا يغتروا بإمهال الله لهم؛ فإن أخذه أليم شديد.

٥- عناية الله تعالى ببني آدم، وتكريمه لهم؛ بندائه لهم، وإرسال الرسل إليهم بالآيات لدعوتهم ودلالتهم إلى الخير، ونهيهم عن الشر وتحذيرهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾.

٦- الامتنان على الأمم ببعث الرسل وكونهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾.

٧- أن مهمة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- تبليغ رسالات الله تعالى وآياته المنزلة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾.

٨- الإغراء بالتقوى والإصلاح، والترغيب فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

٩- انتفاء الخوف والحزن يوم القيامة عمن اتقى وأصلح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وإذا انتفى الخوف والحزن عنهم كمل لهم الأمن والسرور. نسأل الله تعالى من فضله.

١٠- الوعيد والتهديد للمكذبين بآيات الله بقلوبهم، المستكبرين عن الانقياد لها والعمل بما فيها بجوارحهم؛ بملازمة النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١١- أن الكفر بآيات الله وعدم الإيمان بها يكون بأمرين: إما بالتكذيب بها وجحودها وإنكارها، وإما بالاستكبار عنها.

١٢- وجوب الحذر من التكذيب بآيات الله تعالى؛ مع ما تشتمل عليه من الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، أنها من عند الله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

١٣- وجوب الحذر من الكبر؛ فإنه من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله وترك العمل به، إن لم يكن أعظمها، وهو سبب طرد إبليس من ملكوت السموات، وحرمانه من رحمة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

١٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، وأهلها مخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، والمراد بالخلود هنا: المكث الأبدي؛ كما دلت على ذلك النصوص الأخرى من الكتاب والسنة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«مَن» اسم استفهام، ومعناه هنا: الإنكار والنفي، و﴿أَظْلَمُ﴾: أفعل تفضيل، أي: أشد ظلمًا.

و«مِن» في قوله: ﴿مِمَّنِ﴾: موصولة، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي «افترى على الله كذبًا»، أي: اختلق على الله كذبًا بنسبة الشريك له والصاحبة والولد، وتحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، «أو»: عاطفة، تفيد معنى التقسيم، أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن فعل هذا، أو فعل هذا.

ومن جمع بين الأمرين بأن افترى على الله الكذب، وكذب بآياته فهو أشد ظلمًا.

وقد تكون «أو» بمعنى الواو، أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن فعل هذا وهذا، أي: ممن جمع بينهما.

قال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فلما كفروا وصدوا عن سبيل الله عذبهم عذابين: عذابًا بكفرهم، وعذابًا بصدهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٢١].

وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الآية: ١٧].

وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [الآية: ٦٨].

وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الآية: ٣٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لمن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يصيبهم حظهم من الكتاب.

والمراد بـ«الكتاب»: اللوح المحفوظ، أي: يصيبهم ما قدر وكتب لهم في اللوح المحفوظ في هذه الحياة الدنيا؛ من الأرزاق والأعمار والأعمال، والشقاوة وأسبابها.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٠- ٢١١.

فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣- ٢٤].

قال ابن القيم بعد أن ذكر القول بأن نصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها، وقول من قال: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال:

«والصحيح أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين؛ فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي من أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك؛ فعمت الآية هذا النصيب كله. وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه، هذا على القول الصحيح، وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب».

وقيل: المراد بـ«الكتاب»: القرآن، أي: ينالهم ويصيبهم حظهم مما جاء فيه من الوعيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

قال ابن القيم- بعد أن ذكر هذا القول: «والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا.

ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين من الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء من العذاب والشقاء، فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم»(١).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية، و﴿إِذَا﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: إلى حين جاءتهم رسلنا من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٠٩-٢١٠.

الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، أي: يقبضون أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وسمي قبض الروح بالموت وفاة؛ لأن الميت قد استوفى رزقه وأجله وعمله.

﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: الرسل- من الملائكة- الموكلون بقبض أرواح هؤلاء المشركين إلى النار: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام للتوبيخ والتبكيت والتأييس والتهكم.

و«ما» موصولة، أي: أين آلهتكم الذين كنتم تعبدونهم غير الله، وتزعمون أنهم ينفعونكم عند الشدائد، ويدفعون عنكم العذاب؟ ادعوهم ليخلصوكم مما أنتم فيه من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾، أي: قال هؤلاء المشركون المكذبون: «ضلوا عنا»، أي: ذهبوا وغابوا عنا وزالوا؛ فلا نرجوهم ولا نعول عليهم بشيء، وبطلت دعوتنا إياهم.

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾، أي: وأقروا واعترفوا على أنفسهم بكفرهم واستحقاقهم للعذاب؛ إذ لا مجال للإنكار، ولا مناص من العذاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: قال الله لهؤلاء المشركين والمكذبين، أو قالت لهم

ملائكته: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾، أي: في جملة وعداد أمم كافرة مكذبة مثلكم.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾، أي: قد سلفت ومضت من قبلكم؛ على مثل ما أنتم عليه من التكذيب والكفر والاستكبار؛ فاستحقوا جميعًا الخزي والبوار، والخلود في النار.

وفي هذا إخبار للمكذبين من هذه الأمة بأن حالهم كحال الأمم المكذبين قبلهم، وتذكير لهم بأن ما حاق بأولئك من العذاب في الدنيا سيحيق بهم، وهم في الآخرة في عذاب النار سواء، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بدل من قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾، «كلما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط، أي: كلما دخلت أمة متأخرة من هذه الأمم في النار.

و«أمة»: نكرة وقعت في حيِّز عموم الأزمنة؛ فتفيد العموم.

﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾، أي: لعنت نظيرتها التي أضلتها ودخلت النار قبلها، أو لعنت من سبقها من الأمم المماثلة لها في الكفر الذي أوجب لها دخول النار.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية، و﴿إِذَا﴾: ظرف بمعنى «حين»، ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، أي: تلاحقوا واجتمعوا فيها، والمعنى: حتى إذا اجتمعت أمم الضلال كلها في النار.

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾، أي: أخراهم زمنًا؛ وهم الخلف من كل أمة، وأخراهم دخولًا النار.

﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾، أي: لأولاهم زمنًا؛ وهم السلف من كل أمة، وأولاهم دخولًا النار.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«أخراهم»: أخراهم مرتبة؛ وهم الأتباع والرعاع.

والمراد بـ«أولاهم»: أولاهم مرتبة؛ وهم القادة والرؤساء والمتبوعين.

والقولان متقاربان؛ فـ«أخراهم» هم الأتباع، وهم الآخرون مرتبة في كفرهم، وهم المتأخرون زمنًا، وهم الآخرون في دخول النار.

و«أولاهم» هم الأولون رتبة في كفرهم وإضلالهم لمن بعدهم، وهم السابقون زمنًا، والسابقون في دخول النار؛ لضلالهم وإضلالهم.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون الطائفة الأولى؛ وهم القادة والرؤساء، والمتبوعون، وأئمة الضلال.

﴿أَضَلُّونَا﴾، أي: أضلونا عن سبيلك.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾، ﴿ضِعْفًا﴾ صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، أي: فأعطهم عذابًا مضاعفًا من النار، أي: ضاعف العذاب عليهم؛ لأنهم ضلوا وأضلونا عن سبيلك، وصدونا عن طاعتك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧- ٦٨].

وضعف الشيء: مثليه؛ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، أي: يكون عذابها أكثر من عذاب غيرها مرتين؛ بدليل قوله بعده: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، والغنم بقدر الغرم.

وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: ٣٧] وهذا لم يرد به- فقط- مثله مرتين أو ثلاثة أمثاله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال ﷺ: «**كلّ عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعفٍ، إلى**

أضعافٍ كثيرةٍ»(١).

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم ربهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، أي: لكل طائفة منكما؛ الأتباع والمتبوعين ﴿ضِعْفٌ﴾، أي: ضعف من النار، بحسب ضلاله وكفره؛ فأئمة الضلال والمتبوعين يضاعف عليهم العذاب أشد؛ لكفرهم بأنفسهم وإضلالهم لغيرهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

والأتباع يضاعف لهم العذاب دون ذلك؛ لضلالهم وتقليدهم أهل الضلال؛ مع وجود الأدلة والبراهين ووضوح الحق.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة: «لَا يَعْلَمُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿لَّا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون ما لهم من العذاب المضاعف، ولا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾، أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«ما» نافية، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، تفيد التنصيص في عموم النفي.

أي: فما كان لكم علينا من أيِّ فضل تفضلوننا به؛ حتى يكون عذابنا مضاعفًا دونكم، فقد كفرتم كما كفرنا، وضللتم كما ضللنا، فنحن وإياكم متساوون في الكفر والضلال واستحقاق العذاب، ولا فضل لكم علينا باتباعكم وتقليدكم لنا، فاتباعكم لنا وعدمه عندنا سواء.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ خطاب من الله تعالى للطائفتين على وجه التقريع والإهانة لهم جميعًا، أي: فتجرعوا العذاب وأحسوا به.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تكسبون، أو بسبب كسبكم من الكفر والتكذيب والمعاصي.

ويجوز كون قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من تتمة كلام «أولاهم» للتشفي من «أخراهم»، أي: فذوقوا العذاب بسبب كسبكم، لا بأنا أضللناكم فيكون معطوفًا على قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فتكون كما قال الله تعالى عنهم في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الآيات: ٣١- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧- ٤٨].

وبهذا تقطعت حجة الفريقين؛ فلكل منهما ضعف من النار لكفرهم وضلالهم، وليس لأحدهما فضل على الآخر؛ فقد اشتركا في الكفر والضلال، ومضاعفة العذاب.

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا بنسبة الشريك والولد إليه، أو تحريم ما أحل، أو تحليل ما حرم، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، أو كذب بآياته وأنكرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

٢- إثبات تقدير الله تعالى لكل شيء؛ من الأرزاق، والأعمار، والأعمال، والشقاوة،

والسعادة وأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن ما قدره الله تعالى وكتبه على العبد سيصيبه لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٤- الرد على القدرية الذين ينفون تقدير الله تعالى للأعمال، ويزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه.

٥- التهديد والوعيد للمفترين على الله، المكذبين بآياته بما يلقونه عند الموت؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٦- إثبات ملائكة الموت؛ لقوله: ﴿رُسُلُنَا﴾.

٧- أن من مات فقد استوفى رزقه وعمله وأجله؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾.

٨- توبيخ ملائكة الموت للمكذبين، وتبكيتهم، وتأييسهم، والتهكم بهم، بقولهم لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن كل ما عبد من دون الله لا يغني عمن عبدوه شيئًا، فلا يدفع عنهم ضرًّا، ولا يجلب لهم نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

١٠- وجوب إخلاص الدعاء والعبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

١١- شهادة المفترين على الله والمكذبين بآياته على أنفسهم بالكفر، وإقرارهم عليها بذلك؛ لافترائهم وتكذيبهم وعبادتهم غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

١٢- إدخال المكذبين من هذه الأمة في جملة وعداد الأمم المكذبة قبلهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

١٣- الإشارة لكثرة الأمم المكذبة للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: في أمم كثيرة.

١٤- إثبات الجن، وأنهم مكلفون، ومن كفر منهم فهو في النار؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ

﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

١٥- أن ما بين أهل الكفر والضلال والبدع والمعاصي من تفاخر على ما هم عليه من الباطل وتواد في الدنيا؛ ينقلب يوم القيامة عداوة ومقاطعة وملاعنة، فيلعن آخرهم أولهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

١٦- حشر الأمم المكذبة الكافرة جميعًا في النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾.

١٧- تبرؤ الأتباع من الكفار يوم القيامة من المتبوعين الذين أضلوهم، وسؤالهم ربهم مضاعفة عذاب النار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

١٨- بطلان قول الجبرية: إن العبد مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

٢٠- مضاعفة العذاب على جميع الكفار وأهل الضلال، المتبوعين والأتباع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾.

٢١- أن أهل الكفر والضلال لا يعلمون ما أعد لهم من العذاب المضاعف، ولا يعلم بعضهم عما فيه البعض الآخر من العذاب المضاعف، زيادة في التنكيل بهم؛ حتى إن الواحد منهم يعتقد أنه لا أحد أشد عذابًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه، وإنه لأهونهم عذابا»(١).

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٣.

٢٢- تبرؤ المتبوعين وأئمة الضلال من أتباعهم، وتشفيهم منهم بكونهم اجتمعوا معهم على الكفر وفي النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وهذا لا يلزم منه تساويهم، بل أئمة الضلال منهم أشد كفرًا؛ لأنهم ضالون ومضلون، وهم أشد عذابًا.

٢٣- لا عذر ولا حجة للمرء في إضلال غيره إياه.

٢٤- أن اشتراك المعذبين يوم القيامة في العذاب لا ينفعهم، ولا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٢٥- وجوب الحذر من دعاة الضلال، ومن تقليدهم على غير هدى، أو الاغترار بهم؛ فما ضل من ضل من الخلق إلا بسبب التقليد الأعمى لأئمة الضلال وعلماء السوء.

٢٧- تبكيت أهل الكفر، وتقريعهم، وإهانتهم؛ بسبب كفرهم وضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

٢٨- إثبات الأسباب، وأن اكتساب الكفر والضلال والمعاصي سبب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

توعد عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالآيات، المستكبرين عنها، بمصاحبة النار والخلود فيها، ثم أكد ذلك بذكر عدم فتح أبواب السماء لهم، وحرمانهم من دخول الجنة؛ ليدل على أن خلودهم في النار أبدي سرمدي.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾، أي: كذبوا بآياتنا وأنكروها وجحدوها بقلوبهم فلم يصدقوا بها. واستكبروا عن الانقياد لها، والعمل بها بجوارحهم.

والسين والتاء: للمبالغة.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتذكير وتخفيف التاء: «لَا يُفْتَحُ»، وقرأ أبو عمرو بالتأنيث وتخفيف التاء: «لَا تُفْتَحُ»، وقرأ الباقون بالتأنيث وتشديد التاء: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾.

والتشديد: نفي لفتحها بابًا بعد باب، والتخفيف: نفي لفتحها مرة واحدة.

والمعنى: نفي فتحها مطلقًا على أي حال كان ذلك.

أي: لا تفتح لأعمالهم، ولا لدعائهم، ولا لأرواحهم أبواب السماء؛ قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ومفهوم هذا أن الكلم

غير الطيب والعمل غير الصالح- وهو كلم الكفار وعملهم- لا يرفع.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللّعنة إلى السّماء، فتغلق أبواب السّماء دونها، ثمّ تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثمّ تأخذ يمينًا وشمالًا، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الّذي لعن؛ فإن كان لذلك أهلًا؛ وإلّا رجعت إلى قائلها**»(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «**وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدّنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السّماء ملائكةٌ سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النّفس الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ. قال: فتفرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السّفّود من الصّوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتّى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملإٍ من الملائكة إلّا قالوا: ما هذا الرّوح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلانٍ. بأقبح أسمائه الّتي كان يسمّى بها في الدّنيا؛ حتّى ينتهى به إلى السّماء الدّنيا، فيستفتح له فلا يفتح له**»- ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾- «**فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سجّينٍ في الأرض السّفلى، فتطرح روحه طرحًا**»، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾»(٢).

وقد رواه بعضهم مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «**فإذا كان الرّجل السّوء قالوا: اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمةً، وأبشري بحميمٍ وغسّاقٍ، وآخر من شكله أزواجٌ. فلا تزال تخرج، ثمّ يعرج بها إلى السّماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلانٌ. فيقال: لا مرحبًا بالنّفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمةً؛ فإنّه لا يفتح لك أبواب السّماء**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٤- ٣٦٥، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت ٤٢٦٢، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)

قال ابن القيم: «فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم؛ بل أغلقت عنها- لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة؛ بل أغلقت، وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم؛ حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه، وقامت بين يديه، فرحمها، وأمر بكتابة اسمها في عليين»(١).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، ﴿يَلِجَ﴾، أي: يدخل، ﴿ٱلْجَمَلُ﴾: البعير المعروف الذي هو أكبر الحيوانات جسمًا.

﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، أي: في ثقب إبرة الخياطة، وهو أضيق الأشياء، أي: ولا يدخل هؤلاء المكذبون المستكبرون الجنة إلى غاية أن يدخل الجمل في ثقب إبرة المخيط، وهذا أمر في غاية الاستحالة.

أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك دخول هؤلاء المكذبين المستكبرين الجنة محال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل الجزاء بهذا الحرمان من الخير ومن دخول الجنة، ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مرتكبي الجرائم؛ من التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

بعد أن ذكر حرمانهم من الخير، واستحالة دخولهم الجنة، ذكر ما لهم من سوء العذاب في جهنم.

قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ أي من النار، ﴿مِهَادٌ﴾، أي: فرش من تحتهم.

وسميت النار بـ«جهنم»: لجهمتها، وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وابن خزيمة في التوحيد ١/ ٢٧٦- ٢٧٧.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٢.

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، أي: لحف وأغطية من جهنم تغشاهم وتغطيهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، أي: مثل الجزاء بهذا العذاب الأليم، ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بالشرك بالله، والتكذيب بآياته، والاستكبار عن الانقياد لها والعمل بها.

ووصفهم أولًا بالمجرمين، ثم بالظالمين؛ لإجرامهم وظلمهم. وأظهر في مقام الإضمار في الموضعين فلم يقل: «وكذلك نجزيهم»؛ لوصفهم بالإجرام والظلم، وأن ذلك سبب حرمانهم من فتح أبواب السماء لهم من دخول الجنة، وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من المجرمين الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

لما ذكر ما أعد للمكذبين من العذاب؛ أتبع ذلك بذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحات التي بها تمام الإيمان؛ لأن الإيمان في اللغة التصديق، وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

واكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وحذف الموصوف- وهو «الأعمال»- لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، وموافقًا لشرعه.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هذا اعتراض بين المبتدأ؛ وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبين خبره؛ وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، والغرض من هذا الاعتراضِ الاحتراز من أن يتوهم تكليف النفس ما لا تستطيعه من عمل الصالحات.

أي: لا نكلف من العمل «نفسًا إلا وسعها».

«إلا»: أداة حصر، أي: إلا ما في طاقتها وما تستطيعه، وفي هذا إشارة إلى أن الإيمان والعمل به سهل.

فنفى عز وجل بهذا أن يكلف نفسًا فوق وسعها وطاقتها، كما قال تعالى: ﴿لَا

يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تنويهًا بعلو مرتبتهم ورفعة شأنهم، أي: أولئك أهل الجنة وملازموها وسكانها.

وفي الآية قصر ملازمة الجنة عليهم دون غيرهم.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم فيها ماكثون ومقيمون إقامة أبدية لا تحول ولا تزول.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

ذكر في الآية السابقة خلود أهل الجنة فيها، وأمنهم من الخروج منها، ثم ذكر ما هم فيه من النعيم المعنوي؛ وهو سلامة صدورهم من الغل الذي لا يسلم منه أحد إلا أهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أي: اقتلعنا وأخرجنا، وعبر بالماضي عن المستقبل؛ للتنبيه على تحقيق وقوعه.

﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾، «من» لبيان جنس «ما»، أو حالية، فتتعلق بمحذوف، أي: كائنًا من غل.

و«غل»: نكرة في سياق النفي، تفيد العموم، أي: ونزعنا الذي في صدورهم من كل غل. والغل: الحقد والعداوة والضغينة.

والمعنى: وأزلنا الذي في صدورهم من أي غل كان مما يحصل بين الناس في الدنيا، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الآية: ٤٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النّار؛ حبسوا بقنطرةٍ بين الجنّة والنّار فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدّنيا، حتّى إذا نقّوا وهذّبوا أذن لهم بدخول الجنّة، فوالّذي نفس محمّدٍ ﷺ بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنّة أدلّ بمنزله كان في الدّنيا**»(١).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحتهم في روضات الجنان، ومن تحت أشجارها، ومن خلال قصورها، وتحت غرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي تجري في غير أخدود، يفجرونها كما شاؤوا وأين شاؤوا.

قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان(٢)

وهي أنواع، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]».

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، أي: يقولون هذا في خاصتهم ونفوسهم وفي مجامعهم.

والتعبير عن المستقبل بالماضي؛ للتنبيه على تحقق وقوعه؛ كما في: ﴿وَنَزَعْنَا﴾.

والإشارة في قوله: ﴿لِهَٰذَا﴾ إلى جميع ما هم فيه من النعيم، وإلى أسبابه؛ وهي إرشادهم، وتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

أي: الحمد لله الذي منَّ علينا بالإيمان والعمل الصالح، وبوأنا بسبب ذلك ما نحن فيه من النعيم في هذه الجنان.

قال ابن القيم: «يحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- قصاص المظالم ٢٤٤٠.

(٢) انظر: «النونية» (ص٢٢٩).

الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ»(١).

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾: قرأ ابن عامر: «مَا كُنَّا» بدون واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَمَا كُنَّا﴾.

وجملة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ في محل نصب، معطوفة على جملة مقول القول، واللام: لام الجحود والتوكيد.

﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود، فيه معنى الشرط.

﴿أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، أي: لولا هداية الله لنا موجودة.

وهذا يؤذن بعظم نعمة الله تعالى عليهم، وإكبارهم لهذه النعمة؛ كما كان نبينا ﷺ يردد وأصحابه في حفر الخندق:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا(٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلّ أهل الجنّة يرى مقعده من النّار؛ فيقول: لولا أنّ الله هداني! فيكون له شكرًا، وكلّ أهل النّار يرى مقعده من الجنّة؛ فيقول: لو أنّ الله هداني! فيكون له حسرةً»**(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلّ أهل النّار يرى منزله من الجنّة؛ فيقولون: لو هدانا الله! فتكون عليهم حسرةً، وكلّ أهل الجنّة يرى منزله من النّار؛ فيقولون: لولا أن هدانا الله! فهذا شكرهم»**(٤).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٣

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٠٤، ومسلم في الجهاد والسير ١٨٠٣ من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٢، ٥٤١، وابن مردويه. فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤١٢.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٠٠، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٥٤)، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٤٣٥- ٤٣٦

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه استذكار وثناء منهم على الرسل وما جاؤوا به، واللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد، «قد»: حرف تحقيق.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والحال، أي: متلبسين بالحق، أي: والله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالأمر الثابت، والصدق فيما يدعون إليه من الإيمان والعمل الصالح، وفيما وعدونا على ذلك من الجنان وما فيها من النعيم.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: في هذا تهنئة وتكريم لهم.

وأبهم المنادِي، ليعم كل مناد لهم بذلك، فيحتمل أن المنادي لهم بذلك هو الله عز وجل، أو ملائكته، أو نداء من بعضهم لبعض، أو ذلك كله.

﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾، «أن» تفسير لـ«نودوا»، أي: نودوا بأن قيل لهم: «تلكم الجنة أورثتموها»، أي: أورثكم الله إياها، وأقطعها لكم دون غيركم، وخصكم بها دون منازع.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم، أي: بسبب إيمانكم وعملكم الصالح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**واعلموا أنّ أحدكم لن يدخله عمله الجنّة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا؛ إلّا أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ**»(١).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: قال: «**ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت. ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٧.

وأشار إلى الجنة بإشارة البعيد «تلكم»؛ لتعظيم شأن الجنة، وتعظيم المنة بها.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾:

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، أي: ونادى أهل الجنة وسكانها أهل النار وسكانها.

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾، «أن»: مفسرة لـ«نادى»، و«قد» للتحقيق، «وجدنا»: لقينا وألفينا، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: قائلين لهم قد وجدنا ولقينا الذي وعدنا ربنا من الجنة وما فيها من النعيم «حقًّا»، أي: ثابتًا وصدقًا وحقيقة.

وفي هذا اغتباط منهم بحالهم، وتحسير وتنديم لأصحاب النار.

﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾، الفاء عاطفة، و«هل» للاستفهام؛ وهو هنا للتقريع والتوبيخ. وحذف مفعول «وعد» للإيجاز؛ لدلالة مقابله عليه في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾.

أي: فهل وجدتم ولقيتم الذي وعدكم ربكم من النار وما فيها من العذاب الأليم على ما أنتم فيه من الكفر والتكذيب «حقًّا»، أي: ثابتًا وصدقًا وحقيقة؟

و«الوعد» في الغالب يطلق على الوعد بالخير، و«الوعيد» يطلق على الشر.

قال عامر بن الطفيل:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي ... وَيَـأْمَنُ مِنِّـي صَـوْلَةَ المُتَوَعِّـدِ
وَإِنِّي وإِنْ أَوْعَـدتُّهُ أَوْ وَعَـدتُّـهُ ... لَـمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(١)

وقد يطلق «الوعد» بمعنى «الوعيد» بالشر؛ كما في قوله: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

والمقصود من الآية- كما سبق- التقريع والتوبيخ لهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٥- ٥٩].

---

(١) انظر «الصحاح» للجوهري، مادة: «وعد».

وكما تقول الملائكة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦].

وكما قرّع ﷺ قتلى بدر وهم في القليب فنادى: «**يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة**»- وسمى رؤوسهم- «**هل وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟ فإنّي وجدتّ ما وعدني ربّي حقًّا**». فقال عمر رضي الله عنه: تخاطب قومًا قد جيّفوا؟!. فقال: «**والّذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا**»(١).

﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ قرأ الكسائي: «نَعِمْ» بكسر العين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿نَعَمْ﴾، أي: وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر حقًّا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، أي: أعلم معلم ونادى مناد بين الفريقين: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب وعاصم: بإسكان نون ﴿أَن﴾ على أنها تفسيرية، ورفع لعنة ﴿أَن لَّعْنَةُ﴾، أي: بأن قال: أن لعنة الله على الظالمين.

وقرأ الباقون بتشديد نون «أنَّ» على أنها مؤكدة، ونصب لعنة: «أنَّ لعنةَ».

والمعنى: أن لعنة الله واقعة ومستقرة «على الظالمين» بالشرك والصد عن دينه.

ولعنة الله لهم: إبعاد عن رحمته وعن كل خير، وعن جنته.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هذه الآية تفسير وبيان للمراد بالظالمين.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يصدون ويعرضون بأنفسهم عن دين الله، ويصدون غيرهم عنه، ويصرفونهم عن الدخول فيه.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الضمير يعود إلى «سبيل الله»، والسبيل يؤنث ويذكر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- قتل أبي جهل ٣٩٧٦، ومسلم في الجنة- عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ٢٨٧٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» ١٨/ ٦٣٨ - ٦٣٩.

سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: ويبغون سبيل الله «عوجًا»، والعوج: ضد الاستقامة، أي: يطلبون ويحاولون وصم «سبيل الله» بالعوج، ويلتمسون لها النقائص- وهيهات لهم ذلك- ليصرفوا الناس عن دين الله.

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ [سبأ: ٧- ٨].

ويريدون تغيير دين الله وشرعه عما هو عليه من الاستقامة؛ حتى يدين الناس بالباطل ويتركوا الدين الحق.

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴾، أي: وهم بالدار الآخرة والقيامة والحساب والجزاء «كافرون»، أي: جاحدون لذلك، لا يؤمنون بلقاء الله، ولا بالبعث والجزاء على الأعمال، ولا بالجنة والنار؛ ولهذا صدوا عن سبيل الله وابتغوا لها العوج؛ لأنهم لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا، وبهذا استحقوا النار والطرد عن رحمة الله وجنته، ووصفهم بالظلم.

والتعبير بالجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الكفر فيهم، وتمكنه منهم.

قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

قوله: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾، أي: وبين أهل الجنة وأهل النار «حجاب»، أي: سور حاجز ومانع يمنع وصول أهل النار إلى الجنة؛ وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

أي: باطنه مما يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره مما يلي الكفار من قبله العذاب، وهو المسمى بالأعراف في قوله:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ الأعراف: جمع «عرف»؛ وهو أعلى الشيء منه، ومنه سمي عرف الفرس الشعر الذي على رقبته، وعرف الديك الذي في أعلى رأسه.

والمراد بالأعراف: الحجاب والسور المرتفع بين الجنة والنار ويشرف على الدارين، ويُنظر منه حال الفريقين.

﴿رِجَالٌ﴾، أي: رجال من بني آدم.

وقد اختلف في المراد بهم، والثابت عن الصحابة وأكثر المفسرين أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، ومنعتهم سيئاتهم المساوية من دخول الجنة[1].

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا القول وذكر بعده بقية الأقوال: «والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة، ولا تكاد تثبت أسانيدها، وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة»[2].

وقال ابن كثير[3]: «واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف: مَن هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد؛ وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله».

وقال السعدي[4]: «والصحيح أنهم قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة».

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: بعلاماتهم التي بها يُعرفون ويُميزون.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يعرفون أهل النار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه»[5].

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، أي: ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة: ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، «أن»: تفسيرية للنداء، أي: قائلين: ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يحيونهم بتحية الإسلام تحية أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

---

(١) انظر «جامع البيان» ١٠/ ٢١٢ وما بعدها، و«الزهد لابن المبارك» زيادة نعيم بن حماد ص١٢٣.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٤- ٢١٦.
(٣) في «تفسيره» ٣/ ٤١٤.
(٤) في «تفسير الكريم الرحمن» ٣/ ٣٤.
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٢٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٧٨

دعاء لهم بالسلامة، وبشارة لهم بذلك.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الضمير في الجملتين يعود إلى أصحاب الأعراف، أي: لم يدخلوا الجنة بعد ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، أي: وهم يطمعون في دخولها، أي: يرجون دخولها.

أي: إذا رأوا أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في دخول الجنة معهم.

وقيل: الضمير في الجملتين يعود إلى أهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف من غير اختيارهم ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: جهة أصحاب النار، ورأوا سواد وجوههم وسوء حالهم، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾، أي: قالوا مستجيرين بالله مما فيه أهل النار: يا ربنا ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا تجعلنا معهم في النار.

قال ابن القيم: «هذا دليل على أنه مكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله ألا يجعلهم معهم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أن أبواب السماء لا تفتح لأعمال المكذبين بآيات الله، المستكبرين عنها، ولا لأرواحهم، عقابًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾. ومفهوم هذا أن أبواب السماء تفتح للمؤمنين المصدقين، ولأعمالهم وأرواحهم. وهذا ثابت.

٢- استحالة دخول المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

٣- التحذير من التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها؛ لأن ذلك سبب للحرمان

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧.

من رحمة الله تعالى وجنته.

٤- أن المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها من المجرمين ومن الظالمين؛ لهذا استحقوا هذا الحرمان من فتح أبواب السماء لهم، ومن دخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- عقوبة كل من كان من المجرمين الظالمين بالحرمان من فتح أبواب السماء لهم ولأعمالهم، ومن دخول الجنة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- إحاطة عذاب جهنم بالمجرمين الظالمين من فوقهم ومن تحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

٧- شدة ظلمة النار وبعد قعرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٨- جمع القرآن الكريم بين الترهيب والترغيب، والوعيد والوعد؛ لذكره ما أعد للمؤمنين بعد أن ذكر ما أعد للظالمين المجرمين.

٩- لا بد في الإيمان من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح؛ أي بين الإيمان الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد إيمان الباطن.

١٠- أن المهم في الإيمان هو إيمان القلب والباطن؛ لهذا قدم على العمل.

١١- لا بد في العمل أن يكون صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: أن يكون خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا؛ لهذا اكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وحذف الموصوف؛ وهي الأعمال.

١٣- أن الله لا يكلف نفسًا فوق طاقتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾.

ويفهم من هذا يسر الإيمان والعمل على من وفقه الله.

١٤- الاحتراز من توهم تكليف ما لا يطاق؛ لقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ اعتراضًا بين المبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وخبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٥- وعد المؤمنين سكنى الجنة والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٦- سلامة قلوب أهل الجنة من الغل والحقد والضغينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وهذا من أعظم النعيم المعنوي لأهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾»(١).

وسلامة الصدور في الدنيا أمر بعيد المنال غالبًا؛ ولهذا رُويَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلّغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئًا؛ فإنّي أحبّ أن أخرج إليهم وأنا سليم الصّدر**»(٢).

١٧- اغتباط أهل الجنة وحمدهم الله عز وجل على هدايته لهم، وتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، الذي بوأهم به الجنة وما فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

١٨- أن الهادي إلى الإيمان وإلى خيري الدنيا والآخرة هو الله تعالى وحده؛ لقول أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

١٩- أن من أعظم شكر الله تعالى: الاعتراف بنعمة الهداية وغيرها من نعمه المعنوية والحسية، ونسبتها إليه وحده.

٢٠- إثبات صدق الرسل- عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وشهادة المؤمنين لهم بالصدق في الدنيا ويوم القيامة.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين، لقولهم: ﴿رَبِّنَا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٩٩ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب ٢٨٩٦ وقال: «حديث غريب».

٢٢- تهنئة المؤمنين بدخولهم الجنة وتوريثها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾.

٢٣- أن الإيمان والأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة ووراثتها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٢٤- تقريع أهل الجنة لأهل النار، وتوبيخهم لهم على تكذيبهم وعد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾.

٢٥- إثبات مناداة وتكليم أهل الجنة لأهل النار، وتكليم أهل النار لأهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾، أي: قال أصحاب النار: نعم.

٢٦- إثبات ربوبية الله لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾.

٢٧- إقرار المكذبين والمستكبرين بصدق ما توعدوا به من العذاب في النار بعدما دخلوها وأحاطت بهم من فوقهم ومن تحتهم، وأنى لهم الإنكار حينئذٍ؟ وأنى ينفعهم الإقرار؟

٢٨- الأذان والإعلان بين أهل الجنة وأهل النار: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: واقعة ومستقرة عليهم، وهم مستحقون لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٩- أن سبب لعنة المذكورين، وطردهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار؛ هو صدهم عن سبيل الله، وكونهم يبغونها عوجًا، وكفرهم بالآخرة ولقاء الله والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

٣٠- التحذير من أسباب دخول النار والطرد عن رحمة الله؛ من الظلم، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجًا، والكفر بالآخرة.

٣١- وجود حجاب وسور بين أهل الجنة وأهل النار؛ وهو الأعراف؛ لقوله

تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

٣٢- أن على الأعراف بين الجنة والنار رجالًا يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾.

٣٣- أن لكل من أهل الخير وأهل الشر علامات يعرفون بها.

٣٤- تحية أصحاب الأعراف لأهل الجنة دعاء وبشارة لهم بدوام السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة.

٣٥- طمع ورجاء أهل الأعراف- حال حبسهم على الأعراف، وقبل دخولهم الجنة- أن يدخلوها؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، ويحتمل أن هذا الطمع من أهل الجنة قبل دخولهم لها.

٣٦- استجارة أهل الأعراف إذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار من غير قصد بربهم، وسؤالهم له ألا يجعلهم مع القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وذلك لما يرون من سواد وجوههم وسوء حالهم.

٣٧- أن أهل النار هم الظالمون، وسبب دخولهم النار هو ظلمهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾:

ذكر في الآيات السابقة مناداة أهل الأعراف لأصحاب الجنة وسلامهم عليهم، ثم ذكر مناداتهم لأهل النار.

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾، أي: يعرفونهم بعلاماتهم وصفاتهم الذاتية وأشخاصهم؛ قائلين لهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، «ما»: استفهامية للتوبيخ، أي: ماذا أغنى عنكم جمعكم المال وكثرتكم؟ أي: ماذا دفع عنكم جمعكم؟ وماذا نفعكم؟

ويجوز كونها نافية، أي: ما دفع عنكم جمعكم وما نفعكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٠].

قال ابن القيم في كلامه على قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾؛ قال: «وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم»(١).

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، الواو عاطفة، و«ما» مصدرية، أي: ما أغنى عنكم ولا دفع عنكم العذاب جمعكم واستكباركم عن الحق وعلى الخلق، بل صرتم إلى ما صرتم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧.

إليه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: أهؤلاء الذين أدخلهم الله الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾؟ هذا من كلام أصحاب الأعراف للرجال الذين يعرفونهم بسيماهم من أهل النار.

والاستفهام: للتوبيخ والتقريع، والإشارة إلى أناس من المؤمنين من أهل الجنة ممن كان يستضعفهم المشركون في الدنيا ويحتقرونهم، مثل: سلمان، وبلال، وخباب، وصهيب.

﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾، أي: حلفتم أيها المشركون ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾، أي: لا يصيبهم الله برحمة، أي: انظروا لهؤلاء الذين حلفتم لا يصيبهم الله برحمة كيف نالتهم رحمته، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون فيها.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أي: قالوا لهم، أو قيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أي: لا خوف عليكم فيما تستقبلون، ولا أنتم تحزنون على ما مضى ولا على ما خلفتم، كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [الآيات: ٢٩- ٣٦].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ تهنئة ودعاء لهم بالبقاء والديمومة في الجنة بعدما دخلوها، وتبكيتًا لأهل النار؛ لأن السياق يدل على أن أهل الجنة قد دخلوا الجنة، وأن أهل النار قد دخلوا النار.

وقيل: إن قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ من كلام الملائكة خطابًا للمشركين.

والإشارة في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ لأصحاب الأعراف، والخطاب لهم في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾:

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾:

هذا نداء استجداء واستغاثة من أهل النار- بعدما بلغ منهم العذاب كل مبلغ، وأحسوا بشدة الظمأ المفرط، والجوع المؤلم- بأهل الجنة قائلين لهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

و«أن»: تفسيرية، أي: أن أعطونا من الماء، ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، أي: أو من الذي أعطاكم الله من الطعام والفواكه وغير ذلك.

و«الفيض»: يطلق على فيض الماء وفيض المال، وفي الحديث: «**ويفيض المال حتّى لا يقبله أحدٌ**»(١).

وفي قوله: ﴿أَفِيضُواْ﴾ إشارة لعلو مكان أهل الجنة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: أجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾، أي: حرم ماء الجنة وطعامها كونًا على الكافرين بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾، «الذين»: نعت للكافرين، أي: الذين جعلوا دينهم لهوًا ولعبًا، واتخذوه سخريًّا، واعتاضوا عنه اللهو واللعب.

واللهو: ما يُتلهى به، واللعب: ما لا فائدة به.

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٢٢، ومسلم في الإيمان ١٥٥، والترمذي في الفتن ٢٢٣٣، وابن ماجه ٤٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها، وتنافس الخلق فيها، فأنستهم دينهم وما خلقوا له، وأعرضوا عن الآخرة وغفلوا عنها.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾، أي: نتركهم. ومن تركه الله حرمه رحمته؛ فهو هالك لا محالة ومصيره إلى العذاب في النار.

﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، أي: كما نسوا وتركوا لقاء يومهم هذا، أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا»[1].

وقال ابن كثير[2]: «أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوّجك، وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنّك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإنّي أنساك كما نسيتني**»[3].

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، الواو عاطفة، أي: وكما كانوا بآياتنا يجحدون، أي: يكذبون.

والكاف في الموضعين فيها معنى التعليل، أي: لأجل نسيان لقاء يومهم هذا، ولأجل جحدهم آياتنا.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٣٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٩٢.

(٢) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨. وروى الترمذي في صفة القيامة نحوه ٢٤٢٨ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

والتعليل في الموضع الأخير واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

لما ذكر ما صار إليه، المكذبون من الخسارة في الآخرة بدخول النار، والحرمان من الجنة؛ ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدار الدنيا بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب؛ مما لا عذر لهم بعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾، الواو استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد جئناهم بكتاب، و«قد»: حرف تحقيق.

والضمير في قوله: ﴿جِئْنَٰهُم﴾ يعود إلى الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، واغتروا بالحياة الدنيا، وكذبوا بآيات الله وجحدوها.

﴿بِكِتَٰبٍ﴾، وهو القرآن الكريم، ونكّر للتعظيم، أي: بكتاب عظيم هو أعظم الكتب كلها، وأفضل كتب الله عز وجل على الإطلاق.

﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيناه ووضحنا ما فيه من الآيات، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]؛ وذلك ببيان معانيه وأحكامه ومواعظه وقصصه وأخباره وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا، ونكر «علم» للتعظيم، أي: عالمين أعظم العلم بما فصلناه به، وبما يحتاجه الخلق في كل زمان ومكان، وبكل شيء، تفصيل من أحاط بكل شيء خبرًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وأيضًا: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: مشتملًا على علم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: حال كونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون، أي: هداية لهم من الضلال؛ ببيانه الحق من الباطل، والغي من الرشاد، ورحمة لهم يحصل لهم به الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، «هل»: حرف استفهام بمعنى النفي، أي: ما ينظرون، و«إلا»: أداة حصر؛ كما في قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

ومعنى ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، أي: إلا وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [الآية: ١٠٠].

أي: إن هؤلاء الذين كذبوا بهذا القرآن العظيم ولم ينقادوا له ما ينتظرون إلا أن يقع ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد، فيحل بهم النكال والعذاب، ويحرمون النعيم والثواب. وفي هذا تهديد للكافرين.

قال ابن القيم: «فمجيء تأويله: نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، والمعاد وتفاصيله، والجنة والنار.

ويسمى تعبير الرؤيا: تأويلًا بالاعتبارين؛ فإنه تفسير لها، وهو عاقبتها وما تؤول إليه»(١).

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: يوم القيامة.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: الذين تركوا العمل به وتناسوه؛ وهم المشركون والكفار.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل ذلك اليوم، أو من قبل إتيان تأويله، أي: في الدنيا، أي: يقول بعضهم لبعض متندمين متأسفين، متحسرين متحيرين: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: قد جاءت رسل ربنا، أي: بالأمر الحق الثابت والصدق فيما دعوا إليه من

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧، ٢١٨.

الدين والشرع، وفيما أخبروا به من الوعد والوعيد.

وهذا اعتراف بخطئهم في تكذيبهم الرسول ﷺ وما أخبر به عن الرسل قبله، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ولهذا جمع الرسل في قوله: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل»: حرف استفهام يحتمل أن يكون بمعنى التمني.

﴿مِن شُفَعَآءَ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- للعموم، أي: فهل لنا من أي شفعاء يشفعوا لنا أيًا كان أولئك الشفعاء.

وهذا بعد يأسهم وتخلي شركائهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وذكر تعالى عنهم قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

و«الشفعاء»: جمع «شفيع»؛ وهو: من يتوسط في جلب الخير، أو دفع الضر.

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ معطوف على ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، أي: أو نرجع إلى الدنيا.

﴿فَنَعْمَلَ﴾ معطوف على ﴿نُرَدُّ﴾، ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: فنؤمن ونعمل عملًا صالحًا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ سابقًا في الدنيا؛ من الكفر، والتكذيب بآيات ربنا، وارتكاب الموبقات والمعاصي.

وهم في هذا كاذبون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإدخالها النار والخلود فيها، وتفويتها الربح بالجنة دار القرار. وماذا ربح من خسر نفسه؟! قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ الزمر﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾[غافر: ٧٣ – ٧٤].

والمعنى: وذهب عنهم وزال الذي كانوا ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: الذي كانوا يكذبون ويختلقون من الآلهة من دون الله تعالى، ويزعمون أنهم شركاء لله تعالى، وأنهم يشفعون لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ١٣].

الفوائد والأحكام:

١- مناداة أصحاب الأعراف رجالًا من أهل النار يعرفونهم بسيماهم، وتوبيخهم لهم بقولهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢- أن كثرة العدد والعدة وكثرة المال لا تغني يوم القيامة عن أهلها شيئًا؛ فلا تدفع عنهم عذابًا، ولا تجلب لهم ثوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾.

٣- أن الاستكبار عن اتباع الحق، وعلى الخلق؛ لا يغني عن أهله شيئًا، بل هو سبب لهلاكهم.

٤- لا أحد يستطيع منع رحمة الله تعالى عن عباده، وحرمانهم من جنته؛ لقوله تعالى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

٥- خيبة ظنون الكفار والمستكبرين، وكذبهم، وحنثهم في أيمانهم الفاجرة؛ بأن المؤمنين لا ينالهم الله برحمة.

٦- أن مآل المؤمنين إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾، أي: يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ تكريمًا وتهنئة لهم.

٧- انتفاء الخوف والحزن عن أهل الجنة- نسأل الله تعالى من فضله- لقوله تعالى:

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فلا هم يخافون مما يستقبلهم، ولا يحزنون على ما مضى وما فاتهم وما خلفوا.

٨- استغاثة أهل النار بعد أن يشتد بهم الظمأ والجوع بأهل الجنة؛ بأن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٩- أن الرزق كله من الله تعالى؛ فلا رازق سواه في الدنيا، وفي الآخرة بالجنة.

١٠- تحريم ماء الجنة وطعامها على الكافرين؛ لقول أهل الجنة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١١- أن سبب حرمان الكافرين من الجنة ونعيمها هو كفرهم، واتخاذهم دينهم لهوًا ولعبًا، واغترارهم بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٢- يجب الحذر من اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا، والاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكما قيل:

مَتَاعُ غُرُورٍ لَا يَدُومُ سُرُورُهَا ... وَأَضْغَاثُ حُلْمٍ خَادِعٍ بِبَهَائِهِ

فَمَنْ أَكْرَمَتْ يَوْمًا أَهَانَتْ ضُحَى غَدٍ ... وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَدْ آذَنَتْ بِبُكَائِهِ

فَلَذَّاتُهَا مَسْمُومَةٌ وَوُعُودُهَا ... سَرَابٌ فَمَا الظَّامِي يَرْوَى مِنْ عَنَائِهِ

وَكَمْ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ ذَمِّهَا ... وَكَمْ ذَمَّهَا الأَخْيَارُ مِنْ أَصْفِيَائِهِ[1]

١٣- عقوبة الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا واغتروا بالحياة الدنيا؛ بنسيان الله، أي: تركه لهم؛ لنسيانهم لقاء القيامة، وجحدهم بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ

(١) الأبيات لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص٣٨.

نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ ومن نسيه الله وتركه فهو لا محالة هالك.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

١٥- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

١٦- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

١٧- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسول ﷺ، وإنزال القرآن العظيم الذي فيه تفصيل وعلم كل شيء مما يحتاجه الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾.

١٨- علم الله تعالى التام الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾.

١٩- أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتبعونه وينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٢٠- تهديد الكافرين بوقوع ما أخبر به القرآن من الوعيد لهم بعذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾.

٢١- اعتراف المكذبين الذين نسوا القرآن عند معاينة تأويله يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل حق، حين لا ينفعهم الاعتراف؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

٢٢- أن الإيمان بالرسول ﷺ موجب للإيمان بما سبقه من الرسل، وأن ما جاؤوا به حق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا﴾.

٢٤- ندم الكافرين بالله ولقائه، الجاحدين لآياته، وحسرتهم، وطلبهم وتمنيهم الشفعاء لهم أو الرد إلى الدنيا ليعملوا صالحًا؛ لقولهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾، وهيهات لهم ذلك.

٢٥- تحقق خسارة الكافرين لأنفسهم يوم القيامة بإيرادها النار وبئس القرار، وحرمانها من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، وماذا ربح من خسر نفسه؟ نسأل الله العافية والسلامة.

٢٦- ذهاب وزوال ما كان يفتريه الكفار من الشفعاء ممن أشركوا بهم مع الله، وعبدوهم من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٢٧- لا شافع للكفار يوم القيامة، ولا سبيل إلى الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما ذكر الله.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾:

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، أي: إن خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، والخطاب لجميع الخلق، ﴿اللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود وحده لا شريك له.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ صفة لاسم الجلالة. وهي صفة كاشفة لبعض معاني الربوبية؛ وهو الخلق، وليست صفة مقيدة؛ لأنه ليس هناك رب خلق ورب لم يخلق، بل الرب الخالق واحد هو الله عز وجل وحده.

والمعنى: الذي أوجد السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما فيهما- على عظمها وسعتها وبديع خلقها وإتقانها- على غير مثال سبق.

وابتدأ بذكرهما؛ لما في عظيم خلقهما من الدلالة على تفرده بالربوبية والإلهية، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وأكد الخبر بـ«إن»؛ للعناية والاهتمام، وللرد على من ينكر ربوبية الله تعالى، أو ألوهيته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ

أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١١].

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، قال المفسرون وغيرهم من أهل العلم: وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة؛ وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام.

وقال ابن كثير[1]: «فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت وهو القطع.

وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده- ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه- قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «**خلق الله عزّ وجلّ التّربة يوم السّبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشّجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثّلاثاء، وخلق النّور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدّوابّ يوم الخميس، وخلق آدم عليه السّلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وفي آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى اللّيل**»[2].

قال ابن كثير: «فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه، عن حجاج- وهو ابن محمد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3]، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعًا، والله أعلم».

وهو سبحانه وتعالى ذو قدرة تامة على خلقها في أقل من ذلك، بل بلمح بصر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ذكر الله عز وجل هذا تأكيدًا له في سبع سور من القرآن: في هذه السورة، وفي سورة يونس، والرعد، وطه، والفرقان، والسجدة، والحديد.

و«ثم» للعطف مع التراخي الرتبي، و«استوى» بمعنى: «علا وارتفع»، أي: ثم

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، وأحمد ٢/ ٣٢٧.

(٣) وقد ذكر الله عز وجل هذا في سبع سور من القرآن الكريم: الأعراف، ويونس، وهود، والفرقان، والسجدة، و«ق»، والحديد.

استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

عن وهب بن منبه، قال: كنت عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ و«كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة».

وفي رواية قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١).

وعن سفيان بن عيينة، قال: سأل رجل مالكًا، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى يا أبا عبدالله؟ فسكت مالك مليًّا حتى علاه الرحضاء، ثم سري عنه؛ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالًّا».

وفي بعضها: «وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني»(٢).

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وعاصم في رواية أبي بكر: «يُغَشِّي» بضم الياء، وفتح الغين، وتشديد الشين. وقرأ الباقون: ﴿يُغْشِى﴾ بضم الياء، وسكون الغين، وتخفيف الشين.

والجملة في محل نصب على الحالية من اسم الجلالة، أي: يجعل الليل يغطي النهار ويخفيه ويذهبه ويزيله بظلامه، ويجعل النهار يغطي الليل ويخفيه ويذهبه ويزيله بضيائه.

أي: يُذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، ويدخل الليل في النهار،

---

(١) أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (رقم ٦٦٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم ٨٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (رقم ١٠٤)، وانظر: «محاسن التأويل» (٥/ ٧٠).

(٢) انظر: «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي (ص٣٨)، «الملل والنحل» (١/ ٩٣)، «العرش» للذهبي (١/ ١١٧-١١٨).

ويدخل النهار في الليل، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦].

﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الليل والنهار.

و«حثيثًا»: صفة لمصدر محذوف، أي: حال كون كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا مجدًّا في السرعة؛ لأنه لا يلبث أن يُعفي أثره.

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

قال الشاعر:

إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ ... فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَّاتِ لِلشِّيبِ
وَلَّى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَتْبَعُهُ ... لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ(١)

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ قرأ ابن عامر برفع «الشمسُ» وما عطف عليها، ورفع: «مسخراتٌ»؛ على أن الجملة في محل نصب على الحال من اسم الجلالة؛ كقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

وعلى هذا فـ«الشمسُ» وما عطف عليها في محل رفع مبتدأ، و«مسخراتٌ» خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال.

والتقدير: حال كونه يغشي الليل النهار، وحال كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره.

وقرأ الباقون بنصب: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾ وما عطف عليها عطفًا على السموات والأرض، و﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ بالنصب على الحال من المذكورات، وكسرت التاء من «مسخرات»؛ لأنها جمع مؤنث سالم.

---

(١) البيتان لسلامة بن جندل. انظر: «المفضليات» (ص١١٩-١٢٠).

والتقدير: الذي خلق السموات والأرض.. وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات بأمره.

و«الشمس والقمر والنجوم» من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السموات.

﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، أي: مسيَّرات بأمر الله تعالى الكوني، ومذللات تحت قهره وتدبيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، «له»، أي: له خاصة الخلق، يخلق ما يشاء ويختار، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وهو موجد جميع المخلوقات، والمالك لها.

﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، أي: وله خاصة الأمر، أي: الأمر الكوني والتدبير والتصرف في ملكوت السموات والأرض، وله الأمر الشرعي، فالشرع ما شرعه سبحانه وتعالى، فله الخلق كله، وله الأمر كله.

قال السعدي: «فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وأحكامه الجزائية يوم القيامة».

وفي الدعاء: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»(١).

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، «تبارك»، أي: تعالى وتعاظم وتنزه في نفسه؛ لعظمة أوصافه وكمالها، وكَثُر خيره وإحسانه، وبارك في غيره، أي: كثرت بركته على غيره وظهرت، والبركة: كثرة الخير.

فبارك عز وجل في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩٢].

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٢٣.

وبارك عز وجل في البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وبارك عز وجل في الأرض؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وبارك في الماء النازل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وأمر عز وجل بطلب البركة منه؛ فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وكل بركة في الكون فهي من آثار بركته عز وجل ورحمته.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: رب جميع أنواع العوالم والمخلوقات: عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد، وغير ذلك.

وفي هذا بيان لاستحقاقه البركة والمجد؛ لأنه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبر أحوال الموجودات.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، أي: ادعو- أيها المؤمنون- ﴿رَبَّكُمْ﴾ وحده، وهذا ينتظم دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وهما متلازمان؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

قال ابن القيم: «فقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه»(١).

وإنما كان دعاء المسألة متضمنًا لدعاء العبادة؛ لأن دعاء المسألة طلب ما ينفع الداعي، وكشف ما يضره أو دفعه، ومن يملك ذلك فإنه هو المعبود حقًّا؛ لهذا أنكر عز وجل على الذين يعبدون من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٢٤.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧].

وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: ادعوه، أو: ادعوني؛ للتذكير بنعمة ربوبيته لهم، ولتشريف المؤمنين بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «خِفْيَةً» بكسر الخاء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿وَخُفْيَةً﴾.

وانتصاب ﴿تَضَرُّعًا﴾ على الحال، أي: متضرعين ومخفين، أو: على المصدرية، أي: دعاء تضرع وإخفاء.

ومعنى ﴿تَضَرُّعًا﴾، أي: تذللًا واستكانة وإلحاحًا في الدعاء.

﴿وَخُفْيَةً﴾، أي: سرًّا، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى مثنيًا على عبده زكريا في ندائه ربه نداءً خفيًّا؛ قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٣].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في غزاة، فأشرفوا على واد، فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم، فقال رسول الله ﷺ: «**أيّها النّاس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّ الّذي تدعون سميعٌ قريبٌ**»(١).

وقال هنا: ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ لحاجة الدعاء إلى الإخفاء والإسرار.

بينما قال في آخر السورة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ لحاجة الذكر إلى أن يكون مقترنًا بالخوف.

مع حاجة الدعاء أيضًا إلى الخوف؛ ولهذا قال في الآية الأولى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. وحاجة الذكر أيضًا إلى الخفية؛ ولهذا قال في الآية في آخر السورة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أمر عز وجل بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أتبع ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير: ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر، استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤.

بالتحذير من ضد ذلك وهو الاعتداء في الدعاء.

﴿إِنَّهُۥ﴾، «إن»: حرف توكيد فيه معنى التعليل؛ للأمر بدعائه تضرعًا وخفية.

والاعتداء: تجاوز الحد، أي: لا يحب المجاوزين للحد في مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب ما نهى عنه، وهو عام في كل اعتداء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره»[١].

وهو يعم كل اعتداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فمن الاعتداء: الشرك، بل هو أعظم الاعتداء، وأهله هم المعتدون؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير الله؛ لهذا كان أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وهو الشرك.

ومن الاعتداء: الاعتداء في الدعاء، وهو أنواع؛ منها: أن يسأل الإنسان ما لا يجوز له أن يسأله؛ كأن يسأل منازل الأنبياء، أو التخليد في الدنيا إلى يوم القيامة، أو أن يكون من المعصومين، أو أن يهبه الله ولدًا من غير زوجة، أو أن يسأل تحقيق أمر محرم، ونحو ذلك مما ينافي حكمة الله أو شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّه سيكون قومٌ يعتدون في الدّعاء**»، وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾، «**وإنّ بحسبك أن تقول: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ**»[٢].

وعن عبدالله بن مغفل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون قومٌ يعتدون في الدّعاء والطّهور**»[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٢، ١٨٣، وأخرجه بمعناه أبو داود في الصلاة- باب الدعاء ١٤٨٠.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٥٥، وابن ماجه في الدعاء- كراهية الاعتداء في الدعاء ٣/١٦٤. قال ابن كثير في «تفسيره»

ومن أنواع الاعتداء في الدعاء: رفع الصوت به، والمبالغة في ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾.

وكما سبق في حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ أنه لما رفع الناس أصواتهم في الدعاء، قال لهم النبي ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا**» الحديث(١).

ومن الاعتداء في الدعاء أن يدعو ربه دعاء غير متضرع، بل دعاء مُدِلٍّ على ربه بدعائه، مستغنٍ عما عنده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾:

قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ في النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها بعد قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ دلالة على أن الاعتداء بأنواعه، كل ذلك من الإفساد في الأرض.

قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: بالاعتداء بالشرك، ودعاء غير الله، والاعتداء بالدعاء، وارتكاب المعاصي، ونحو ذلك من الفساد المعنوي الذي هو سبب للفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل، وحصول الجدب والقحط، ومحق البركة، وقلة الخيرات، وكثرة الأمراض والآفات، وخراب البلاد، وهلاك العباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي الأثر: «أن البهائم إذا قحط المطر وأجدبت الأرض تلعن عصاة بني آدم؛ تقول: اللهم العنهم؛ فبسببهم منع القطر»(٢).

﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، أي: بعد إصلاح الله إياها؛ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،

٣/ ٤٢٥: «إسناده حسن».

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) روي نحو هذا عن مجاهد؛ أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٠ رقم ١١٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧٠).

والدعوة إلى إخلاص العبادة له تعالى وتوحيده وطاعته، وبيان الشريعة، وما أودع فيها من الخيرات والبركات.

وفي قوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ إشارة إلى فظاعة الإفساد وعظم ضرره بعد الإصلاح؛ فإن أضر ما يكون على العباد والبلاد أن يكون الناس في نعمة وخير وعافية؛ ثم سرعان ما يسلب منهم ذلك بسبب الفساد.

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ كرر الأمر بالدعاء بقصد تعليم الباعث على الدعاء- وهو الخوف والطمع- بعد أن بين لهم كيفيته بقوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾.

و﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ منصوب على الحال، أي: خائفين وطامعين، أو على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف والطمع، أي: ﴿خَوۡفٗا﴾ من عقابه، ﴿وَطَمَعًاۚ﴾، أي: رجاء في ثوابه، أي: دعاء بالمغفرة خوفًا من عقابه، ودعاء بالرحمة رجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل لقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾، والدلالة على أن من دعا الله خوفًا وطمعًا فهو من المحسنين.

قال ابن كثير(١): «ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إليه؛ ولهذا قال: ﴿قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾».

وقال بعض أهل اللغة: إن «قريبًا» و«بعيدًا» إذا أطلق أحدهما على قرابة النسب أو بعد النسب فهو من المؤنث بتاء ولا بد.

وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفه، وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وفي حذف التاء من ﴿قَرِيبٞ﴾ تنبيه على قربه عز وجل من المحسنين؛ لأنه إذا كانت رحمته قريبة من المحسنين فهو قريب منهم؛ لأن قرب رحمته تبع لقربه، وقربه يستلزم قرب

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٥.

رحمته لهم؛ لمحبته لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ فمن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

ولهذا حصرها في المتقين؛ فقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وهم المحسنون. والمراد: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى وإجلالًا له، ومحبة وخشية، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»(١)، ومتابعة الرسول ﷺ.

و«المحسنين» إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا. وهذا في الحقيقة إحسان إلى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ كما يدل بمنطوقه على قرب رحمته منهم، يدل أيضًا بإيمائه وتعليله على أن إحسانهم هو سبب قرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من أرحم الراحمين، والجزاء من جنس العمل؛ فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن الله تعالى إليهم برحمته، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ كما يدل بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾:

لما ذكر عز وجل قرب رحمته من المحسنين؛ ذكر بعضًا من رحمته وهو المطر.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «الرِّيحَ» بالإفراد باعتبار الجنس، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

و«الرياح» حيثما ذكرت فهي مقترنة بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢].

وأما «الريح» فتأتي كثيرًا مقترنة بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وتأتي تارة مقترنة بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣].

والتعبير بصيغة الجمع «رياح» قد يراد به تعدد المهابِّ وحصول الفترات بين الهبوب.

وإن الإفراد قد يراد به أنها مدفوعة دفعة واحدة قوية لا فترة بين هباتها.

﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «نَشْرًا» بالنون المفتوحة وسكون الشين، وقرأ ابن عامر: «نُشْرًا» بضم النون وسكون الشين، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «نُشُرًا» بضم النون والشين.

والنشر والنشور: الريح الطيبة اللينة الهبوب، التي تنشئ السحاب وتنشره.

قال امرؤ القيس(١):

كَـأَنَّ الـمُدَامَ وَصَـوْبَ الغَمَـامِ وَرِيـحَ الخُزَامَـى وَنَشْـرَ القُطُـرْ(٢)

وقرأ حفص وأبو بكر عن عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بالباء المضمومة وسكون الشين، أي: تبشر بالرحمة والمطر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قدام رحمته وأمامها.

والمراد بـ«الرحمة» هنا: المطر؛ من إطلاق المصدر على المفعول، أي: قُبيل المطر وأمامه، وبالقرب منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ

(١) انظر «ديوانه» ص ١٥٧.

(٢) نَشْرُ القُطُر: رائحة العود. انظر «لسان العرب» مادة «قطر».

ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، حتى للغاية، «أقلت»: حملت، أي: حتى إذا حملت الرياح سحابًا ثقالًا، أي: محملة بالماء، بطيئة ثقيلة، قريبة من الأرض، مدلهمة، كما قال عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا(١)

وقال أبو الطيب(٢):

وَمِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي ... أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجَهَامُ

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، أي: يسوقه.

والمعنى: أوصلناه وأبلغناه لبلد ميت، قد مات نباته وثمره، وأجدبت أرضه، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾، الباء للظرفية، والضمير يعود إلى «بلد ميت»، أي: فأنزلنا في ذلك البلد الميت الماء الغزير من ذلك السحاب.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، الضمير في «به»: يجوز أن يعود إلى البلد، فتكون الباء بمعنى «في» الظرفية، أي: فأخرجنا في ذلك البلد.

ويجوز أن يعود إلى الماء، وتكون الباء: للسببية، أي: فأخرجنا بسببه، أي: فأخرجنا بسبب المطر من كل الثمرات على اختلاف أنواعها وأشكالها وطعومها.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الكاف للتشبيه بمعنى: «مثل»، أي: مثل إحيائنا هذا البلد بالمطر، وإخراجنا به الثمرات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم.

قال ابن كثير(٣): «أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٣١، «وتفسير ابن كثير» ٣/ ٤٢٦.

(٢) انظر: «ديوانه» (٤/ ٢٨٦).

(٣) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٦.

بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة؛ ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يومًا، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض».

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون: «تَذَّكَّرُونَ» بتشديدها، وأصلها: «تتذكرون»، فأدغمت التاء في الذال.

واللام في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ للتعليل، أي: ضربنا لكم هذا المثل؛ من إحياء البلد الميت بالمطر لأجل أن تتذكروا أو تعتبروا وتتعظوا، وتعلموا قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾، أي: ذو الأرض الطيبة النقية، والتربة والمادة الملائمة للنبات والزرع والغرس.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ في حينه ووقته طيبًا حسنًا، كما قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ في موضع الحال من ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، أي: بإذن ربه وأمره الكوني، وعنايته سبحانه، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك كونًا.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، أي: والبلد الذي خبث، أي: خبث أرضه وتربته كالسبخة المالحة.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قرأ أبو جعفر: «نَكَدًا» بفتح الكاف، والباقون بكسرها.

ومعنى ﴿نَكِدًا﴾، أي: عسرًا رديئًا، خاسًّا قليلًا، لا نفع فيه ولا بركة.

فشبه عز وجل الوحي الذي أنزله على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض؛ لحصول الحياة بهذا وهذا.

وشبه القلوب بالأرض؛ إذ هي محل الإيمان؛ كما أن الأرض محل النبات.

وشبه القلب الذي ينتفع بالوحي ويؤمن به ويعمل بما فيه بالأرض الطيبة التي تخرج نباتها بالمطر وتنتفع به.

وشبه القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يؤمن به بالأرض السبخة التي لا تخرج نباتها بالمطر ولا تنتفع به.

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنّما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، أي: مثل تصريف هذه الآيات، أي: تنويعها وتبيينها، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، أي: ننوع ونبين الآيات بضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، اللام للتعليل، كالتي قبلها، أي: لأجل قوم يشكرون؛ وهم المؤمنون الذي ينتفعون بالآيات، ويرونها أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، ويشكرون الله بالاعتراف والإقرار بها، وصرفها في مرضاته وطاعته؛ بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: هذا مثل ضربه الله للمؤمن، يقول: هو طيب وعمله طيب؛ كما البلد الطيب ثمره طيب. ثم ضرب مثل الكافر

(١) أخرجه البخاري في العلم- فضل من علم وعلم ٧٩، ومسلم في الفضائل- بيان مثل ما بعث النبي ﷺ به من الهدى والعلم ٢٢٨٢.

كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث»[1].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ربكم هو الإله المعبود وحده.

٣- إثبات عظمة الرب عز وجل بذاته وصفاته وخلقه وملكه وأمره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

٤- عظمة خلق السموات والأرض، ودلالتهما على تفرده عز وجل بالربوبية؛ لهذا ابتدأ بذكر خلقها؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٥- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال أهل العلم: من يوم الأحد إلى يوم الجمعة.

٦- قدرة الله تعالى التامة في خلق السموات والأرض، وحكمته البالغة في جعل خلقهما في ستة أيام؛ مع قدرته عز وجل أن يخلقهما في أقل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٧- إثبات استواء الله عز وجل على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

٨- قدرة الله وحكمته ومنته في خلق الليل والنهار، وجعل كل منهما يغشى الآخر ويداخله، وما يترتب على تعاقبهما من المصالح للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٥٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٥٠٤.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

٩- سرعة طلب كل من الليل والنهار الآخر، وعدم إدراكه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

١٠- قدرة الله تعالى وحكمته ونعمته في خلق الشمس والقمر والنجوم، وتسخيرها بأمره تجري في بروجها، وما يترتب على ذلك من المصالح والفوائد للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١١- إثبات أمر الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٢- أن لله عز وجل خاصة الخلق كله؛ فهو الخالق يخلق ما يشاء ويختار، وهو المالك لجميع المخلوقات، وله الأمر الكوني خاصة، أي: التقدير والتدبير؛ كما أن له الأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

١٣- عظمة الله عز وجل، وتعاليه، وتنزهه، وبركته، وكثرة خيره وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى للعالمين- أي: لجميع الخلق- ربوبية عامة؛ فهو خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولهذا استحق التعظيم، والتقديس، والإفراد بالعبادة دون سواه.

١٥- وجوب دعاء الله تعالى، والتذلل له، والاستكانة بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾.

١٦- الترغيب بالإسرار بالدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ وذلك لما في الدعاء خفية وسرًّا من الفوائد العظيمة:

منها: أنه أعظم إيمانًا، وأبلغ في الإخلاص.

ومنها: أنه أدل على الأدب والتعظيم لله تعالى.

ومنها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع والذل والانكسار، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده.

ومنها: أنه أجمع للقلب في التوجه إلى الله تعالى من رفع الصوت الذي يشتت القلب.

ومنها: أنه أدل على استحضار الداعي قربه من ربه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية(١).

ولما رفع الصحابة رضوان الله عليهم أصواتهم في الدعاء والتكبير قال ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّ الّذي تدعون سميعٌ قريبٌ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدّعاء**»(٢).

وفي الحديث القدسي قوله عز وجل: «**من تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب منّي ذراعًا تقرّبت منه باعًا**»(٣).

وأخيرًا؛ فإن إخفاء الدعاء وإسراره أدعى لدوام الطلب وعدم التعب والملل، بخلاف رفع الصوت، وهو أبعد عن القواطع والمشوشات والمضعفات التي تعرض له برفع الصوت؛ لأنه إذا أسر لا يعلم به أحد، إلى غير ذلك من فوائد الإسرار بالدعاء.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاعتداء بمخالفة أمر الله أو ارتكاب نهيه؛ بالشرك بالله، أو الاعتداء بالدعاء، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩- نفي محبة الله تعالى عن المعتدين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ٧٥٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- إثبات صفة المحبة لله عز وجل، وأنه يحب غير المعتدين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

٢١- النهي عن الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي والاعتداء في الدعاء وغير ذلك، بعد إصلاحها بالإيمان والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

٢٢- أن الفساد في الأرض بعد إصلاحها أشد وأعظم؛ لهذا نص عليه.

٢٣- ينبغي أن يكون الداعي خائفًا من عقاب الله تعالى، راجيا لثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٢٤- قرب رحمة الله تعالى من المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- الترغيب بالإحسان، وأن من الإحسان دعاء الله تعالى خوفًا وطمعًا؛ لقوله تعالى بعد أن أمر بدعائه خوفًا وطمعًا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٧- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته بإرسال الرياح للبشرى بين يدي رحمته، ولنشر السحاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

٢٨- إطلاق رحمة الله تعالى على المطر؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: بين يدي المطر؛ وهو رحمة مخلوقة لله تعالى.

٢٩- قدرة الله تعالى العظيمة في جعل الرياح- هذا المخلوق اللطيف- تحمل السحاب الثقال المحمل بالماء الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾.

٣٠- امتنان الله تعالى على العباد بسوق السحاب إلى البلاد الميتة، وإنزال الماء، وإخراج الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣١- أن المطر سبب لحياة الأرض والبلاد؛ لقوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣٢- في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج ثمرتها؛ دليل على قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٣- في بيان أنه عز وجل كما أحيا الأرض بعد موتها بالماء، قادر على إخراج الموتى من قبورهم؛ تذكير للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٤- إخراج البلد الطيب نباته سريعًا بإذن ربه عند نزول المطر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

٣٥- أن الأسباب ليست مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله تعالى بها؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

٣٦- أن البلد خبيث الأرض والتربة لا يخرج نباته عند نزول المطر عليه إلا نكدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

٣٧- أن القلب الذي ينتفع بالوحي ويؤمن به ويعمل بما فيه كالبلد الطيب الذي يخرج نباته بنزول المطر عليه، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي كالبلد الذي خبث لا يخرج إلا نكدًا.

٣٨- أن نزول الوحي حياة للقلوب؛ كنزول الغيث حياة للأرض.

٣٩- تصريف الآيات وتنويعها؛ للتأمل فيها والانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

٤٠- أنه لا ينتفع بتصريف الآيات وتنويعها إلا من يعتبر نزولها نعمة من الله تعالى ويشكره بالإيمان بها، والعمل بما فيها، وطاعته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في أول هذه السورة قصة آدم عليه السلام، وذكر قبيل هذه الآيات جملة من دلائل توحيده، ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام؛ الأول فالأول، والذين اتفقت دعوتهم على توحيد الله تعالى، وكيف أيدهم الله، وأهلك من عاندهم.

وفي ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وما حصل لهم من أممهم من التكذيب والعناد أعظم التسلية للنبي ﷺ؛ لأن المصائب إذا عمت خفت.

وفي ذلك بيان أن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة للرسل وأتباعهم، وأن عاقبة المكذبين الخيبة والحزن المبين في الدنيا والآخرة.

وفي ذلك بشارة له ﷺ ولأتباعه، ونذارة للمكذبين لدعوته المخالفين له.

كما أن في ذلك تنبيهًا على أن الله عز وجل يمهل المكذبين ولا يهملهم، بل ينتقم منهم، إضافة إلى دلالة هذه القصص على صدق نبوته ﷺ؛ لأنه كان أميًّا لا يقرأ كتابًا، وأنه إنما علم ذلك من الوحي.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿لَقَدْ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا.

وقوله: ﴿لَقَدْ﴾ هنا بلا عطف، وفي سورة «هود» و«المؤمنون»[1] بالعطف: «ولقد».

و«قد»: حرف تحقيق. فأكد هذا الخبر بلام القسم، والقسم المقدر، وحرف التحقيق.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: بعثناه برسالة منا إلى قومه الذين كانوا يعبدون

---

(١) انظر الآية [٢٥] من سورة هود، والآية [٢٣] من سورة المؤمنون.

الأوثان؛ ليبلغها إليهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، كما قال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، وقال تعالى عن الرسل: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

و﴿نُوحًا﴾ هو أول رسول إلى أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وهو أحد أولي العزم من الرسل الخمسة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وكان قومه يعبدون الأصنام التي صوَّرَها من قبلهم على قبور أناس من صالحيهم، وبنوا عليها مساجد؛ ليذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن آلهة قوم نوح كانوا أسماء جماعة من صالحيهم، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابًا. فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1].

وقد ذكر المفسرون أنهم كانوا خلقًا كثيرًا، ملؤا السهل والجبل، ولم يكن هناك أرض إلا ملكوها.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بهذا؛ لتذكيرهم بآصرة القرابة، والتودد إليهم، والترقيق والتلطف معهم؛ ليتحققوا أنه لهم ناصح، مريد الخير لهم، مشفق عليهم.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده، أي: تذللوا لله تعالى، واخضعوا له وحده، وانقادوا لطاعته، ولا تشركوا به غيره.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع لله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «إنا أرسلنا» ٤٩٢٠.

وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي: «غَيْرِهِ» بالجر على النعت لـ«إله»، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع على النعت من موضع «إله»، أي: ما لكم إله غيرُهُ.

و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، تفيد استغراق العموم في النفي، أي: ما لكم من أي إله غيره؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر، وما سواه مربوب مخلوق مملوك مُدَبَّر ليس له من الأمر شيء.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون في موضع التعليل، أي: إني نصحًا لكم وشفقة عليكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: عذاب القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به.

وفي هذا دلالة أنهم كانوا على الشرك.

و﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ«يوم»، ووصف بهذا ؛ لعظم ما فيه من الأهوال، والعذاب والنكال، فهو عظيم وثقيل وعسير، وعبوس قمطرير؛ كما وصفه الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الملأ: السادة والكبراء والأشراف والرؤساء، وذوو الغنى والجاه منهم، ولم يصف «الملأ» هنا بقوله: «الذين كفروا» قيل: لأنهم في أول دعوته كلهم كفار، أو لقلة من آمن منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أو أنه: لم يصفهم بـ«الذين كفروا» استغناء بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا.

ولهذا قد وصفهم بذلك في سورة هود فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الآية: ٢٧].

والمعنى: قال الملأ من قومه نيابة عن بقيتهم ردًّا على دعوته لهم بعبادة الله وحده، ونفيه أن يكون لهم إله غيره: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكتفوا بالاستكبار عن دعوته وعدم الانقياد له، بل قدحوا فيه ورموه بالضلال، بل بالضلال المبين.

واللام في قولهم: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ لام التوكيد، والرؤية هنا بمعنى العلم، أي: إنا لنعلم

أنك في دعوتك إيانا لعبادة الله وحده، ونفي أن يكون لنا آلهة غيره، وتخويفنا العذاب ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، أي: في بعد وتيه عن الحق ومجانبة للصواب.

والظرفية في قولهم: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ للتعبير عن تمكن الضلال منه؛ كأنه محيط به من جميع جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف، وقد أكدوا هذا بـ«إن» واللام في خبرها.

﴿مُّبِينٍ﴾ اسم فاعل، من «أبان» اللازم، أي: في ضلال واضح بيِّن في نفسه، بالغ الغاية في البعد عن طريق الحق.

ويحتمل أيضًا أن يكون اسم فاعل من «أبان» المتعدي، فيكون المعنى: أي: في ضلال واضح بيِّن في نفسه، ومبين أنك ضال.

وهكذا يعمد أهل الباطل والفجار إلى رمي أهل الحق من الرسل وأتباعهم بأقبح الأوصاف؛ لتنفير الناس منهم ومن دعوتهم؛ فقد رمى قوم نوح نوحًا عليه السلام في هذه الآية بالضلال المبين؛ كما رموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وقالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

كما ذكر الله تعالى عنهم وعن غيرهم من الأمم رميهم الرسل بالسحر والجنون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

قال ابن كثير(١): «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]».

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: قال نوح عليه السلام ردًّا على الملأ من قومه في رميهم له بأنه في ضلال مبين: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، وهكذا خُلُق الأنبياء عليهم السلام، فلم يعنفهم، ولم يقابلهم

---

(١) في تفسيره» ٣/ ٤٢٧-٤٢٨.

بوصفهم بما رموه من الضلال فيقول: بل أنتم الضالون، ونحو ذلك، بل حاول أن يستعطفهم بإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تحببًا إليهم، وإشفاقًا عليهم.

واكتفى بنفي الضلالة عنه مبينًا أنه رسول من رب العالمين، فلله ما أروع هذا الخلق! ولم يخص خطابه بالملأ الذين قالوا له تلك المقالة، بل أعاده إلى قومه كلهم؛ لأنه مع كونه مجادلة للملأ من قومه هو دعوة عامة.

وقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ من أحسن الرد وأبلغه؛ لأنه نفى أن يلتبس به ضلالة واحدة.

و«ضلالة» أيضًا: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ليس بي أي ضلالة. والباء للمصاحبة والملامسة؛ فنفى أن يكون متلبسًا بأي ضلالة.

وبهذا نقض ما رموه به من إحاطة الضلال به بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «لكن»: حرف استدراك، أي: ما أنا ضال ولست بضال كما تقولون ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والرسالة لا تجامع الضلالة.

﴿رَسُولٌ﴾، أي: مرسل إليكم، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربي وربكم ورب جميع الخلق.

وفيه إشارة لأهمية رسالته؛ لعظم شأن المرسِل وهو رب العالمين: خالقهم، ومالكهم، ومدبرهم.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: هذا بيان لقوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب في هذا الموضع والذي بعده: «أُبْلِغُكُمْ» بإسكان الباء، وتخفيف اللام؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [هود: ٥٧].

وقرأ الباقون: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللام في الموضعين؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومعنى ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، أي: أوصل إليكم رسالات ربي.

والتبليغ والإبلاغ: الإيصال، ومنه ما جاء في حديث الثلاثة: الأقرع، والأبرص،

والأعمى: «أعطني ناقة، أو بقرة، أو شاة أتبلغ بها في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[(١)].

والمعنى: إن مهمتي أن أوصل إليكم رسالات ربي، وأبلغكم إياها أتم بلاغ، إيصالًا وبيانًا تقوم به الحجة عليكم.

﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، أي: ما أرسلني به ربي إليكم من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنذائر، والأخبار، وما يوحيه إلي؛ ولهذا جمع «رسالات».

والإظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: أبلغكم رسالاته، بل قال: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ إشارة إلى عظم المسؤولية، وأنه لا يسعه إلا تبليغ ما أمر بتبليغه وإن كره قومه.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ معطوف على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، أي: وأرشدكم وأبين لكم بصدق وإخلاص ما فيه الخير والصلاح لكم من قول وعمل، في أمر دينكم ودنياكم وآخرتكم.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**الدّين النّصيحة**»[(٢)].

وهكذا شأن الرسل عليهم الصلاة أنصح الخلق للخلق؛ لأن الله اختارهم واصطفاهم من بين سائر الخلق أمانة وفصاحة وبيانًا ونصحًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال ﷺ حين خطب الناس بعرفات في أكبر جمع: «**وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللّهمّ اشهد**» ثلاث مرات[(٣)].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: مما علمني الله.

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لا تعلمونه من الأمور الغيبية التي لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه في الإيمان ٥٥، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٤، والنسائي في البيعة ٤١٩٧، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج ١٢١٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

تُعلم إلا من طريق الوحي، من الأخبار السابقة واللاحقة، وما أعد الله من الثواب لأوليائه، وما أعد من العذاب لأعدائه وأعداء رسله، وغير ذلك.

ففي قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جمع لمعانٍ كثيرة مما تتضمنه الرسالة، وتأكيد لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم مهما كرهوا ذلك وآذوه، وتنبيه وحث لهم على التأمل فيما جاءهم به؛ ليعلموا صدقه فينقادوا له، فينجوا من عذاب الله.

مع تهديدهم بحلول العذاب العاجل أو الآجل إن استمروا على تكذيبه.

كما أن فيه تأكيدًا لرد زعمهم أنه في ضلال مبين، وتجهيلًا لهم وتسفيهًا.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو: عاطفة، أي: كيف تعجبون؟ أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإنه ليس بعجب أن يأتيكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: تذكير وموعظة من ربكم ذي العناية بكم.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: من أنفسكم وقبيلتكم وبشر مثلكم، وقد ضمن قوله: ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ معنى «نزل»، أي: نزل ذكر من ربكم على رجل منكم.

فاستبعدوا وتعجبوا أن يكون نوح رسولًا وهو رجل منهم، وبشر مثلهم؛ كما ذكر الله قولهم في الآية الأخرى: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وذلك من منة الله تعالى عليهم لو كانوا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اللام في المواضع الثلاثة: للتعليل، أي: لأجل أن ينذركم، أي: يحذركم ويخوفكم نقمة الله وعذابه إن لم تؤمنوا.

﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، أي: ولأجل أن تتقوا الله وتتقوا عذابه بعبادة الله تعالى وحده، وترك ما أنتم عليه من عبادة الأصنام.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: ولأجل أن يرحمكم الله. فالرحمة سببها التقوى، والتقوى

سببها الإنذار، والثلاثة من أجلها أرسلت النذر، وبعثت الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

ذكر عز وجل منته على قوم نوح بإرساله إليهم، ومعالجته لهم، وتخويفه ونصحه لهم ترغيبًا وترهيبًا، وما لقي منهم من العناد، ثم ختم الآيات بذكر ما انتهى إليه الأمر بإنجائه ومن معه في الفلك، وإغراق المكذبين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوه فيما جاءهم به من الدعوة إلى عبادة الله وحده، وأنه لا إله لهم غيره، وأنه مرسل من عنده عز وجل، وناصح لهم، ويعلم من الله ما لا يعلمون. وتمادوا في التكذيب.

وضمير الواو في قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعود إلى القوم كلهم؛ الملأ منهم، ودهماؤهم.

وأطلق التكذيب على الكل؛ لقلة من آمن منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] قيل: كانوا عشرة سوى نسائهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، الفاء عاطفة، أي: فخلصناه من الغرق.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦].

وقدم الإنجاء؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ لم يقل: وأغرقنا سائرهم أو بقيتهم، كما قال في سورة الشعراء: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الآية: ١٢٠]؛ بل أتى بالموصول؛ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لِمَا تؤذن به الصلة من وجه تعليل الخبر، أي: وأغرقناهم بسبب تكذيبهم، كما قال تعالى:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾، «إن» تفيد معنى التعليل، أي: لأنهم كانوا قومًا عمين.

و﴿عَمِينَ﴾ صفة لـ﴿قَوۡمًا﴾، وهي: جمع «عَمٍ» مشتق من العمى، وأصله: فقدان البصر. ويطلق على العمى المعنوي؛ وهو عمى القلب وفقدان الرأي والعلم النافع، قال زهير[1]:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

ومعنى «عمين»، أي: عُمْي القلوب عن رؤية الحق فلا يبصرونه ولا يعقلونه ولا يهتدون إليه، أي: عميًا عمًى معنويًّا، لا أمل في هداية صاحبه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذه سنة الله تعالى: أن العاقبة والنجاة والنصر للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وأن الخسران والهلاك لأعدائهم الكافرين في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الله عز وجل قصة نوح مع قومه بأطول من هذا في سورة هود، وخصها بسورة كاملة؛ «سورة نوح».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾.

٢- عناية الله تعالى ببني آدم؛ بإرسال الرسل إليهم واحدًا تلو الآخر.

٣- تقوية قلب النبي ﷺ وتسليته تجاه ما يلقى من قومه؛ بذكر الرسل قبله وما حصل لهم من التكذيب والأذى من أممهم؛ لهذا قص الله تعالى عليه قصصهم وما جرى لهم.

٤- تأكيد الأخبار في القرآن الكريم بالقسم وغيره على ما كان عليه العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم؛ من تأكيدهم الأخبار بذلك.

٥- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض؛ لهذا ابْتُدِئ بذكر قصته.

٦- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بضمير الجمع.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٠).

٧- نعمة الله تعالى على قوم نوح عليه السلام بكونه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وهكذا غيرهم من الأمم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وكون رسول القوم منهم منة من الله على جميع الأمم؛ ليفهموا عنه، ولأنه أنصح لهم وأشفق عليهم من غيره.

٨- أن أصل دعوة الرسل وأساسها التوحيد، أي: الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك؛ لهذا ابتدأ نوح عليه السلام قومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٩- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، وأنه لا إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

١٠- أن التوحيد لا يجتمع مع الشرك؛ فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك وغير موحد.

١١- تحذير نوح عليه السلام قومه عذاب يوم القيامة، وخوفه وشفقته عليهم عذاب ذلك اليوم العظيم؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

١٢- رمي الملأ من قوم نوح وساداتهم وكبرائهم له عليه السلام بأنه في ضلال مبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٣- جرأة المكذبين من عِليَة الأقوام على اتهام الرسل ووصفهم بأقبح الأوصاف؛ لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم.

وهكذا يعمد أهل الباطل في كل عصر ومصر بوصف أهل الخير والصلاح ودعاة الحق بما ينفر الناس منهم؛ كيدًا للحق وأهله.

١٤- سمو خلق نوح عليه السلام؛ فمع تكذيب قومه له ووصفهم له بالضلال المبين لم يعنفهم، بل أعاد نداءه لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تحببًا إليهم، وإظهارًا للشفقة عليهم، واكتفى بنفي ما وصفوه به بقوله: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾.

١٥- تعظيم نوح عليه السلام لرسالته ومهمته؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّى

رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة: ربوبية الخلق والملك والتدبير لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٧- بيان نوح عليه السلام لمهمته؛ وهي إبلاغ رسالات ربه؛ لقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، وهي مهمة جميع الرسل عليهم السلام، مع تكليفهم بالعمل كغيرهم من أفراد أممهم.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

١٩- نصح نوح عليه السلام لقومه، وحرصه على هدايتهم، وشفقته عليهم؛ لقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

وهكذا حال جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله اصطفاهم من خيرة خلقه، فهم أنصح الخلق للخلق.

٢٠- إثبات علم نوح عليه السلام مما علمه الله ما لا يعلمه قومه من الأخبار السابقة واللاحقة، وما أعد الله من الثواب لمن أطاعه، وما أعد من العقاب لمن عصاه، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام يعلمون بما أوحاه الله إليهم ما لا يعلمه غيرهم من الخلق؛ مما يكون عونًا على تبليغ رسالات ربهم.

٢١- تعجب قوم نوح مما ليس بعجب؛ وهو أن يأتيهم ذكر من ربهم على رجل منهم لينذرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وهكذا تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد؛ فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥٠].

٢٢- إنكار نوح عليه السلام على قومه تعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يأتيهم تذكير من ربهم على لسانه عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن

رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٣- أن من مهمة الرسل عليهم السلام الأمر بتقوى الله، والإنذار من عذاب الله، والتبشير برحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٤- أن الوحي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام عظة وتذكير لأقوامهم من ربهم؛ لقولهم تعالى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- نعمة الله تعالى في كون الرسل عليهم السلام للبشر من جنسهم؛ بل كل رسول يبعث في قومه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾.

٢٦- أن الرسل إنما يكونون من الرجال الذكور؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ فلم يكن في الإناث ولا في الجن نبوة.

٢٧- الوعد بالرحمة لمن خاف عذاب الله واتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٨- تكذيب قوم نوح عليه السلام له، وإصرارهم على ذلك؛ لقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ﴾.

٢٩- إنجاء الله عز وجل لنوح عليه السلام والذين آمنوا معه من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾.

٣٠- إغراق المكذبين بآيات الله من قوم نوح؛ لتكذيبهم وعمى قلوبهم عن رؤية الحق واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾.

٣١- في الإخبار بما انتهى إليه أمر نوح عليه السلام وقومه- من إنجاء الله عز وجل له والذين آمنوا معه من الغرق، وإغراق المكذبين- بشارة للرسل بعده وأتباعهم، وإنذار للمكذبين للرسل، وإغراء بالإيمان بالرسل واتباعهم، وتحذير من تكذيب الرسل ومخالفتهم.

٣٢- أن عمى القلوب أشد وأعظم من عمى الأبصار؛ لأن عمى القلوب سبب لتكذيب الحق ورده، والكفر، وعدم الإيمان.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام أول الرسل وقومه، أتبع ذلك بذكر قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾:

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد، أو وأرسلنا إلى عاد.

و«عاد» اسم الأب الكبير لهم، وهو: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح؛ فسمِّيَت به القبيلة أو الحي.

فإن جعلته اسمًا لمذكر صرفته، وإن جعلته اسمًا لمؤنَّث منعته من الصرف، وكذا ما أشبهه نحو «ثمود»(١).

وقال بعضهم: إنما صرف «عاد»؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط.

وهم عاد إرم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ ٨]، وهم عاد الأولى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥].

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٠).

و«عاد»: أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وهم عشر قبائل، وقيل: ثلاث عشرة قبيلة؛ منازلهم بالأحقاف باليمن، وهي الرمال التي بين حضرموت وعُمان؛ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكانوا ذوي شدة وقوة وبأس، كما قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨٧].

﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: «أرسلنا»، و﴿هُودًا﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿أَخَاهُمْ﴾، وهو أخوهم في النسب والقرابة، وكان من أشرفهم نسبًا.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هذا كقوله تعالى عن نوح عليه السلام فيما سبق: ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: فنادى هود عليه السلام قومه بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ مذكرًا لهم بآصرة القرابة، ومتوددًا لهم؛ كما فعل نوح عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفى أن يكون لهم إله غيره؛ كما هي دعوة نوح وغيره من الرسل عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال ﷺ: «**الأنبياء إخوةٌ لعلّاتٍ؛ أمّهاتهم شتّى ودينهم واحدٌ**»(١)؛ وهو الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة، أي: أفلا تتقون الله وتحذرونه وتخافون عقابه بعبادتكم غيره؟! أي: اتقوا الله، واحذروه، وخافوا عقابه، واعبدوه وحده، واتركوا ما أنتم عليه من الشرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٣٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: قال السادة والكبراء؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وصف كاشف، لمجرد ذمهم لشدة كفرهم.

وقيل: يحتمل أن يكون للتقييد؛ لأن منهم من آمن.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ لم يكتفوا بعدم الانقياد لهود عليه السلام؛ بل ذمُّوه وقدحوا في دعوته؛ كما فعل قوم نوح قبلهم، وأكَّدوا مقالتهم في الموضعين بـ«إن» ولام الابتداء؛ كما جاء في مقالة الملأ من قوم نوح عليه السلام؛ فكأنه لقَّن بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

والرؤية في قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ رؤية قلبية، أي: إنا لنعلم أنك في سفاهة.

والسفاهة: خفة العقل، وسوء التصرُّف، وعدم الرشد، أي: إنا لنراك سفيهًا في دعوتك لنا إلى عبادة الله وترك آلهتنا ودين آبائنا.

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أطلقوا الظن على اليقين، وهو استعمال كثير في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: وإنا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة، وأمرك لنا بعبادة الله وحده، وقولك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ولم يقولوا: وإنا لنظنك كاذبًا، بل قالوا: ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، أي: في عداد الكاذبين الذين صفتهم وديدنهم الكذب وبلغوا الغاية فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ هكذا قال هود عليه السلام، كما قال نوح عليه السلام؛ فلم يعنف هؤلاء الملأ من قومه على ما رموه به من السفاهة والكذب، بل استعطفهم بإعادة ندائه لهم بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾، ولم يقابلهم بما وصفوه به؛ فلم يقل: بل أنتم السفهاء الكاذبون،

ونحو ذلك؛ بل اكتفى بنفي ما رموه به من السفه بقوله: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، أي: لست بسفيه. أو: ما أنا بسفيه كما تقولون.

و﴿سَفَاهَةٌ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ليس بي أي سفاهة بوجه من الوجوه.

ثم بيَّن حقيقة أمره بقوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾.

وهذا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾. وقد سبق الكلام عليه.

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ قدَّم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ على عامله؛ للإيذان باهتمامه بما ينفعهم.

والمعنى: وأنا لكم مخلص في إرادة الخير والنفع لكم، وتحذيركم من الشر والضرر فيما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده دون سواه من الآلهة، وبيان أنه ما لكم من إله غيره.

﴿أَمِينٌ﴾، أي: أمين على رسالات ربي حتى أؤديها إليكم من غير زيادة ولا نقصان، ولا تبدل ولا تغيير. كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ﴿أَمِينٌ﴾ في نصحي لكم فلا أغشكم، صدوق فيما قلت لكم فلا أكذب عليكم، كما قال لهم في سورة الشعراء: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٥].

وفي هذا رد لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

والنصح والأمانة من أخص أوصاف الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن صفات أتباعهم المؤمنين؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ بنحو هذه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٤).

المقالة قال نوح عليه السلام لقومه، وقد سبق الكلام عليه.

والمعنى: لا تعجبوا أن جاءكم تذكير وموعظة من ربكم على رسول من أنفسكم يخوفكم بأس الله ويخوفكم عقابه.

وليس- والله- بعجيب أن يتفق نوح وهود- بل وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام- على حسن المحاجة، وعلى هذا الخلق العظيم من الحلم والإغضاء والأدب الحسن، وعدم الانتصار للنفس، أو المقابلة للسوء بالمثل.

ولكن العجب كل العجب أن تجمع الأمم على عداوة رسل الله تعالى وتكذيبهم، ورد دعوتهم إلى التوحيد، والتشبث بما عليه الآباء من عبادة الأوثان، ورمي الرسل بالضلال والسفه والسحر والجنون ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾.

بعد أن أمرهم بتوحيد العبادة لله تعالى وحده ذكَّرهم نعمة الله عليهم في جعلهم يخلفون قوم نوح، وما أمدهم به من القوة وسائر النعم التي يقرون بها؛ ليشكروه ويخلصوا له العبادة؛ لأن الإقرار بربوبيته ونعمه يوجب توحيده في إلهيته.

أي: واذكروا بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم نعمة الله عليكم؛ شكرًا له.

﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين جعلكم.

و«جعل» هنا من الجعل الكوني، وهي بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين؛ الأول: كاف الخطاب، والثاني: ﴿خُلَفَآءَ﴾.

و«خلفاء»: جمع «خليفة»، وهو: الذي يخلف غيره، أي: ينوب عنه بعد موته، أو في حال حياته؛ إما لغيابه أو مرضه أو عدم صلاحيته، ونحو ذلك.

أي: واذكروا نعمة الله عليكم واشكروه؛ إذ مكَّن لكم بعد قوم نوح بعد أن أهلكهم، وجعلكم ممن بقي من ذرِّيَّته؛ لينظر كيف تعملون، كما قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

واحذروا من التكذيب فيصيبكم ما أصابهم ويُستبدل قوم غيركم.

ففي هذا التذكير تصريح بنعمة الله عليهم، وتعريض بالإنذار والتحذير لهم.

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ البسطة: السعة والوفرة في أمر من الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أي: وزادكم في خلقكم بسطة، أي: سعة بكبر أجسامكم وضخامتها، وطول قاماتكم وقوتكم، كما قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧، ٨].

ولهذا اغتروا بقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾، أي: نعمه الواسعة، ومننه العظيمة، وأياديه المتتابعة عليكم؛ بشكرها بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تُفلحوا فتفوزوا بالمطلوب، وتنجوا من المرهوب، إذا ذكرتم آلاء الله وشكرتموها، فأفردتموه بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠﴾:

هذه الآية كقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

قوله: ﴿قَالُوا﴾، أي: قال قوم هود له منكرين لدعوته ورسالته: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، واللام في قوله: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ﴾: لام التعليل، أي: لأجل أن نعبد الله وحده.

وفي إسنادهم الضمير له في قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ تعريض بأن ما جاءهم به هو من تلقاء نفسه، وليس من عند الله.

﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ معطوف على جملة التعليل قبله، أي: ولأجل أن نذر، أي: نترك ما كان يعبد آباؤنا.

و«ما»: موصولة، أي: الذي كان يعبد آباؤنا من الآلهة.

وفي هذا إشارة إلى قدم عبادتهم لها وتجددها واستمرارهم عليها.

أي: إننا لن نقبل ما جئتنا به؛ فلن نعبد الله وحده ونترك الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا.

ولم يكتفوا بالإنكار عليه والامتناع عن قبول ما يدعوهم إليه، بل قالوا تحديًا وتعجيزًا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، «ما»: موصولة، أي: فائتنا بالذي تعدنا، أي: عجِّل لنا الذي كنت تنذرنا وتتوعدنا به من العذاب على ما نحن فيه من عبادة ما يعبد آباؤنا.

يشيرون بهذا إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وهذا استفتاح منهم على أنفسهم، يدل على شدة غرورهم وطغيانهم وعنادهم، كما قال كفار قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فيما تدعونا إليه وتخوِّفنا به.

وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: إن كنت من الصادقين فائتنا بما تعدنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، أي: قال هود عليه السلام إجابة لطلب قومه تعجيل العذاب: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قد وجب وحقَّ عليكم من ربكم.

﴿رِجْسٌ﴾، أي: عذاب، وانعقدت أسبابه وحان وقته.

﴿وَغَضَبٌ﴾، أي: وغضب من ربكم، وغضبه عز وجل موجب لانتقامه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الشورى: ٥٥].

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أتحاجونني، ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى﴾، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفة

لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾.

والمعنى: أتحاجونني وتخاصمونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآبائكم آلهة وعبدتموها من دون الله؛ وهي لا تضر ولا تنفع؟!

﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ صفة ثانية لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾.

و«مِن» في قوله: ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: ما أنزل الله بها أيَّ سلطان، أي: أي حجة وبرهان أو دليل.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هذا تهديد ووعيد من هود عليه السلام لقومه.

والانتظار: الترقب والتحرِّي للشيء، أي: انتظروا وترقبوا ما حذَّرتكم منه، وما سيحلّ بكم من عقاب الله وعذابه الذي استعجلتموه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما وعدني الله من النصر والثواب، ولما توعدكم به من العقاب والعذاب، يدل على هذا **قوله تعالى** بعده:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

فكما ختم عز وجل قصة نوح وقومه بذكر إنجائه ومن معه من الغرق وإغراق المكذبين؛ ختم قصة هود وقومه عاد بذكر إنجائه والذين معه من المؤمنين وإهلاك المكذبين؛ كما هي سنة الله تعالى الكونية.

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، أي: فأنجينا هودًا والذين آمنوا معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٥٨].

وقُدِّم ذكر إنجاء هود والمؤمنين معه؛ للاهتمام بذلك.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، الباء للسببية، ونكَّر «رحمة»؛ تعظيمًا لها، أي: بسبب رحمة عظيمة منا. وأضافها عز وجل إلى نفسه للدلالة على سعتها وكمالها، أي: ونجينا هودًا والذين معه برحمة منا؛ بها هديناهم إلى الحق، وبها أنجيناهم من الهلاك.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: وأهلكنا الذين كذبوا بآياتنا جميعًا عن

آخرهم واستأصلناهم، فلم نُبق منهم أحدًا؛ حيث سلطنا عليهم الريح العقيم، كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

وقال ﷺ: «**نصرت بالصّبا، وأهلكت عادٌ بالدّبور**»(١).

وقد سمَّى الله تعالى ما أصابهم صاعقة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

كما سمَّى ذلك بالصيحة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وهذا على أحد القولين في الآية؛ لأن من المفسرين من قال: هذه الآية والآيات قبلها في عاد. ومنهم من قال: هي في ثمود.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بتكذيبهم هودًا عليه السلام، وما جاءهم به من الآيات، وقولهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه؛ حيث لم يؤمن بدعوة هود إلا نفر قليل يكتمون إيمانهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إشارة إلى أن سبب النجاة لمن نجا هو الإيمان؛ كما أن سبب هلاك هؤلاء هو الكفر والتكذيب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه «عاد»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٣٥)، ومسلم، في الاستسقاء (٩٠٠)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَخَاهُمْ هُودًا ﴾.

٢- أن هودًا عليه السلام من قبيلة «عاد»، ومن أشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وهذا من رحمة الله تعالى، ونعمته عليهم، وعنايته بهم.

٣- استهلال هود عليه السلام دعوته لقومه بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك؛ لأن ذلك هو حق الله على العباد، وهو أساس دعوة الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٤- لا إله للخلق بحق سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٥- إنكار هود عليه السلام على قومه ما هم عليه من الشرك، وحثهم على تقوى الله والخوف من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- رمي الملأ من قود هود له بالسفاهة والكذب، وجرأتهم على ذلك؛ لينفروا الناس منه ومن دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

وهذا ديدن أهل الباطل في مقابلة الحق وأهله من الرسل وأتباعهم في كل عصر ومصر؛ ابتلاء من الله تعالى، وامتحانًا وتمحيصًا؛ وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

٧- سمو خُلُق هود عليه السلام؛ فلم يُعنِّف قومه فيما رموه به من السفه والكذب، بل تودد إليهم بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ﴾، من غير انتصار لنفسه أو مقابلتهم بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾، وهكذا فعل نوح مع قومه، وهذا خُلُق جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٨- بيان هود عليه السلام لقومه حقيقة أمره، وأنه رسول من ربهم مبلغ لهم رسالاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية؛ وفي هذا تعظيم لرسالته ومهمته.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٠- إخبار هود عليه السلام لقومه أن مهمته إبلاغ رسالات ربه إليهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

١٤- نصح هود عليه السلام لقومه، وحرصه على مصلحتهم، وأمانته في أداء رسالة ربه إليهم، والنصح لهم، وهكذا جميع الرسل عليهم السلام؛ هم أنصح الخلق وأعظمهم أمانة.

١٣- تعجب قوم هود عليه السلام من أنه يأتيهم ذكر من ربهم على رجل منهم، وإنكاره عليه السلام ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

١٤- أن الرسل إنما هم من بني جنسهم من البشر، بل من أقوامهم خاصة؛ نعمة من الله تعالى عليهم، وهم من الذكور فقط؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

١٥- تذكير العباد وإنذارهم بما أنزله الله من الذكر على رسله؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

١٦- تذكير هود عليه السلام لقومه بجعلهم من ذرية نوح، وخلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وما زادهم الله من بسطة في الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

١٧- أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

١٨- تذكير هود عليه السلام قومه بجميع نعم الله تعالى عليهم؛ ليشكروها ليفلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٩- أن تذكر نعم الله تعالى وآلائه وشكرها سبب للفلاح والفوز؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٢٠- إنكار قوم هود عليه دعوتهم لعبادة الله تعالى وحده وترك معبودات آبائهم، وتعجبهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٢١- خطر التقليد للآباء أو لغيرهم على عمى وعلى غير هدى؛ فقد كان ضلال كثير

من الأمم بسبب التقليد لآبائهم على ما هم عليه من الشرك والضلال تقليدًا أعمى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٢٢- تحدي الذين كفروا من قوم هود وتعجيزهم له؛ باستعجالهم العذاب الذي توعدهم به؛ إمعانًا منهم في التكذيب له؛ لقولهم له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٣- إخبار هود عليه السلام لقومه بأنه قد حق ووجب عليهم رجس وغضب من ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

٢٤- إنكار هود عليه السلام على قومه مجادلتهم في أصنام سموها وآباؤهم، وعبدوها من دون الله من غير حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

٢٥- بطلان جميع ما يُعبد من دون الله؛ لأن الله لم ينزل بذلك حجة ولا برهانًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

٢٦- تهديد هود عليه السلام لقومه بعقاب الله تعالى، وبشارته لنفسه ولمن آمن معه بالعقبى الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، أي: من المنتظرين عاقبة كل منا.

٢٧- إنجاء الله تعالى لهود عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، أي: بسبب إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

٢٨- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل رحمة ذاتية، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه.

٢٩- إهلاك المكذبين بآيات الله من قوم هود، واستئصالهم عن آخرهم؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله وعدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ

كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩- ٦٠].

٣٠- الترغيب بالإيمان وتصديق الرسل واتِّباعهم، وأن عاقبة ذلك النجاة في الدنيا والآخرة. والترهيب من الكفر والتكذيب وعدم الإيمان، وأن عاقبة ذلك الهلاك في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام وقومه، وقصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، ذكر قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

والمعنى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا.

و«ثمود»: أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وهم أبناء ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح؛ فهم بعد عاد، ويلتقون معهم في «إرم»، وكلاهما قبل إبراهيم الخليل عليه السلام.

و«ثمود» ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث؛ لأن المراد اسم القبيلة، لا جدها.

ومساكنهم: «الحجْر» بوادي القرى شمال الجزيرة في «العلا» بين المدينة وتبوك، وتُعرف الآن بـ«مدائن صالح».

وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك؛ نزل بهم «الحجر» عند بيوت «ثمود»، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها «ثمود»، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور باللحم، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذّبوا، وقال: «**إنّي أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فلا تدخلوا عليهم**»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالحٍ؛ فكانت**- يعني الناقة- **ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ؛ فعتوا عن أمر ربّهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا؛ فعقروها فأخذتهم صيحةٌ أهمد الله بها من تحت أديم السّماء منهم، إلّا رجلًا واحدًا في حرم الله**». **فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغالٍ؛ فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**»(٣).

و«صالح»: اسم عربي، وهو من ثمود؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، وخاطبهم عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ توددًا إليهم، وتذكيرًا لهم بآصرة القرابة.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، أي: اعبدوا الله وحده ما لكم من معبود غيره، كما قال نوح وهود عليهما السلام قبله، وكما هي دعوة جميع الرسل؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١١٧).

(٢) أخرجه البخاري، في الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف (٤٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠)، وأحمد (٢/ ٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٦)؛ قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٣٦): «وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم». وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٠) بإسناده.

٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دلالة على أنهم كانوا مشركين، كما قالوا في سورة هود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعليل لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اعبدوه وحده؛ لأنه جعل لكم آية على وحدانيته تفرده بالخلق والتدبير واستحقاقه للعبادة وحده.

«قد»: حرف تحقيق وتأكيد.

﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: حجة واضحة، وخارق من خوارق العادات التي لا يقدر على مثلها البشر، أي: قد جاءتكم آية كونية ظاهرة على صدق رسالتي وما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، ثم فسَّرها بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١٣].

﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ بيان وتفسير للـ«بينة»، والإشارة في ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الناقة التي جعل الله لهم.

وفي إضافة «الناقة» إلى الله: تشريف لها وتعظيم لشأنها، كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]؛ لأن الله هو الذي خلقها وجعلها آية على صدق صالح عليه السلام فيما جاءهم به من الرسالة والدعوة إلى توحيد إلى الله تعالى.

﴿لَكُمْ آيَةً﴾، أي: لكم علامة ودلالة على صدقي فيما جئتكم به ودعوتكم إليه.

وقدَّم قوله: ﴿لَكُمْ﴾، لإفادة الحصر، أي: لكم خاصة، وللاهتمام والإشارة إلى أنها كافية لهم؛ لظهورها، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: بينة ظاهرة دالة على وحدانية خالقها.

ووجه كونها آية قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وهم قد كانوا سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٥]؛ فأرسلها الله فتنة وابتلاءً لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧- ٢٨].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، أي: فاتركوها تأكل العشب والحشائش وأوراق الأشجار.

﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ التي لا يملكها أحد سواه، أي: فلا عليكم من مؤونتها شيء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، أي: ولا تصيبوها ولا تتعرضوا لها، ﴿بِسُوٓءٍ﴾ الباء: للملابسة، و«سوء»: نكرة في سياق النفي فتعمّ، أي: فلا تتعرضوا لها بأي سوء؛ من عقر، أو منع لها من الأكل في أرض الله، أو أي نوع من الأذى.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، الفاء للسببية، أي: إن تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم موجع في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله وحده، ونفى أن يكون لهم إله غيره؛ معللًا ومذكرًا لهم بالبينة والآية على صدق رسالته وما جاء به من عند الله؛ وهي الناقة، ثم أكّد ذلك بتذكيرهم بنعمة الله عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوّأهم في الأرض يتخذون منها قصورًا وبيوتًا، إلى غير ذلك من نعمه.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ هذا كقول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقد سبق

الكلام عليه.

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾: دلالة على أن ثمود جاءوا بعد عاد؛ فأمر صالح عليه السلام قومه ثمود بذكر نعمة الله تعالى عليهم بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وشكره عليها؛ حيث جعلهم خلفاء من بعد عاد الذي أهلكهم الله قبلهم.

﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، أي: وإذ بوأكم، أي: واذكروا إذ بوأكم في الأرض، أي: أنزلكم وأسكنكم في الأرض، ومكَّن لكم فيها، وهيأ لكم أسباب الحياة والعيش عليها واستخراج خيراتها.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾، أي: تجعلون من سهولها، أي: من الأرض السهلة اللينة، من الطين واللبن والآجر، ﴿قُصُورٗا﴾: جمع «قصر»، وهو: البيت المنيف؛ سمِّي بذلك؛ لقصور الناس عن الارتقاء إليه، أو لأن عامة الناس يقصرون عن بناء مثله.

﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ النَحت: بَرْيُ الحجر والخشب على تقدير مخصوص. والجبال: ضد السهول.

﴿بُيُوتٗا﴾: حال من الجبال، وهي جمع «بيت»، وهو: المكان المتَّخذ للسكنى، أي: وتنحتون الجبال بيوتًا تسكنونها، كما قال تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن عرفتم فضل الله عليكم فاذكروا آلاء الله، أي: نعمه كلها، وما خوَّلكم من الفضل والرزق والقوة.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: ولا تسعوا في الأرض.

﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم مفسدين فيها بالكفر والمعاصي التي تذر الديار العامرة بلاقع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ قرأ ابن عامر: «وَقَالَ» بزيادة واو قبل ﴿قَالَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿قَالَ﴾ بغير واو.

ولم يتوجه هؤلاء الملأ المستكبرون بمجادلتهم إلى صالح عليه السلام؛ لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وإنما توجهوا بذلك إلى أتباعه المستضعفين؛ لمحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، واختبار مدى قوة إيمانهم، وهي كالمحاجة لـ«صالح»؛ لأن المقصود منها إفساد دعوة صالح عليه السلام وصد الناس عنها.

والمعنى: قال الرؤساء والأشراف ونحوهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بما جاءهم به صالح عليه السلام وعن اتِّباعه، واستكبروا على الضعفاء من قومهم واستذلوهم.

وفيه إشارة إلى أن الكبر واحتقار الضعفاء من المؤمنين هو الذي منعهم من الإيمان؛ إذ لا يمكن في تقديرهم سبق هؤلاء المستضعفين إياهم إلى الخير والهدى، كما قال قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وحكى الله عن كفار قريش قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، أي: للذين استضعفهم المستكبرون، وهم عامة الناس.

﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل بعض من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ فالضمير في «منهم» يعود إلى المستضعفين، أي: لمن آمن من المستضعفين.

وعلى هذا فيكون المستضعفون مؤمنين وكافرين.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل كل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، والضمير «منهم» يعود إلى ﴿قَوْمِهِۦ﴾، فيكون المعنى: لمن آمن من قومه. ويكون الاستضعاف مقصورًا على المؤمنين.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار والتشكيك والسخرية والاستهزاء بمن آمن، أي: أعلمتم أن صالحًا مرسل من ربه حقًّا حين آمنتم به؟ أي: إنكم لم تعلموا أنه مرسل من ربه حقًّا وصدقًا، فكيف آمنتم به؟!

وحيث إن استفهامهم هذا ليس بحثًا عن الحق، وإنما للإنكار والتشكيك والاستهزاء؛ لم يجبهم المؤمنون على مقتضى سؤالهم، فلم يقولوا: «نعم» ونحو ذلك، بل أجابوهم بما يُخرسهم.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، أي: قال المؤمنون المستضعفون: إنا بكل الذي أرسل به مصدقون؛ من الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك، وإثبات البعث، وغير ذلك.

وقوله: ﴿بِمَآ﴾ متعلق بالخبر ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾، وقدم عليه للاهتمام بمدلول الموصول.

وقد تضمن جوابهم بهذه الجملة الاسمية المفتتحة بحرف التوكيد «إن» المسارعة إلى تأكيد إيمانهم برسالة صالح عليه السلام، وثباتهم واستمرارهم على ذلك، وأن أمر إرساله عليه السلام من الوضوح بحيث لا ينبغي السؤال عنه، وأن الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لم يقولوا: «إنا بالذي أرسل به كافرون»، وهو المقصود، بل قالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إظهارًا لمخالفتهم للمؤمنين، وردًّا لمقالتهم.

وقد أكدوا مراجعتهم هذه بمثل ما أكد به المؤمنون جوابهم السابق بحرف التوكيد «إن» والإتيان بالجملة الاسمية، محاكاة لجواب المؤمنين؛ للدلالة على شدة تصلبهم وتشبثهم في كفرهم وثباتهم عليه، وشتان بين متمسك بالحق معتز بالثبات عليه، وبين متشبث بالباطل مفتخر بالثبات عليه.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾:

قوله: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾، أي: فقتلوا الناقة، و«العقر»: يطلق على القتل، ويطلق على النحر.

قال امرؤ القيس[1]:

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٢).

وَيَــوْمَ عَقَــرْتُ لِلْعَــذَارَى مَطِيَّتِــي

والمعنى: فعقروا الناقة؛ استخفافًا منهم بوعيد الله لهم، بقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وكيدًا لصالح عليه السلام ولدعوته؛ ليزيلوا الآية التي جعلها الله علامة على صدقه يهتدي بسببها المهتدون، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥].

والضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُواْ﴾ يعود إلى جميع الذين استكبروا؛ لأنهم تمالؤوا على قتلها، وإن كان الذي باشر قتلها واحدًا منهم، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١١- ١٤].

وقال ﷺ: «**انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ**(١) **منيعٌ في رهطه مثل أبي زمعة**(٢)»(٣).

وقد ذكر المفسرون أن اسم هذا الرجل الذي عقرها: قُدار بن سالف، بضم القاف.

﴿وَعَتَوۡاْ﴾، أي: تجبروا وتجاوزوا الحد في الكبر والإعراض.

وعدِّي الفعل «عتوا» بـ«عن»؛ لتضمنه معنى «أعرضوا».

﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: عن أمر ربهم لهم على لسان صالح عليه السلام بعبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك، وعدم التعرض للناقة بسوء.

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جمعوا بين سوء الفعل، وسوء القول، وسوء المعتقد، فتجرؤوا على عقر الناقة مخالفة لأمر الله واستخفافًا بوعيده، وكيدًا لصالح عليه السلام ولدعوته، وافتخروا بما فعلوا، وتحدوا صالحًا بأن يأتيهم بما

---

(١) عارم: جبار.

(٢) أبو زمعة: هو الأسود بن المطلب القرشي؛ مات كافرًا.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٥)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٣)؛ من حديث عبدالله بن زمعة رضي الله عنه.

توعدهم به من العذاب، ظنًّا منهم أنهم يعجزون الله، وإمعانًا منهم في تكذيب صالح عليه السلام؛ فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ولم ينادوه باسم الرسالة، بل نادوه باسمه مجردًا «صالح» مبالغة في تكذيبه، واحتقارًا له.

﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: ائتنا بالذي تتوعدنا به من العذاب، أي: عجِّل لنا ما كنت تتوعدنا به من العذاب بقولك: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أتوا بحرف «إن» الدالة على الشك في حصول الشرط، أي: إن كنت من المرسلين فرضًا وتقديرًا فائتنا بما تتوعدنا به من العذاب.

وفحوى كلامهم هذا التحدي والتعجيز، أي: إنك لا تستطيع أن تأتينا بذلك؛ لأنك لست صادقًا في زعمك أنك من المرسلين، كما قال قوم نوح وقوم هود عليهما السلام: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢، الأحقاف: ٢٢].

وكما قال مشركو مكة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾:

قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، الفاء عاطفة، فلم يكن بين عقرهم الناقة وأخذ الرجفة لهم سوى ثلاثة أيام فقط، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٤- ٦٥].

والرجفة: صيحة وصاعقة شديدة من السماء زلزلت الأرض من تحتهم زلزلة شديدة؛ ولهذا جاء في عدة آيات أنهم أخذتهم الصيحة، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، وقال تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ

صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وجاء في آيات أخرى أنهم أخذتهم الصاعقة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]؛ فأطلق على عذابهم: الرجفة، والصيحة، والصاعقة.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ و«الدار»: المكان الذي يقيم فيه القوم ويسكنونه، يُفرد ويُجمع؛ ففي سورة هود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، والمراد: بلادهم ومساكنهم.

﴿جَاثِمِينَ﴾، أي: ميتين هامدين لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم في أبشع منظر لميت، ولم يبق منهم سوى صالح عليه السلام ومن آمن معه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآيتان: ١٥٧-١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾:

قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، أي: انصرف وأعرض عنهم بعدما أحل الله بهم العذاب، وقال مخاطبًا لهم إعذاراً وتقريعاً لهم بعد هلاكهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾.

وهذا كما فعل نبينا ﷺ عندما وقف على قليب بدر بعد ثلاث، وقال مخاطبًا لهم مقرّعًا وموبخًا: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أميّة بن خلفٍ، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟ فإنّي قد وجدتّ ما وعدني ربّي حقًّا**»». فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيّفوا؟

قال: «**والّذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنّهم لا يقدرون أن يجيبوا**». ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر»[1].

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد أبلغتكم، أي: أوصلت وأديت إليكم ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾، أي: ما أرسلني به إليكم.

وأفرد «رسالة» باعتبار مجمل ما أُرسل به عليه السلام، ولأنه قال هذا بعدما أتمَّ إبلاغهم رسالته، بل بعدما أهلكهم الله.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: وأخلصت في أمركم بالخير ودلالتكم عليه، ونهيكم عن الشر وتحذيركم منه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، «لكن»: حرف استدراك، أي: ولكنكم لا تحبُّون من ينصحكم، بل تكرهونه، فلا تطيعونه، أي: إنكم لا تحبون النصح ولا تقبلونه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

٢- أن صالحًا عليه السلام من قبيلة ثمود، وأشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٣- أن الدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة وحده وترك الشرك هي أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لهذا بدأ بها صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ كما بدأ بها نوح وهود عليهما السلام قبله.

٤- لا إله للخلق بحق سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

٥- إقامة الحجة على ثمود بصدق نبيهم صالح عليه السلام بما جاءهم به من الآية

(١) أخرجه مسلم في الجنة، عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوُّذ منه (٢٨٧٥)، والنسائي (٢٠٧٥)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه البخاري مختصرًا في المغازي، قتل أبي جهل، (٢٩٨١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

البينة على ذلك، وهي الناقة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٧- تمام قدرة الله تعالى؛ حيث خلق هذه الناقة وجعلها بينة على صدق صالح عليه السلام، وآية على عظمته عز وجل وتفرُّده بالخلق، واستحقاقه العبادة وحده.

٨- تشريف هذه الناقة بإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنه هو الذي خلقها وجعلها آية من آياته الكونية ومن خوارق العادات.

٩- أمر صالح عليه السلام لقومه بترك الناقة تأكل في أرض الله، فلا عليهم من مؤونتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن الأرض لله تعالى لا يجوز أن يمنع من الرعي فيها أحد؛ إلا ما كان منها مملوكًا ملكًا خاصًّا بإحياء شرعي؛ لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث: «**ثلاثٌ لا يمنعن: الماء، والنّار، والكلأ**»(١).

١١- نهي صالح عليه السلام لقومه من مس الناقة بسوء، وتحذيرهم وتهديدهم بالعذاب الأليم إن فعلوا ذلك، إعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٢- تذكير صالح عليه السلام لقومه بنعم الله تعالى عليهم، بجعلهم خلفاء من بعد عاد، وتمكينهم في الأرض يتَّخذون من سهولها قصورًا وينحتون من جبالها بيوتًا؛ ليشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

١٣- تأكيد صالح عليه السلام لقومه الأمر بذكر نعم الله عمومًا، ونهيهم عن الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

١٤- محاجة المستكبرين من قوم صالح لمن آمن من المستضعفين؛ لتشكيكهم في

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤٧٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صدق صالح في رسالته، والإنكار عليهم، والسخرية منهم كيف آمنوا به؛ كيدًا من هؤلاء المستكبرين لصالح عليه السلام ولدعوته، وصدًّا للناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

١٥- أن الكبر سبب لرد الحق واحتقار أهله والدعاة إليه؛ لهذا كان المستكبرون هم ألدّ أعداء الرسل عليهم السلام.

١٦- أن من أقرب الناس قبولًا للحق: الضعفاء والفقراء، ولله الحكمة في ذلك؛ وصدق الله العظيم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦٧].

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٨- إعلان المؤمنين بصالح عليه السلام باعتزازٍ وافتخارٍ وثباتٍ إيمانهم بما أرسل به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

وهكذا ينبغي أن يعتزّ المؤمن بإيمانه بلا تكبّر، وقد قال ﷺ: «**أنا سيّد ولد آدم ولا فخر**»(١).

١٩- إعلان هؤلاء المستكبرين وتأكيدهم كفرهم بما آمن به المستضعفون بقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ إظهارًا لشدة مخالفتهم لهم، وتصلبهم في كفرهم بما أُرسل به صالح عليه السلام.

٢٠- جرأة قوم صالح عليه السلام على عقر الناقة، وتكذيبهم له، وعتوهم عن أمر ربهم، واستخفافهم بوعيده، واستعجالهم العذاب؛ جهلًا منهم وتحدّيًا وتعجيزًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢١- تعجيل العذاب لثمود بعد عقر الناقة؛ بأخذ الرجفة لهم وهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٢٢- تولي صالح- عليه السلام- وإعراضه عن قومه بعد هلاكهم، وخطابه تقريعًا لهم وإقسامه على أنه قد أبلغهم رسالة ربه ونصح لهم لكنهم لم يقبلوا نصحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٢٣- إعذار صالح- عليه السلام- من قومه غاية الإعذار في إبلاغهم رسالة ربه والنصح لهم؛ لقوله: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٢٤- حرص صالح- عليه السلام- وكذا غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، على هداية أقوامهم، وشفقتهم عليهم، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه.

و«لوط» هو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام.

قال ابن كثير: «وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام»(١).

وقومه: هم أهل «سدوم» وما حولها من القرى؛ بعثه الله إليهم في حياة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولم يكن لوط من نسبهم، وإنما كان نزيلًا فيهم؛ لأنهم كانوا من أهل فلسطين من الكنعانيين، وكان لوط عبرانيًّا، وإنما جُعل في سورة الشعراء «أخاهم» في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠- ١٦١]، وجُعلوا «إخوانه» في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣]؛ لأنه استوطن بلادهم وعاشر فيهم وحالفهم وظاهرهم، كما قال سحيم بن عبد بني الحسحاس:

أَخُوكُمْ وَمَوْلَى خَيْرِكُمْ وَحَلِيفُكُمْ ... وَمَنْ قَدْ ثَوَى فِيكُمْ وَعَاشَرَكُمْ دَهْرَا(٢)

وابتدأ قصة لوط عليه السلام بقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كما ابتدأ قصة نوح بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأنه ليس لقوم كل منهما اسم يعرفون به مثل: «عاد» و«ثمود» و«مدين» الذين افتتح قصصهم بقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، وبقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله:

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤١).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٩/ ٢٣٤).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ؛ كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤].

والفاحشة: الفعلة القبيحة الشنيعة المتناهية في الشناعة والقبح؛ وهي اللواط: إتيان الذكر الذكر في الدبر؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾، أي: إتيان الرجل رجلًا مثله ينكحه كما تُنكح الأنثى.

ولم تُذكر هذه الفاحشة لشناعتها وقبحها في القرآن إلا مُعرَّفة بـ«أل»، بينما ذُكر الزنا بأنه «فاحشة» بالتنكير، أي: أنه فاحشة من الفواحش.

قال ابن القيم: «ومن تأمل في قول الله تعالى في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]؛ تبيّن له تفاوُت ما بينهما، وأنه سبحانه نكّر الفاحشة في الزنا، أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرَّفها في اللواط، وذلك يُفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، أي: الخصلة التي استقرَّ فُحشُها عند كل أحد؛ فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها»(١).

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، «ما» نافية، أي: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة «اللواط»، ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكِّدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما سبقكم بفعلها أيُّ أحد من العالمين.

﴿مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، «من» تبعيضية، أي: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من بني آدم ولا غيرهم، أي: إنكم أول من فعل هذه الفاحشة، فلم يفعلها قبلكم أحد من العالمين، وكانت هذه الفعلة متأصِّلة فيهم من ذي قبل، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٨٧].

قال عمرو بن دينار: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط»(٢).

وقال الوليد بن عبدالملك: «لولا أن الله عز وجل قصَّ علينا خبر قوم لوط ما

---

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٠٥).

ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا»(١).

فاجتمع فيهم خصلتان من أعظم الخصال وأشنعها؛ الأولى: فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي هي أشنع الفواحش. والثانية: كونهم ابتدعوها وسنُّوها لمن بعدهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**من سنّ في الإسلام سنّةً سيّئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ**»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾:

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ تفسير وبيان للفاحشة التي أنكرها عليهم؛ كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

قرأ الكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بهمزة واحدة مكسورة؛ بصيغة الخبر، وقرأ الباقون: ﴿أَءِنَّكُمْ﴾ بهمزتين؛ على صيغة الاستفهام الإنكاري والتقريعي.

﴿لَتَأْتُونَ﴾ اللام للتأكيد؛ فالجملة مُؤكَّدة بـ«إن» واللام؛ تأكيدًا للإنكار عليهم.

والمعنى: إنكم لتأتون الرجال، أي: تنكحونهم في أدبارهم.

﴿شَهْوَةً﴾ مفعول لأجله، أي: شهوة منكم ورغبة فيما ينبغي أن يُكره ويستفظع؛ لما فيه من القذر والخبث ومخالفة الفطرة، أي: إن إتيانكم الرجال لمجرد الشهوة البهيمية، لا الحاجة التي مال لأجلها الذكر إلى الأنثى وشُرِع لأجلها النكاح؛ من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وتحصين الزوجين أنفسهما، وحصول المودة، وحصول النسل الذي به حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: وترغبون عن النساء اللاتي أباح الله لكم وطأهن

---

(١) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة، (٢٥٥٤)، وابن ماجه في المقدمة، (٢٠٣)؛ من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

بالزواج، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦].

وفي هذا زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس هذا قيدًا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل فظاعة، بل هو أشد.

والمعنى: مع وجود ما فيه الكفاية لكم من الحلال؛ ولهذا قال لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، وقال أيضًا: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

أي: هؤلاء النساء المؤمنات، انكحوهن بالحلال؛ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي من غرض الإنكار إلى غرض الذم لهم بأنهم قوم مسرفون، أي: متجاوزون الحد في فعل الفاحشة واستحلالها، والعدوان، والكفر، والفسق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وقد بدأت قصة لوط عليه السلام بذكر إنكاره على قومه هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

وسبب ذلك- والله أعلم-: شدة شناعة هذه الفاحشة، وشذوذها، وخطورتها على النوع الإنساني.

وذلك لا ينفي أن يكون لوط عليه السلام دعاهم إلى التوحيد؛ كما هو منهج الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد حكى الله عز وجل قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء بما يدلُّ على هذا؛ فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠- ١٦٤]، ثم قال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وأيضًا فإن لوطًا عليه السلام كان معاصرًا لإبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء، وكانت دعوة إبراهيم بالتوحيد قد ظهرت كل الظهور في أرضه وأرض لوط عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، أي: وما كان جواب قومه لإنكاره عليهم فعل هذه الفاحشة الشنيعة وتقريعهم وتوبيخهم عليها وذمه لهم بكونهم قومًا مسرفين.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر «كان»، أي: وما كان جواب قومه له لما أنكر عليهم هذه الفاحشة إلا قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾.

و«جواب» خبر «كان» قُدِّم على اسمها الواقع بعد أداة الاستثناء المفرغ.

والمعنى: وما كان جواب قومه إلا أن قال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، أي: أخرجوا آل لوط، وهم لوط وأهله، ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، أي: من بلدكم ومن بين أظهركم، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، «إنَّ» تعليلية، أي: لأنهم أناس يتطهرون، أي: يتكلَّفون الطهارة، أي: يتطهرون ويتنزهون عن الفاحشة ومن أدبار الرجال والنساء.

قال قتادة: «عابوهم بغير عيب، وذمُّوهم بغير ذمٍّ»(١).

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١/ ٣٠٧).

وذلك لأن الطهارة تزكية النفس وحملها على فعل الفضائل وإبعادها عن الرذائل، وهي صفة مدح وكمال، لكن قوم لوط لما انتكست فطرهم صاروا يرون الحق باطلًا والباطل حقًّا.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

قال الشاعر:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ(١)

وقد أحسن القائل:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي(٢)

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الآية: ٥٧].

وذلك بعد أن سأل ربه النجاة من عملهم، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٩- ١٧١].

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، أي: فأنجينا لوطًا عليه السلام وأهله لما تمادى قومه في كفرهم وغيِّهم وارتكابهم الفواحش، وسأل لوط عليه السلام ربه النجاة من عملهم؛ فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

أي: وأنجيناه، أي: وخلَّصناه، وأهله، أي: هو وبناته؛ لأنه لم يؤمن به من قومه أحد؛ لا رجل ولا امرأة، حتى ولا امرأته، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠- ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

---

(١) انظر: «الدر المصون» (٩/ ٤٥٨)، والبيت بلا نسبة.

(٢) البيت يُنسب للشافعي. انظر: «تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٩٥).

وكان ذلك آخر الليل وقت السحر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾، «إلا» حرف استثناء، «امرأة» منصوب على الاستثناء، والضمير مضاف إليه.

﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: الهالكين الباقين في العذاب؛ لأنها لم تؤمن، بل كانت على دين قومها؛ تمالئهم عليه، وتعلمهم بقدوم أضيافه؛ لخبثها وكفرها وخيانتها، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؛ ولهذا أصابها ما أصابهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١].

قال ابن كثير(١): «ولهذا لما أُمِر لوط عليه السلام بأن يسري بأهله؛ أُمر ألا يُعلم امرأته ولا يُخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾».

وقدم الخبر بإنجاء لوط وأهله على إهلاك قومه؛ للاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام وأهله، وتقديمًا لذكر حسن عواقب الرسل وأتباعهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾، «أمطر» غالبًا ما يكون في العذاب، ولهذا وصفه الله في آيات أخرى بقوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨]، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

وأما «مَطَرَ» فغالبًا ما يكون للرحمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٤٢.

مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقد يأتي للعذاب؛ كما في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

ونكَّر «مطرًا» للتعظيم، أي: وأمطرنا عليهم مطرًا من حجارة من سجِّيل منضود مسوَّمة شديدة الحرارة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣- ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤].

فوصف الله عز وجل عذابهم بأنه أمطر عليهم حجارة من سجيل، وأخذتهم الصيحة، وجعل عالي ديارهم سافلها، وأُرسل عليهم حاصبًا.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح خطابه.

والأمر للإرشاد والاعتبار، أي: فانظر وتأمل واعتبر: كيف كانت عاقبة المجرمين بالكفر وفعل الفاحشة الشنيعة وارتكاب محارم الله تعالى؟ أي: انظر ببصرك في ديارهم وآثارهم، وتأمل بفكرك وعقلك في أحوالهم وكيف كانت نهايتهم الهلاك والدمار والخزي والبوار وخراب الدار.

وفي هذا تحذير من الكفر، والتكذيب، وفعل الفواحش، والإجرام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

٢- إنكار لوط عليه السلام على قومه إتيان الفاحشة الشنيعة القبيحة «اللواط»، وهي: إتيان الرجال في أدبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٣- أنه لم يسبق قوم لوط عليه السلام في فعل هذه الفاحشة الشنيعة أحد من العالمين، بل هم أوَّل من ابتدعها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعليهم وزر فعلهم لها، ووزر ابتداعها.

٤- انتكاس فطرة قوم لوط؛ حيث يأتون الرجال في أدبارهم شهوة ورغبة في هذه الفعلة الشنيعة وفي الحرام، ويرغبون عن الزواج بالنساء ووطئهن بالحلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهكذا من سلك مسلكهم فإنه يعاقب بالرغبة في الحرام والرغبة عن الحلال. نسأل الله العافية.

٥- بلوغ قوم لوط عليه السلام الغاية في الإسراف في ارتكابهم لهذه الفاحشة الشنيعة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

٦- تمادي قوم لوط عليه السلام في غيهم وإسرافهم وتمالئهم على إخراجه وأهله من بين أظهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

وهكذا يفعل أهل الباطل من أعداء الرسل وأتباعهم؛ يهددون من دعاهم إلى الله بالإخراج والنفي، أو القتل أو الحبس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

مما يوجب على الدعاة إلى الله الصبر والاحتساب؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي الحديث: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٤٥٥٩)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد أحسن القائل:

وَدَرْبُ الصَّاعِدِينَ كَمَا عَلِمْتُمْ ... بِهِ الأَشْوَاكُ تَكْثُرُ لَا الوُرُودُ

٧- أن قوم لوط عليه السلام لم ينقموا منه وأهله إلا كونهم يتطهرون من هذه الفاحشة وغيرها من المحارم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهكذا أهل الباطل لا ينقمون من أهل الحق إلا أنهم على الحق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

٨- إنجاء الله عز وجل للوط عليه السلام وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾.

٩- هلاك امرأة لوط عليه السلام مع قومها؛ لخبثها، وخيانتها للوط، وكفرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

١٠- أنه لا ينجي من عذاب الله تعالى حسب ولا نسب؛ فلم يغن عن امرأة لوط عليه السلام أو يدفع عنها عذاب الله تعالى لما كفرت وخانت، كونها تحت لوط عليه السلام؛ كما لم يغن نوح عليه السلام عن ابنه وامرأته شيئًا، ولم يغن إبراهيم عليه السلام عن أبيه شيئًا، ولم يغن محمد ﷺ عن عمه شيئًا.

١١- إهلاك قوم لوط عليه السلام بإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

١٢- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وقلوب المؤمنين بذكر إنجاء الله تعالى للوط وأهله، وإهلاك قومه المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

١٣- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بقوم لوط عليه السلام، والتحذير من مسلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، ولقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣].

١٤- عظم فاحشة اللواط وشناعتها؛ لهذا أطلق عليها القرآن الكريم «الفاحشة» بالتعريف، وعاقب عز وجل قوم لوط بسبب هذه الفاحشة أعظم العقوبات؛ فجعل

عالي ديارهم سافلها؛ لأنهم عكسوا الفطرة التي فطر الله الرجال عليها، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وأمطرهم حجارة من سجيل منضود، وحكم عليهم بالإسراف، وذمهم بأقبح الصفات في آيات عدة؛ فوصفهم بعمل الخبائث، والفاسقين، والمفسدين، والظالمين؛ وذلك لشناعة هذه الفاحشة وخطورتها؛ لما فيها من انتكاس الفطرة، والعدول عما أحله الله إلى ما حرّمه، ومنافاة الحِكَم التي من أجلها شرع النكاح؛ من تكثير النسل، وعمارة الكون، وغير ذلك.

ولهذا جاء في الحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوطٍ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١).

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على قتل اللوطي؛ لكنهم اختلفوا وغيرهم من أهل العلم بعدهم في كيفية قتله؛ فمنهم من قال: يحرق بالنار.

ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق.

ومنهم من قال: يرجم كما يُرجم الزاني المحصن.

ومنهم من قال: يُقتل بالسيف.

كما أجمع العلماء على حرمة إتيان النساء في أدبارهن، وسمّاه بعضهم: اللوطية الصغرى.

وإنما كان اللواط أشد فحشًا وأعظم جرمًا وأشد عقوبة من الزنا؛ لأن إتيان الذكر للذكر لا يحل بحال من الأحوال، بخلاف إتيان الذكر للأنثى فهو يحل بطريق الزواج الشرعي وطريق الملك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥- ٧، المعارج: ٢٩- ٣١]، وأيضًا فإن اللواط يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر، بخلاف ما إذا وجد رجل وامرأة فإن ذلك يستنكر ما لم تكن من محارمه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٦٢)، والترمذي في الحدود (١٤٥٦) وقال: «حديث حسن». وابن ماجه في الحدود (٢٥٦١)، والحاكم في (المستدرك) (٤م٣٥٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ٣٠٠)، وقال ابن القيم في (زاد المعاد) (٥/ ٤٠٤١): «إسناده صحيح».

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل قصة لوط وقومه؛ أتبع ذلك بذكر قصة مدين ونبيهم شعيب عليه السلام؛ لأنهم جاؤوا بعد لوط وقومه.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤- ٨٥]

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين؛ وهم قبيلة من سلالة مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، من العرب العاربة.

وتُطلق «مدين» على القبيلة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]؛ كما تُطلق على قريتهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥].

و«مدين» ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، أو للعلمية والعُجمة.

وتسمى بلادهم: «الأيكة»، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحجر: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ وهي بين الحجاز ومعان من بلاد الشام حول تبوك، ولهذا يقال: إن الأيكة هي تبوك.

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول لـ«أرسلنا» لفعل محذوف تقديره: أرسلنا.

و﴿شُعَيْبًا﴾ بدل من ﴿أَخَاهُمْ﴾، أي: أخاهم في النسب؛ لأنه منهم، فـ«مدين» جده الرابع؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

وخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ كما خاطب قومه بذلك كل من هود وصالح عليهما السلام.

و«شعيب» عربي فصيح، ولهذا يُقال له: «خطيب الأنبياء»؛ لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، أي: فناداهم بهذه المقالة؛ كما فعل نوح وهود وصالح عليهم السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما يُشركون به من الآلهة.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا كقول صالح عليه السلام لقومه:

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقول شعيب عليه السلام: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ محمول على ما أقامه عليهم من حجة على وجوب عبادة الله تعالى وحده، أي: قد جاءتكم آية واضحة من ربكم على وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأنه لا إله لكم غيره، ولا رب سواه، وبينة على صدقي فيما دعوتكم إليه من توحيد الله والإيمان به.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ مصدر، ويطلق على ما يُكال به، وهو المكيال؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، وهو المراد هنا؛ لمقابلته بالميزان، ولقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

والمعنى: فأتموا المكيال والميزان، أي: فأتمُّوا الكيل والوزن.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، «البخس»: النقص، ويكون في نقص وتطفيف الميكال والميزان خفية وتدليسًا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١٣].

ويكون في بخس ونقص المعدود وقيم الأشياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه بثمن قليل زهيد ناقص.

قال الشاعر:

أَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ العِرَاقِ إِتَاوَةٌ ... وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ؟(١)

يُقال: بخسه حقه، أي: نقصه حقه وظلمه.

والبخس والنقص كما يكون في الأشياء الحسية من الكيل والوزن والعدد؛ يكون في الأشياء المعنوية كالاحتقار وعدم الإنصاف؛ وهذا أعظم.

و«أشياء» تعم كل شيء، قليل أو كثير، أو جليل أو حقير، أي: ولا تنقصوا الناس

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وقيل: لجابر بن حيي التغلبي. انظر: «شواهد الكشاف» (ص١١٦)، «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٢٥٥).

أشياءهم، أي: حقوقهم؛ سواء كانت مما يُكال أو يُوزن أو غير ذلك، أي: أعطوا الناس حقوقهم أيًّا كانت.

وقد توعَّد عز وجل المطففين بأشد العذاب؛ فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد في التطفيف والبخس الحسي؛ فالبخس المعنوي أشد وأعظم؛ لما فيه من الاستكبار وعدم الإنصاف؛ ولهذا قال ﷺ: «**الكِبر: بَطَر الحقِّ وغمطُ النّاس**»(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، أي: ولا تُفسدوا في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، بعد إصلاحها على يد الرسل وأتباعهم الصالحين بإقامة الشرع والعدل.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ يدل على أن الإفساد بعد الإصلاح أشد وأعظم مما كان قبل الإصلاح.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآية، أي: ذلك المذكور- وهو ما أُمرتم به من عبادة الله تعالى وحده، وإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، أي: امتثال ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه- ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأُخراكم، أي: به صلاح أمر دينكم ودنياكم وأُخراكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مصدِّقين بالله وحده وما جئتكم به، ممتثلين لذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾:

أمرهم فيما سبق بتوحيد الله، والوفاء بالكيل والوزن، ونهاهم عن بخس الناس حقوقهم، وعن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، هذا في ذات أنفسهم، ثم نهاهم عن صد غيرهم عن ذلك.

قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ معطوف على ما قبله. و«القعود»: الجلوس.

﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، «الصراط»: الطريق، أي: ولا تجلسوا بكل طريق في الأرض.

﴿تُوعِدُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: تتوعدون من يؤمن وتهددونه بالقتل وأنواع الأذى بالبدن أو المال أو العرض.

و«التوعد» الوعيد بالشر؛ قال الشاعر:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي ... وَيَأْمَنُ مِنِّي صَوْلَةَ المُتَعَمِّدِ
وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدتُّهُ أَوْ وَعَدتُّهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(١)

وقد يُحمل «القعود» على القعود المعنوي، وهو: التصدي والمخالفة لكل ما جاء به شعيب عليه السلام، والطعن فيه.

ويُحمل «الصراط» على الصراط والطريق المعنوي، وهو ما جاء به شعيب عليه السلام من الدعوة إلى توحيد الله والشرائع والأحكام.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ فهو نهي عن قطع الطريق الحسِّي، وعن قطع الطريق المعنوي.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ معطوف على ﴿تُوعِدُونَ﴾، أي: وتصرفون عن طريق الله تعالى ودينه وعن اتِّباعه، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ مفعول ﴿وَتَصُدُّونَ﴾.

يحتمل أن يكون هذا من عطف العلة على المعلول، أي: ولا تقعدوا بكل طريق تتوعدون؛ لتصدوا عن سبيل الله من آمن به.

(١) البيتان لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: وعد).

ويُحتمل أن يكون المعنى: توعدون المؤمنين، وتصدون عن سبيل الله من أراد الإيمان أو آمن حديثًا، أو توعدون الناس عمومًا، وتصدون عن سبيل الله من آمن.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، «العِوَج» بكسر العين: عدم الاستقامة في المعاني. و«العَوَج» بفتح العين: عدم استقامة الذات.

والمعنى: وتبغون لسبيل الله عوجًا، أي: تطلبون وتودون وتريدون لها عوجًا، أي: ميلًا عن سبيل القصد والحق تبعًا لأهوائكم. وقد كانوا يزعمون أن ما يدعو إليه شعيب عليه السلام باطل وضلال.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: واذكروا نعمة الله عليكم بقلوبكم وألسنتكم، واشكروها بجوارحكم.

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: وقت كنتم قليلًا عددكم.

﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: فكثَّر عددكم ونمّاكم بما أنعم به عليكم من نعمة الزوجات والنسل، والأرزاق والصحة، والسلامة من أسباب الهلاك والافتراق.

والناس منذ القدم يعتزُّن بالكثرة ويتغنون بها، كما قال الشاعر:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ[1]

ولهذا يقولون: «الكثرة تغلب الشجاعة».

وقد قابل قوم شعيب عليه السلام نعمة الله عليهم بتكثيرهم بكفرانها؛ بسعيهم جاهدين إلى تقليل حزب الله والمؤمنين به.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

أي: وانظروا بأبصاركم، وتأمَّلوا ببصائركم؛ كيف كانت نهاية المفسدين بالشرك بالله، وتكذيب رسله، ومخالفة شرعه، وصدِّ الناس عن دينه، وما حل بهم من العذاب والنكال والعقوبات والمَثُلات، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وصارت حالهم كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾:

قوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ وهم القلة من قومه عليه السلام، وقدَّم ذكرهم اهتمامًا بهم.

﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾، أي: لم يؤمنوا بما أُرسلت به فكذَّبوه وأنكروا رسالته؛ وهم الأكثرون من قومه.

﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَا﴾، أي: إن كنتم اختلفتم عليَّ؛ بين مؤمن بما أُرسلت به وكافر بذلك، فانتظروا إلى غاية أن يحكم الله بيننا حكمًا كونيًّا، أي: يفصل بيننا بإظهار المُحِقِّ منا ونصره، وعقوبة المُبطل وخذلانه، وبهذا يظهر لكم صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربي.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أي: وهو خير من يفصل، وأعدل من يقضي في أحكامه الكونية، وفي أحكامه الشرعية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، أي: سادتهم وكبراؤهم وأشرافهم الذين استكبروا عن قبول دعوته، واغتروا بقوَّتهم وجبروتهم، وحملهم ذلك على الكفر، كما قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٩٠].

﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدَّر، أي: والله لنخرجنّك يا شُعيب والذين آمنوا معك من قريتنا.

وهكذا لجؤوا مباشرة إلى لغة التهديد والوعيد بالإخراج؛ لغة العاجز عن المقارعة بالحجة، وأقسموا على ذلك اغترارًا منهم بقوتهم، وذلك خشية منهم لظهور دعوته وكثرة أتباعه وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولشدة استكبارهم وجبروتهم واغترارهم بقوتهم أكَّدوا هذا الوعيد بالقسم ونون التوكيد؛ إخافة لشعيب عليه السلام ومن آمن معه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾، أي: ولنخرجن الذين آمنوا معك وصدَّقوك وآمنوا بك.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾، أي: من بلدنا ومدينتنا، والمراد بها: «الأيكة»، ويُقال: هي المعروفة الآن بـ«تبوك».

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، «أو» للتخيير، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: أو والله لتعودن في ملتنا، أي: لترجعُنَّ ولتصيرُنَّ إلى ديننا، أي: إلى الكفر.

وقد جعلوا شعيبًا والمؤمنين معه بين أمرين أحلاهما مُرٌّ: إخراجهم من بلادهم، أو إعادتهم إلى ملتهم.

وأكَّدوا كلًّا منهما بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد؛ في إشارة منهم إلى إجبارهم بالقوة إلى العودة إلى ملتهم أو إخراجهم بالقوة، أي: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا، أو لنخرجنكم من قريتنا، وقدَّموا الإخراج مبالغة منهم في التهديد والوعيد له ولأتباعه عليه السلام.

والخطاب في قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لشعيب عليه السلام ولمن آمن به من قومهم الذين قد يكونون معهم سابقًا على الضلال، لكن لا يلزم من هذا أن يكون شعيب عليه السلام كان على دينهم؛ لأن الأنبياء عليهم السلام يصطفيهم الله من خيار الناس الذين لم يُشاركوا أقوامهم فيما هم عليه من الشرك والضلال، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، ومقول القول محذوف؛ والتقدير: قال: أنعود فيها ولو كنا كارهين؟ أو أتُعيدوننا فيها ولو كنا كارهين؟ والواو للحال.

وجُملة: ﴿كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾: حال من الضمير في الفعل المقدّر «نعود».

قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾، ﴿قَدِ﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾ اختلقنا.

﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «كذبا» مفعول مطلق مؤكِّد لـ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾، أي: قد اختلقنا على الله كذبًا وباطلًا وأعظمنا الفرية على الله تعالى.

وهو خبر فيه معنى التعجب، أي: ما أكذبنا على الله إن عُدنا في ملتكم! وقيل: جواب قسم محذوف، أي: والله قد افترينا.

﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، أي: إن رجعنا وصرنا إلى دينكم بالكفر والشرك بالله، وتكذيب ما جاءنا من بينة على وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له واتباع شرعه.

﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، أي: بعد أن أنقذنا الله وخلَّصنا منها، أي: بعد أن هدانا للدين الحق وخلَّصنا من الكفر.

قال السعدي: «أي: اشهدوا علينا أننا إن عُدنا إليها بعدما نجّانا الله منها وأنقذنا من شرها؛ أننا كاذبون مفترون على الله الكذب؛ فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكًا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك»[1].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، أي: يمتنع أن نعود فيها؛ لأنها باطل محض، فيكف نعود إلى الباطل ونترك ما نحن عليه من الحق؟ هذا لا يمكن أن يكون.

وهذا كما قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**ثلاثٌ من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النّار**»[2].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، «إلا» حرف استثناء.

﴿أَن يَشَآءَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء من عموم الأحوال، أي: وما يكون لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذلك، أي: إلا أن يكون قد سبق في علم الله أنا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذٍ قضاء الله، وتنفذ فينا مشيئته.

وفي هذا تمام الأدب مع الله تعالى، والتفويض لمشيئته، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩].

وكان نبينا ﷺ يُكثر من قوله: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**».

وعن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء**»(١).

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، «وهذا يُبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى: الأمر؛ فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء»(٢).

قال ابن القيم: «فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه علمًا مُحيطًا، ومشيئة نافذة، وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا؛ فلذلك رد الأمر إليه»(٢).

وفي إعادة وصف الربوبية إظهار في مقام الإضمار؛ تعظيمًا لربوبية الله عز وجل، وتأكيدًا لتفويض الأمر إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن».
(٢) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦١).

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أي: علم ربنا كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء؛ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومشيئته عز وجل تبع لعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قدَّم قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على الفعل: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ لإفادة الاختصاص تحقيقًا لمعنى التوحيد، أي: على الله تعالى وحده اعتمدنا في أمور ديننا ودنيانا وكفايتنا أمر أعدائنا؛ فهو سبحانه الكافي لمن توكَّل عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: احكم وافصل بيننا وبين قومنا ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بحكمك الحق؛ ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والمُحق من المُبطل، ونصر المؤمنين وإنجائهم، وخذلان الكافرين وإهلاكهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول: تعال أُفاتحك، أي: أُقاضيك»(١).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، أي: وأنت خير الحاكمين؛ كقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠)﴾:

بعد أن هددوا شعيبًا وأتباعه بالإخراج إن لم يعودوا إلى ملتهم؛ أخذوا يخوِّفون من اتَّبعه بالخسران.

قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾، أي: قالوا لعامة قومهم الباقين على الكفر؛ تحذيرًا لهم وخشية عليهم من تصديق شعيب عليه السلام واتباعه، لما رأوا من وضوح حجته وعجزهم عن إبطالها، ووصفهم أولًا بالاستكبار، ثم وصفهم هنا بالكفر؛ لأنه نتيجة الاستكبار.

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٢٣).

﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن اتبعتم شعيبًا فيما يدعو إليه.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ جواب القسم، و﴿إِذًا﴾ تفيد التوكيد، واللام في قوله: ﴿لَخَاسِرُونَ﴾ تفيد ربط الجواب بالقسم.

و«الخسران»: حصول الضرر من حيث أريد النفع، وهو ضد الربح.

فأقسموا لشدة كفرهم وعتوهم ومخالفتهم على خسارة من اتبع شعيبًا عليه السلام.

وهذا ما سولت لهم أنفسهم، وهدتهم إليه عقولهم القاصرة؛ بأن الخسارة في ترك ما هم عليه من الضلال واتباع ما جاء على لسان شعيب عليه السلام من الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في رد الحق ولزوم ما هم عليه من الضلال، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾:

تقدم تفسير نظير هذه الآية في قصة ثمود، أي: فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم جاثمين على ركبهم هالكين هامدين.

وقد ذكر الله عز وجل هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وهي: الزلزلة الشديدة، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]؛ فأطلق على عذابهم الصيحة، وجمع «ديارهم».

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن كثير: «وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]؛ فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وهي: سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم؛ فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد؛ فأصبحوا في دارهم جاثمين»(١).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]:

قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ ذكر هذا- والله أعلم- لزيادة التنديد بهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: كأنهم بعد أخذ الرجفة لهم واستئصالهم وانمحاء آثارهم، ﴿لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

ومعنى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: كأنهم لم تسبق لهم حياة، ولم يعيشوا ويقيموا في مرابع تلك الديار، ولم يتمتعوا في عرصاتها، ولم يتغنوا في مسارح أنهارها، ولم يتفيؤوا ظلال أشجارها، ولم يتنعموا بما فيها من الخيرات والثمار.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا في مقابل قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ونقض له.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مستأنفة للتوكيد، وللتعريض بمشركي العرب؛ ليتقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب؛ كما صرَّح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ضمير الفصل «هم» لإفادة القصر، وهو قصر إضافي، أي: كانوا هم الخاسرين دون الذين اتبعوا شعيبًا.

وفي هذا إظهار سفه قول الملأ منهم لعامتهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، قال عز وجل: الذين كذبوا شعيبًا هم الخاسرون حقًّا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٥).

ﵟٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُﵞ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾، أي: فأعرض عنهم بقلبه وقالبه، بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال.

﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾، أي: وقال مناديًا لهم نداء إعذار وتقريع وتوبيخ: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾، أي: والله لقد أوصلت إليكم رسالات ربي وأبلغتكم إياها أتمَّ البلاغ، ونصحت لكم بما ينفعكم، ونهيتكم عمَّا يضرُّكم.

وهكذا فعل نبينا ﷺ يوم بدر حين وقف على أهل القليب وناداهم بأسمائهم، ثم قال: «**لقد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟**»(١).

﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ استفهام إنكاري ونفي، أي: فلا يمكن أن آسى.

و«الأسى»: شدة الحزن، أي: كيف أحزن وأتحسر وأتوجَّع ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾؟ أي: على قوم جاحدين لوحدانية الله تعالى، مكذبين لرسله.

أبلغتكم رسالات ربي فكذَّبتموني، ونصحت لكم فلم تقبلوا نصحي، وجاءكم الخبر فرددتموه؛ فمثلكم لا يستحقون أن يُحزن عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وأظهر في مقام الإضمار بقوله: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فلم يقُل: «عليكم»؛ ليتأتى وصفهم بالكفر، وزيادة في تعزية نفسه وترك الحزن عليهم، وليعمهم هذا الحكم ويعم غيرهم من الكافرين.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى قومه مدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- أن شعيبًا عليه السلام من قبيلة مدين، ومن أشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾، ولخطابه عليه السلام لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٣- اجتماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك؛ لقول شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، كما قال ذلك نوح وهود وصالح وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٤- أنه لا معبود بحق سوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

٥- إقامة شعيب عليه السلام الحجة على قومه بوجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٧- دعوة شعيب عليه السلام قومه، وأمره لهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيهم عن بخس الناس أشياءهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، وفي هذا وما قبله دلالة على أنهم كانوا على الشرك، ولا يفون بالكيل والوزن، ويبخسون الناس أشياءهم.

٨- وجوب إيفاء الكيل والوزن، وتحريم بخس الناس حقوقهم المادية والمعنوية، وهذا مما لا تختلف فيه الشرائع؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

٩- أن الشرك بالله، وارتكاب المعاصي؛ من نقص الكيل والوزن وبخس الناس حقوقهم، ونحو ذلك؛ من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، وهذا أيضًا منهي عنه في جميع الشرائع.

١٠- أن صلاح الأرض حقًّا يكون بعبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك، وإقامة

شرع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

١١- أن الخير كل الخير في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإقامة شرع الله؛ من الوفاء في الكيل والوزن، وإعطاء الناس حقوقهم، وترك الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١٢ أن من شرط الإيمان تصديق رسل الله وطاعتهم فيما يأمرون به من عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٣- نهي شعيب عليه السلام، وتحذيره لقومه من محاربة دعوته عليه السلام بالترصُّد في طرقات الناس، وتوعُّدهم بالقتل وأنواع الأذى، والصد عن سبيل الله من آمن به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾.

١٤- دأب المكذبين من قوم شعيب عليه السلام- كما هي حال المكذبين- على الكيد له ولدعوته، وصد الناس عن سبيل الله بشتى الوسائل من الوعيد والتهديد، وابتغاء العوج والنقص لها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

١٥- تذكير شعيب عليه السلام لهم بنعمة الله تعالى عليهم إذ كثَّرهم بعد القلة؛ بما أنعم عليهم من نعمة الأزواج والنسل، والصحة والأرزاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

١٦- أن الكثرة في العدد منة ونعمة؛ لأنها من أسباب القوة والتمكين؛ لهذا ذكَّر شعيب عليه السلام قومه بهذه النعمة.

١٧- وجوب النظر والتأمل في عواقب المفسدين؛ لأخذ العظة والعبرة مما حل بهم، والحذر من مسالكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٨- انقسام قوم شعيب عليه السلام بين مؤمن بما أُرسل به؛ وهم الأقلون، وإلى كافر بذلك؛ وهم الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾.

١٩- تنزُّل شعيب عليه السلام في الخطاب مع قومه، وبخاصَّة من لم يؤمنوا برسالته؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ فلم يتوعَّدهم أو يهددهم صراحة بسوء العاقبة؛ مع علمه بمآلهم إلى ذلك.

٢٠- الوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ والمقصود: حتى يفصل الله بيننا بنصر أوليائه، وخذلان أعدائه.

٢١- أن لله تعالى وحده الحكم الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ كما أن له وحده الحكم الشرعي.

٢٢- ينبغي للمؤمن الصبر، وتسليم أمره لله عز وجل، والتفويض لحكمه وقضائه بعد فعل الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

٢٣- أن الله عز وجل هو خير الحاكمين وأعدلهم، وحكمه أعدل الأحكام وأحسنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٢٤- تهديد المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام له وللذين آمنوا معه بإخراجهم من بين أظهرهم إن لم يعودوا في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وهكذا شأن المستكبرين في كل زمان ومكان مع الرسل ودعاة الحق؛ إذا لم يستطيعوا المقابلة بالحجة لجؤوا إلى التهديد بالقوة؛ أسلوب العاجز المنهزم.

٢٥- إنكار شعيب عليه السلام وتعجُّبه من لجوء المستكبرين من قومه إلى محاولة إعادتهم إلى دينهم ولو بطريق الإكراه؛ بقوله عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

٢٦- تصميم شعيب عليه السلام ومن معه على عدم العود إلى ملة الكفر، وبيان أن عودهم إلى ذلك يعني الافتراء على الله كذبًا بالشرك به وجحد الرسالة؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾.

٢٧- إظهار شعيب عليه السلام والمؤمنين معه الامتنان والشكر لله على إنجائهم من ملة الكافرين؛ لقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾.

٢٨- نفي شعيب عليه السلام إمكانية عودهم إلى الكفر، وبيان استحالة ذلك؛ تأكيدًا لعزمهم وتصميمهم على التمسك بدينهم، وتيئيسًا للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾.

٢٩- أدب شعيب عليه السلام مع الله عز وجل واستثناؤه بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي: إلا أن يكون سبق ذلك في علم الله وتقديره ومشيئته.

٣٠- إثبات سعة علم الله عز وجل لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا﴾، ﴿رَبِّى﴾.

٣٢- إعلان شعيب عليه السلام والمؤمنين معه اعتمادهم على الله تعالى وحده، وتفويض أمورهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وهكذا يجب على كل مؤمن.

٣٣- دعاء شعيب عليه السلام والمؤمنين معه وتضرعهم إلى ربهم الذي بيده التدبير؛ أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بنصر أوليائه، وخذلان أعدائه؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٣٤- ثناء شعيب عليه السلام على ربه، وتعظيمه له؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

٣٥- تخويف الملأ الذين كفروا من قوم شعيب عليه السلام لعامة قومه من الخسران باتباعهم لشعيب، وتحذيرهم من ذلك وتزهيدهم في الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، وهكذا يفعل دعاة الضلال في كل عصر ومصر، مما يوجب الحذر منهم.

٣٦- عقوبة المكذبين من قوم شعيب عليه السلام بأخذهم بالرجفة وإهلاكهم؛

لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

٣٧- التنديد بالذين كذبوا شعيبًا عليه السلام، وكونهم كأنهم لم يعيشوا على وجه الأرض ولم يتنعموا بخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾.

٣٨- بيان أن الذين كذَّبوا شعيبًا هم الخاسرون حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٣٩- تولي شعيب عليه السلام وإعراضه عن قومه بعدما حل بهم العذاب، ومخاطبته لهم خطاب من أنذر فأعذر غير آس على هلاكهم لكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

٤٠- أن غاية ما يملكه الرسل عليهم الصلاة والسلام هو إبلاغ رسالات الله والنصح لأممهم، وما سوى ذلك من الهداية أو الإضلال والثواب والعقاب فأمره إلى الله تعالى، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تعالى بعد الرسل.

٤١- لا ينبغي الحزن والأسى على هلاك الكفرة والمجرمين والمكذبين والظالمين، بل ينبغي أن يحمد الله ويشكر، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ﴾:

ذكر الله عز وجل فيما سبق قصة عدد من الرسل، وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وما جرى بينهم وبين أممهم، وإنجاءهم ومن آمن معهم، وإهلاك المكذبين من أقوامهم، ثم أتبع ذلك بيان أن هذه سنته في المكذبين لرسله؛ تحذيرًا وإنذارًا للمكذبين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، و«قرية» نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل قرية أُرسل إليها نبي.

و«من» في قوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكِّدة من حيث المعنى للعموم، أي: وما أرسلنا في قرية من القرى أيَّ نبيٍ من الأنبياء؛ لدعوتهم وإنذارهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، و﴿أَخَذۡنَآ ﴾ في محل نصب على الحال، أي: إلا قد أخذنا أهلها.

والمعنى: وما أرسلنا في قرية من القرى نبيًّا من الأنبياء؛ فكذَّبه أهلها إلا أخذناهم، أي: إلا ابتليناهم وعاقبناهم ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾

و«البأساء»: البؤس، وشدة الفقر والحاجة، وضيق الحال.

و«الضراء»: الضر والمرض، وأنواع المصائب والبلايا في الأنفس.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، «لعل» للتعليل، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾، أصلها: «يتضرعون»؛ فأُدغمت التاء في الضاد، أي: لعلهم يتذللون ويستكينون، أي: ليتذللوا لله ويدعوه لكشف ما نزل بهم ويستكينوا للحق، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ولكنهم لم يفعلوا.

وهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ثم لما لم يتضرَّعوا عوَّضنا وأحللنا ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: مكان البأساء والضراء، والحالة السيئة، ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾، أي: الحالة الحسنة؛ حالة الرخاء والسراء؛ ليعرفوا قدر نعمة الله تعالى عليهم، والنعمة إنما يَعرِف قدرَها مع توفيق الله من ابْتُلِيَ بضدها.

وقد قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى. **وبضدّها تتميّز الأشياءُ.**

فابتلاهم عز وجل أولًا بما يسوؤهم، فلما لم يتضرَّعوا ولم ينجع بهم ذلك، ابتلاهم بضده، أي: بما يسرّهم ويستحسنونه، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وكما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنّعمِ[(١)]

﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، أي: حتى كثُروا وكثُرت أموالهم وأولادهم ونسوا ما مر عليهم من الشدة والضراء، كما قال شعيب عليه السلام مذكِّرًا قومه بنعمة الله تعالى عليهم بتكثيرهم بعد القلة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: لم ينجع فيهم ابتلاؤنا لهم بالبأساء

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣١).

والضراء فيتضرَّعوا، ولم ينجع فيهم ابتلاؤنا لهم بالرخاء والسرَّاء فيشكروا، أي: لم ينجع فيهم لا هذا ولا هذا، بل قالوا بلسان الحال والمقال فيما بينهم وفي مجادلتهم لرسلهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: قد أصاب آباءنا قبلنا الشدة والرخاء؛ فالذي أصابنا مثل الذي أصابهم، أي: إنه أمر عادي، والدهر تارات وتارات.

وقد نسوا أن الذي أصابهم ابتلاء من الله تعالى لهم في الحالين، وتنبيه وتذكير لهم؛ للنظر والاستدلال بعقولهم بالمسببات على الأسباب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وذلك ليتضرّعوا إليه عز وجل في حال الشدة والضّرّاء، ويشكروه في حال الرخاء والسّرّاء، كما قال ﷺ في صفة المؤمن: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إنّ أمره كلّه خيرٌ، وليس ذلك إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحبّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السّخط**»(٢).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(٣).

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، أي: فأخذناهم بالعقاب والعذاب، أو فعاقبناهم وأهلكناهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: فكلًّا عاقبنا وأهلكنا بسبب ذنبه.

﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة وعلى غِرَّة، ومن حيث لا يخطر لهم الهلاك على بال.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مؤكِّدة لمعنى ﴿بَغْتَةً﴾، أي: من غير شعور منهم ولا علم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وفي الحديث: «**مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)؛ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في عيادة المرضى (٥٦٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤، ٤/ ٢١٩)؛ من حديث عبيد بن خالد السلمي رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في الجنائز، موت الفجأة (٣١١٠) مختصرا بلفظ: «**موت الفجأة أخذة للكافر**».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

ذكر عز وجل ابتلاء أهل القرى بالبأساء والضراء؛ والرخاء والسراء؛ تذكيرًا وموعظة لهم؛ ليتضرّعوا ويشكروا، وإهلاكهم لما لم ينجع ذلك فيهم عدلًا منه عز وجل، ثم ذكر أنهم لو آمنوا واتقوا لأغدق عليهم الخير فضلًا منه سبحانه. وفي هذا إنذار للمكذبين للنبي ﷺ، وبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾، الواو عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة.

﴿أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ الذين أرسل الله إليهم الرسل وكذّبوهم فأُهلكوا.

﴿آمَنُوا﴾ صدَّقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسله ورسالاته، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ بجوارحهم بفعل ما أُمروا به، وترك ما نُهوا عنه على ألسنة الرسل.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لأنزلنا عليهم بركات من السماء، وأخرجنا لهم بركات من الأرض.

و«البركات»: جمع «بركة»، وهي كثرة الخير وسعته وتتابعه.

والمعنى: لأغدقنا عليهم الخير ووسعناه عليهم، ويسَّرناه لهم بإنزال بركات من السماء عليهم؛ من الماء والرزق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٩١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢، إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فمن بركات السماء: إنزال المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وتقدير الرزق، وخير الدنيا والآخرة فيها. ومن بركاتها: ما فيها من منافع شعاع الشمس، وضوء القمر، والنجوم، والهواء، والرياح الطيبة، وغير ذلك.

ومن بركات الأرض: ما أودع الله فيها من الأنهار والعيون والبحار، وما يخرج منها من النبات والمعادن، وغير ذلك من خيراتها وبركاتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

فتكفَّل الله عز وجل لأهل القرى لو آمنوا بتوالي البركات عليهم من السماء

والأرض، وترادف الخيرات، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

ولكن قلَّ من أهل القرى من يحصل لهم ذلك؛ بسبب كفرهم وعدم إيمانهم؛ ولهذا قال تعالى عن قوم يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾، أي: ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا، بل كذَّبوا.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، الفاء عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فتسبب عن تكذيبهم أخذنا لهم، أي: عاقبناهم بنزع البركات، وكثرة الآفات، والشدة والبأساء، وأهلكناهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يكسبون، أو بسبب كسبهم، أي: عملهم الباطل؛ من تكذيب الرسل ومخالفتهم، والشرك بالله والكفر، وارتكاب المعاصي والمحارم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

والمراد: أخذناهم ببعض كسبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾:

ذكر عز وجل إهلاك أهل القرى من الأمم الماضية بسبب تكذيبهم، ثم أخذ في تحذير وتهديد عامة أهل القرى بعدهم من الكفر ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب في المواضع الثلاثة، أي: أفأمن أهل القرى الذين يسلكون مسالك المكذبين قبلهم.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، «أن» والفعل بعدها في الموضعين في تأويل مصدر في محل نصب

مفعول «أمن»، أي: أفأمن أهل القرى إتيان بأسنا؟

والمعنى: أفأمن أهل القرى الكافرة أن يأتيهم بأسنا، أي: عقوبتنا وعذابنا ونكالنا؛ كما هي سننا في المكذبين قبلهم؟

﴿بَيَـٰتًا﴾ ظرف زمان، أي: ليلًا، أو حال، أي: غافلين ليلًا وقت البيتوتة والنوم والراحة.

﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنهم نائمون.

قال الشاعر:

يا نائم اللّيل مسرورًا بأوّله ... إنّ الحوادث قد يطرقْن أسحارًا

وقال الآخر:

هي اللّيالي وقاك الله صولتها ... تصول حتّى على الآساد في الأَجمِ
كنّا ملوكًا لنا في أهلنا دولٌ ... نمنا بها تحت أفنانٍ من النِّعمِ
فأيقظتنا سهامٌ للرّدى صُببٌ ... يُرمى بأفجع حتفٍ مَن بهنَّ رُمِي(١)

﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى﴾.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر: «أَوْ أَمِنَ» بإسكان الواو، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَوَأَمِنَ﴾.

أي: أوأمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا ونكالنا ﴿ضُحًى﴾ ظرف زمان، أي: نهارًا، أو أول النهار، أو حال، أي: حال كونهم غافلين ضحًى.

﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ حال أيضًا، أي: حال كونهم لاهين غافلين منشغلين في اللعب واللهو.

وخصَّ هذين الوقتين؛ لأنهما وقتان للدعة والراحة؛ فالبيات للنوم، والضحى للعب؛ فهما جديران بالحذر من حلول العذاب فيهما؛ لأن العذاب إنما يأتي بغتة وعلى غرة، ومن حيث لا يخطر على البال.

وفي هذا الإنكار والتعجيب تعريض بالمشركين المكذبين للنبي ﷺ، كيف يأمنون

---

(١) الأبيات لمحمد بن عبد الهادي العقيلي. انظر: «نفح الطيب» (٤/ ٥٢٩).

أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، وهم في غفلة ساهون، وعن الحق معرضون؟

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، كرر الاستفهام؛ لتأكيد الإنكار والتعجيب، ولزيادة التقرير، أي: أفأمنوا مكر الله حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويُملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟

وفي هذا كله تعريض بالسامعين من المشركين، وإنذار وتحذير لهم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، الفاء عاطفة، و«إلا» أداة حصر، أي: فلا يأمن استدراج الله عز وجل للعباد بالنعم مع مقامهم على الكفر والمعاصي إلا القوم الذين بلغوا غاية الخسران. والخسران: ضد الربح.

ولم يقل: «فهم خاسرون»، بل قال: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ليشملهم هذا الوصف وغيرهم ممن أمن مكر الله، وللدلالة على أنهم خسروا الخسران المطلق، لا مطلق الخسران، أي: خسروا الخسران المبين؛ كما يُقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والأمن من مكر الله من أعظم الذنوب؛ لأنه يدل على التكذيب بالجزاء على الأعمال، ولهذا توعد الله تعالى أهله بالخسران المطلق.

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]: إنما هو في حق الفجَّار والكفَّار، ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون»[١].

وقال السعدي[٢]: «فإن من أمن من عذاب الله فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، وألا يزال داعيًا بقوله: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد ولو بلغت

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٦١).

به الحال ما بلغت؛ فليس على يقين من السلامة».

ولهذا لـمّا قالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: إنك تكثر من قول: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك وطاعتك**»؟ قال: «**وما يؤمّنني، وإنّما قلوب العباد بين إصبعي الرّحمن؛ إذا أراد أن يقلب قلب عبدٍ قلبه**»(١).

قال الحسن رحمه الله: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن»(٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

تعجب في الآيات السابقة من أمن أهل القرى من بأس الله ومكره، وأنكر عليهم ذلك وحذَّرهم، ثم أتبع ذلك بتحذير من يرثون الأرض من بعدهم ويخلفونهم ممن جاؤوا بعدهم، خصوصًا هذه الأمة، التي هي الوارثة بعد جميع الأمم.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أولم يتبين للذين يرثون الأرض ويسكنونها؟

﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ تأكيد لمعنى ﴿يَرِثُونَ﴾ فيه تذكير لهؤلاء الوارثين بما كان عليه أولئك المورثون من التمكين في الأرض ورغد العيش، وما صاروا إليه من الهلاك بسبب ذنوبهم؛ ليحذروا مسالكهم، والسعيد من وُعظ بغيره؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، و﴿أَن﴾ والفعل ﴿نَشَآءُ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿يَهْدِ﴾.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، الباء للسببية، أي: أولم يتبين ويتَّضح للذين يرثون الأرض من بعد أهلها المُهلَكين، وقد ساروا سيرتهم في الكفر والتكذيب، وسلكوا مسالكهم في العتو والعناد؛ أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن كان قبلهم؛ فأهلكناهم بسبب ذنوبهم؛ كما

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥١).

(٢) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٤٧).

هي سنتنا في المكذبين، فليسوا بأشد ولا أقوى ممن أُهلكوا قبلهم.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وفي الآية: تهديد لهم بأن الله قد يصيبهم بذنوبهم؛ فلا يغتروا بتأخير العذاب عنهم مع تكذيبهم ويحسبون أنفسهم في منعة من العذاب؛ كما اغترَّ من قبلهم، فما بينهم وبينه إلا أن يشاء الله ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تعالى في ذكره هلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا

كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٥- ٢٧].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ونختم على قلوبهم عقوبة لهم بسبب ذنوبهم وكفرهم، وعدم تذكُّرهم واعتبارهم بمن قبلهم؛ فيعلو قلوبهم الران، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: فهم لا يسمعون سماع انتفاع، وإنما يسمعون فقط ما تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

قص الله عز وجل في الآيات السابقة أخبار الأمم الماضية، منها ما ذكره على جهة التعيين؛ كقصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام. ومنها ما ذكره على جهة التعميم، وذكر ما كان من إنجائه لرسله والمؤمنين، وإهلاكه المكذبين لهم بعد الإنذار والإعذار، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠- ١٠٢].

قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الإشارة إلى ما ذكره الله تعالى في الآيات السابقة من القرى التي أرسل الله إليها الرسل على جهة التعيين والتعميم.

وأشار إليها بإشارة القريب: ﴿تِلْكَ﴾، لتكرر ذكرها في الآيات، ولاستحضار ذكرها في الأذهان.

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: نقصُّ عليك يا محمد وعلى أُمَّتك من أخبارها؛ لتكون عظة وعبرة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدَّر، أي: والله لقد جاءتهم رسلهم بالبينات، أي: بالآيات والحجج والبراهين الواضحات على صدقهم فيما جاؤوا به؛ من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، واتباع رسله، والبشارة للمؤمنين، وتحذير الكافرين، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، الفاء عاطفة، واللام في ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ لام الجحود، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي كذبوا من قبل، أو بسبب تكذيبهم من قبل، أي: فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم بالحق وردهم له أول وروده عليهم، أي: ما كان الله ليهديهم للإيمان؛ عقوبة لهم على ردهم الحق أول مرة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولهذا قال بعد ذلك:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل»، أي: مثل هذا الطبع على قلوب المذكورين والحيلولة بينهم وبين الإيمان؛ يطبع الله على قلوب الكافرين.

وفي إظهار المسند إليه في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون الإضمار؛ ترهيب وتنبيه إلى شدة هذا الطبع.

وفي الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون أن يقول: «على قلوبهم» التسجيل عليهم بوصفهم بالكفر، وأنه سبب الطبع على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، ويشملهم هذا الطبع

وغيرهم من الكافرين.

قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، أي: وما وجدنا لأكثر أهل القرى التي قصصنا عليك نبأها ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾، أي: من التزام ووفاء بما عهدنا إليهم ووصيناهم به؛ من تقوى الله تعالى بتوحيده، وترك الشرك، واتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: مخففة من الثقيلة.

واللام في قوله: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ هي الفارقة، أي: لخارجين عن الطاعة والامتثال، ناقضين لعهد الله ووصيته؛ وذلك بارتكابهم ما نهى الله عنه من الشرك والمعاصي، ومخالفتهم الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم، ومخالفتهم ما أوصاهم الله به على ألسنة رسله؛ من تقواه وعبادته وحده لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**ما من مولودٍ إلّا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟**». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] (١).

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء المكذبين للرسل من أهل القرى بالبأساء والضراء؛ ليتضرَّعوا إلى الله تعالى، ويؤمنوا به وبرسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

٢- الإشارة إلى كثرة القرى التي أُرسل إليها الرسل، وعموم النُّذُر لكل الأمم، وكثرة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٩)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرسل؛ منهم من قصَّه الله في القرآن، ومنهم من لم يقصصه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٣- تبديل حال المكذبين من أهل القرى، ونقلهم من الشدة والضراء إلى الرخاء والسراء؛ ليعرفوا قدر نعمة الله تعالى عليهم فيشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾.

٤- شدة عناد المكذبين للرسل من أهل القرى، وعدم اهتدائهم لوجه الحكمة في المراوحة لهم بين البأساء والضراء، وبين الرخاء والسرَّاء، واعتبارهم ذلك مجرَّد عادة مضت في آبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

٥- أن الابتلاء بالخير والشر مما يتميَّز به الشاكر من الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٦- عقاب الله تعالى للمكذبين من أهل القرى فجأة على غرة، وأخذه لهم من حيث لم يخطر لهم ذلك على بال؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

٧- أن أهل القرى لو صدَّقوا الرسل وآمنوا واتقوا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأغدق عليهم الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

٨- تكذيب عامة أهل القرى، وأخذهم وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

٩- إثبات الأسباب، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

١٠- تحذير وتهديد أهل القرى اللاحقة بعد أولئك المُهلَكين- وقد سلكوا مسالكهم في التكذيب والكفر- من أن يأتيهم عذاب الله ليلًا وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ

﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وفي هذا إنكار عليهم وتعجب من غفلتهم وقد استوجبوا العذاب.

١١- أن العذاب إنما يأتي على غرة، وفي وقت الدّعة والغفلة؛ ليكون وقعه أشد وأعظم، مما يوجب الحذر من الغفلة.

١٢- الإنكار على من يأمن مكر الله تعالى واستدراجه، والتحذير من ذلك، وبيان أن أهله الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٣- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالسابقين؛ من أخذهم بذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٤- تذكير اللاحقين بنعمة الله عليهم؛ بتوريث الأرض بعد إهلاك أهلها، وتحذيرهم من أخذهم بذنوبهم كما أُخذ من قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٥- أن سنن الله تعالى في أخذ المكذبين ثابتة لا تتغير.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٧- أن من أعظم عقوبات الذنوب والمعاصي الطبع على القلوب، فلا تفقه موعظة ولا تذكيرًا، ولا تسمع ذلك ولا تقبله، فلا يلج إليها خير، ولا يصلها حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٨- أن السماع الحقيقي هو سماع الانتفاع بالمسموع، لا مجرد سماع الآذان فقط؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٩- ذكر أخبار القرى وقصصها في القرآن الكريم، وما حصل منهم من التكذيب وعدم الإيمان، وما حل بهم من العقوبات؛ للاتعاظ والاعتبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾.

٢٠- إقامة الحجج على أولئك بما جاءهم من البينات على ألسنة الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٢١- أن من أعظم أسباب عدم التوفيق للإيمان والطبع على القلب بحيث لا يقبل

الحق؛ التكذيب به عند وروده أول مرة؛ عقوبة من الله تعالى على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٢- من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٣- أن أكثر أهل القرى الذين بعث الله فيهم الرسل لا عهد لهم؛ فلا يلتزمون بما عهد الله إليهم ووصاهم به؛ من تقواه، وعبادته وحده، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

٢٤- أن أكثر أهل القرى فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، ناقضون لعهد الله ووصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

٢٥- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا عهد لهم ولا ذمة، فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، فلا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين؛ فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال ابن دريد(١):

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ ... وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى

* * *

(١) انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة قصص عدد من الرسل الذين بعثهم إلى كثير من القرى وأهلها، منهم من ذكره على التعيين؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، ومنهم من ذكره على التعميم، وعاقبة كل منهم؛ بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ منبِّهًا إلى أن هذه سنته في الرسل وأممهم، بشارة لمن جاء بعدهم من المؤمنين، وتحذيرًا للكافرين.

ثم أتبع ذلك كله بذكر رسالة عظيمة من أعظم الرسالات؛ رسالة موسى عليه الصلاة والسلام، كليم الرحمن، وثالث أولي العزم من الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وكتابه «التوراة» أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ خطَّها الله تعالى بيده[1]، وآياته الكونية من أعظم الآيات، وأمته بنو إسرائيل من أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ، وخصمه فرعون وملؤه من ألد الخصوم وأعتى الجبابرة، وقومه بنو إسرائيل من أشد الناس عنادًا واستكبارًا وتعاظمًا وتشددًا وتحايُلًا.

لهذا وغيره خُصَّت قصَّته عليه الصلاة والسلام بالتفصيل في القرآن الكريم أكثر من غيرها من قصص الأنبياء السابقين، فجاءت مبسوطة في عدد من سور القرآن الكريم؛ منها سورة الأعراف التي خصص ثلثها في نحو سبعين آية لهذه القصة، ومنها

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده!». أخرجه مسلم، في القدر (٢٦٥٢).

سورة يونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغيرها؛ لما فيها من الآيات والعبر والعظات والدروس؛ فهي سجل حافل للرسل بعده، وللدعاة إلى الله تعالى.

ولهذا قال ﷺ لما اعترض رجل على قسمته الغنائم يوم حنين، وقال: والله إن هذه قسمة ما عُدل فيها وما أُريد بها وجه الله! قال ﷺ: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله أخي موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

ولما مر ﷺ ليلة أسري به على موسى بعد فرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة؛ قال له موسى عليه السلام: «**إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرَّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة، أي: ثم أرسلنا من بعد الرسل الذين سبق ذكرهم على التعيين؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام والقرى التي أشير وإلى رسلهم على التعميم؛ كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤].

أي: أرسلنا بعدهم موسى بن عمران عليه السلام.

والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي؛ لأن بين موسى عليه السلام وبين نوح وهود وصالح ولوط عليه السلام مددًا طويلة تقدر بالقرون؛ كما أن بينه وبين شعيب عليه السلام زمنًا طويلًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، الباء للملابسة والمصاحبة، أي: بحججنا ودلالاتنا؛ فقد أوتي موسى

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢)؛ من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٨٨٧)، والنسائي في الصلاة (٤٤٨)؛ من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

عليه السلام من الآيات البينات والدلائل والحجج ما لم يؤته أحد من الرسل.

منها: العصا، واليد، وفلق البحر والحجر، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم؛ وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك مصر في عهد موسى عليه السلام.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: وقومه من القبط، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠- ١١].

وقد بعث عز وجل معه أخاه هارون، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقد سأل موسى عليه السلام ربه أن يجعل هارون أخاه وزيرًا له ويرسل إليه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩- ٣٠]، فاستجاب الله له؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٢- ٤٣].

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، الفاء للتعقيب، أي: فبادروا بالتكذيب بها.

وعُدي الفعل «ظلموا» بالباء؛ لتضمنه معنى «كفروا»، أي: فجحدوا وكفروا بها ظلمًا وعدوانًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وأظلم الظلم: الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويجوز كون «الباء»: للسببية، أي: فظلموا بسببها، ظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يؤمنوا، وظلموا غيرهم بمنعهم من الانتفاع بالآيات وصدِّهم لهم عن الهدى.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣- ١٢٤]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: فانظر وتأمل بعقلك وفكرك. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ﴿كَيۡفَ﴾ للاستفهام والتعجب، أي: كيف كان عاقبة المفسدين فرعون وقومه؛ حيث عاقبهم الله أسوأ عاقبة؛ فأغرقه الله وقومه، كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

وفي قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: «عاقبتهم»، والغرض من ذلك: التسجيل عليهم بوصف الفساد، وبيان أنهم إنما أُخذوا بسوء العاقبة لإفسادهم وكفرهم؛ وليشملهم ذلك وغيرهم من المفسدين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾:

هذا بمنزلة البيان لقوله: ﴿بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ ناداه بالذي اشتهر به.

﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: إني رسولٌ مرسلٍ عظيم، وهو رب العالمين، الذي له الخلق والملك والتدبير الذي لا يتجرأ عليه أحد ويدعي أنه أرسله وهو لم يرسله، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

وفي هذا إبطال لدعوى فرعون وزعمه أنه رب مصر وأهلها، كما قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وفيه إبطال بطريق اللزوم لدعواه الألوهية، كما قال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾:

قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ قرأ نافع بتشديد الياء وفتحها على

أنها ياء الإضافة: «حَقِيقٌ عَلَيَّ»، وقرأ الباقون: ﴿عَلَىٰٓ﴾ على أنها حرف جر.

والمعنى: جدير وحريص على ألا أقول على الله إلا الحق، و﴿على﴾ بمعنى الباء، أي: بألا أقول على الله إلا الحق.

وعلى قراءة التشديد: ﴿عَلَيَّ﴾ «فعيل» بمعنى «فاعل» مِن حقَّ بمعنى: «وجب وثبت»، أي: وحق عليَّ ألا أقول على الله إلا الحق، أي: متعين عليَّ قول الحق والصدق على الله تعالى.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، أي: قد جئتكم بآية بينة ومعجزة ظاهرة على صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وبحجة عقلية ظاهرة وبرهان قاطع على وجوب توحيد الله والاهتداء بهداه؛ لهذا لما قال له فرعون كما جاء في سورة الشعراء: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٠- ٣٢].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلق سراحهم من أسرك وقهرك.

وكان فرعون قد عبَّد بني إسرائيل لخدمته واستذلهم وسامهم صنوف العذاب؛ ولهذا قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٧- ١٨].

ولما أظهر فرعون منته على موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، أجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

قال ابن كثير في كلامه على الآية: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم «إسرائيل» وهو

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن»[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بعلامة وحجة على صدقك؛ كما في قولك: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿فَأْتِ بِهَآ﴾، أي: فأظهرها لنا.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما ادَّعيت من أن الله أرسلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، أي: فألقى موسى عصاه التي كان يتوكّأ عليها ويهش بها على غنمه، أي: ألقاها على الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا﴾ [طه: ١٧-١٩].

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الفاء عاطفة تفيد السببية، و«إذا»: هي الفجائية.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر لا شك فيه ولا تخيل، أي: فإذا هي حية عظيمة ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩-٢٠].

ثم أمره تعالى بأخذها، فعادت كما كانت من ذي قبل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

هذه آية ومعجزة ثانية لموسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، أي: أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها فيه، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

أي: من غير برص.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ الفاء كالتي قبلها، وكذا «إذا».

---

(١) في (تفسيره) (٣/ ٤٥٠).

﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: بيضاء تتلألأ من شدة البياض والنور، وكان موسى عليه السلام آدم اللون.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تأكيد وتتميم لمعنى ﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: تعجب الناظرين من شدة بياضها، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]، أي: آية أخرى بعد العصا.

فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى عليه السلام وعلى صدقه، وأنه رسول من رب العالمين، كما قال تعال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: قال السادة والكبراء من قوم فرعون وأهل مجلسه ومشورته- لمَّا بهرهم ما رأوا من الآيات- موافقين لفرعون فيما حكى الله عنه في سورة الشعراء بقوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنون موسى عليه السلام، ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، اللام: للتوكيد، ﴿عَلِيمٌ﴾ صفة لـ«ساحر».

أي: ساحر عليم بالسحر ماهر فيه، يؤثِّر بالناس، ويأخذ بأعينهم حتى يُخيَّل إليهم أن العصا حية، وأن اللون الآدم أبيض.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، أي: يريد هذا الساحر العليم أن يخرجكم من «أرضكم»: أرض مصر ويجليكم عن أوطانكم بسحره، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٥٧]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [الآية: ٦٣]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ

لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية: ٧٨].

فخافوا أن يؤثِّر على الناس ويستميلهم بما جاء به، وخوَّفوهم أن يخرجهم من أرضهم إذا ظهر وصار له الملك.

والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ هذا من قول الملأ من قوم فرعون، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من قول فرعون، تقديره: «فقال: ماذا تأمرون؟»، ويدل عليه قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾.

والمعنى: فماذا تطلبون أن نفعل في أمره؟ وما الذي تشيرون فيه؟ وكيف نتخلص منه؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾:

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾، أي: قال الملأ من قوم فرعون بعد أن تشاوروا وائتمروا فيه: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾.

قرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَرْجِهْ ﴾ بجيم ثم هاء ساكنة، وقرأ نافع في رواية ورش والكسائي: ﴿أَرْجِهِ﴾ بجيم ثم هاء مكسورة، وقرأ الباقون: ﴿أَرْجِئْهْ﴾ بهمزة وهاء ساكنتين.

أي: أخِّره وأجِّله وأخاه، وأخِّر المجادلة معهما أو البت في أمرهما حتى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره. وقيل: احبسهما.

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ فهي ضمن مقول القول، أي: افعل هذا وهذا.

و«المدائن»: جمع «مدينة».

والمعنى: وأرسل في مدائن مصر وأقاليمها، وهي في ذلك الزمن كثيرة.

﴿حَٰشِرِينَ ﴾ جمع «حاشر»، أي: أرسل في مدائن مصر شُرَطًا يحشرون ويجمعون لك السحرة.

قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾:

قرأ جمهور القراء: ﴿سَٰحِرٍ﴾ اسم فاعل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزن «فعَّال» صيغة مبالغة؛ كما قرأ به الجميع في آية الشعراء: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

أي: يجيؤوك بكل ساحر عامل في السحر ماهر به، ﴿عَلِيمٍ﴾ ذي علم تام بالسحر؛ وذلك ليعارضوا ما جاء به موسى عليه السلام من البينات، كما قال فرعون: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٧- ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾:

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: وجاء السحرة فرعون بعد أن جمعهم لمعارضة موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨- ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر: ﴿إِنَّ﴾ دون همزة الاستفهام، وقرأ الباقون: «أَإِنَّ» بهمزة الاستفهام قبل «إِنَّ»؛ كما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١- ٤٢].

أي: قالوا لفرعون على وجه الاستفهام أو التقرير: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: لجزاءً وثوابًا، أي: أتعطينا أجرًا؟ أي: جزاءً وثوابًا.

والتنكير في: «أجراً»؛ للتعظيم، أي: أجرًا عظيمًا.

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى في هذه المناظرة والمغالبة.

وضمير ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لضمير ﴿كُنَّا﴾؛ إشعارًا بجدارتهم بالغلب، وثقتهم أنهم أعلم الناس بالسحر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾:

قوله: ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾، أي: قال فرعون للسحرة إجابة لقولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾: نعم، أي: لكم أجر إن كنتم أنتم الغالبين. وزادهم بقوله:

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: وإنكم لمن المقربين عندي، أي: أقرّبكم وأجعلكم من جلسائي.

فوعدهم بأن يعطيهم ما أرادوا من الأجر، وزادهم التقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾:

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام؛ كقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: ٦٥].

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾، أي: قال السحرة لموسى عليه السلام: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾.

﴿إِمَّآ ﴾: حرف تخيير، أي: إما أن تُلقي عصاك وما معك من السحر قبلنا.

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾، أي: وإما أن نُلقي نحن عُصِيَّنا وحبالنا وما معنا من السحر قبلك؛ كما في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: ٦٥].

وفي تخييرهم له إظهار لمدى غرورهم وثقتهم بمقدرتهم، وأنهم هم الغالبون سواء ابتدأ هو بالإلقاء أو كانوا هم المبتدئين، وليسبروا مدى ثقة موسى بما معه؛ يشير إلى هذا قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤].

قال ابن القيم: «وفي قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ تخيير منهم له، وحسن أدب راعوه معه، وإنما قالوا: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ ولم يقولوا: «وإما أن نُلقي» كما قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ لرغبتهم في أن يُلقوا قبله، وتشوفهم إلى التقدم عليه، وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل»(١).

---

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ١١٦﴾:

قوله: ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾، أي: قال لهم موسى: ألقوا، أي: ألقوا ما أنتم ملقون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠، الشعراء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: ٦٦].

فاختار عليه السلام أن يبتدؤوا هم بالإلقاء؛ ليرى الناس ضعف كيدهم، وليبطل بعدهم ما معه من الحق كلَّ ما ألقوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

قال ابن كثير: «والحكمة في هذا- والله أعلم- ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلُّب له وانتظار منهم لمجيئه؛ فيكون أوقع في النفوس»[1].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ معطوف على محذوف، والتقدير: فألقوا، أي: فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وسحرهم.

﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خيّلوا إلى أعين الناس وأبصارهم بسحرهم أن ما ألقوه من حبالهم وعصيِّهم حيات حقيقية تسعى.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ السين والتاء للتأكيد والمبالغة، أي: وأرهبوهم رهبًا شديدًا، أي: خوفوهم خوفًا شديدًا؛ لتخييلهم وخداعهم للناس حتى توهَّموا أن هذه الحبال والعصي حيات حقيقية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦- ٦٩].

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، أي: لم يوجد له نظير من السحر والتخييل والخداع والتمويه

---

(١) في (تفسيره) (٣/ ٤٥٢).

على الناس؛ حيث ألقى كل منهم- مع كثرتهم الكاثرة- ما معه من حبال وعصي، وصارت كلها ثعابين في أعين الناس.

الفوائد الأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٢- تأييد موسى عليه السلام بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٣- أن موسى عليه السلام مرسل إلى فرعون وملئه من القبط، وإلى بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- جحود فرعون وملئه، وكفرهم بآيات الله، وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾.

٥- الحث على النظر والتأمل في عاقبة المفسدين؛ كفرعون وملئه وغيرهم، وما حل بهم من العقوبات بالغرق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٦- أن الظلم والجحود والكفر بآيات الله من أعظم الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

٧- مناظرة موسى عليه السلام، ومحاجته لفرعون، وإلجامه إياه بالحجة وإظهار الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الآيات.

٨- أن عظمة الرسالة من عظمة المُرسِل؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٠- إبطال دعوى فرعون الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَّبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١١- أن موسى عليه السلام حقيق على ألا يقول على الله إلا الحق، جدير بذلك، وذلك واجبه، وكذا غيره من الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

١٢- جواز ثناء الإنسان على نفسه إذا كان ذلك في مقام بيان الحق والدعوة إليه، وأنه مُحِقٌّ بما دعا إليه ونحو ذلك؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

١٣- لا يجوز أن يُقال على الله إلا الحق؛ لقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، على قراءة من قرأ: «عَلَيَّ» بتشديد الياء وفتحها، على أن الياء ياء الإضافة، أي: واجب عليَّ.

١٤- تأييد موسى عليه السلام في دعوته بالبينات والمعجزات الظاهرة، والآيات والحجج العقلية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٥- أن موسى عليه السلام أُرسل لإخراج بني إسرائيل وتخليصهم من اضطهاد فرعون وملئه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٦- تحدي فرعون لموسى عليه السلام، واتهامه له بعدم الصدق فيما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

١٧- أن من أعظم البينات والمعجزات الكونية الظاهرة الدالة على صدق موسى عليه السلام في رسالته: العصا واليد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

١٨- اتهام فرعون وملئه لموسى عليه السلام بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

١٩- تخويف فرعون وملئه لعامة قومه؛ بأن موسى عليه السلام يريد أن يخرجهم من أرضهم وبلادهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾.

٢٠- أن من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله؛ التمسك بالرياسات والجاه والديار والمال.

٢١- تشاور فرعون وملئه وائتمارهم؛ ماذا يفعلون في أمر موسى؟ وكيف يتخلصون منه؟ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

٢٢- إجماع الملأ من قوم فرعون على المشورة عليه بتأخير البت في أمر موسى وأخيه حتى يجمع السحرة لمعارضته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٢٣- أهمية المشورة والتأني في الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، ولهذا امتدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

٢٤- الإشارة إلى كثرة السحر والسحرة مبعث موسى عليه السلام.

٢٥- مجيء السحرة إلى فرعون- بعد أن جمعهم لمعارضة موسى بسحرهم- يُطالبون بالجزاء إن غلبوا، ظنًّا منهم أنهم سيغلبون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

٢٦- وعد فرعون للسحرة وتكفله لهم بالأجر، وزيادة تقريبهم عنده، غرورًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

٢٧- تخيير السحرة في ظاهر قولهم لموسى عليه السلام أن يبدأ هو فيُلقي ما معه، أو أن يبدؤوا هم؛ لقولهم: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾.

٢٨- توفيق الله تعالى لموسى عليه السلام؛ حيث اختار أن يبدأ السحرة؛ فقال: ﴿أَلْقُواْ﴾ ليظهر للناس ضعف كيدهم وسحرهم مهما عظُم أمام ما أيده الله تعالى به من البينات والمعجزات.

٢٩- تأثير السحرة على أعين الناس بما ألقوه من السحر، وإرهابهم وإخافتهم لهم بما جاؤوا به من سحر عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

٣٠- أن السحر له تأثير على الأعين والقلوب والأبدان، بإذن الله تعالى الكوني،

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٣١- عظم جهل فرعون وقومه؛ حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية لا يقدر عليه إلا الله تعالى حتى نسبوه إلى السحر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

بعدما ألقى السحرة سحرهم العظيم الذي خوَّفوا به الناس واسترهبوهم؛ أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن يُلقي عصاه، وهي أعظم الآيات الكونية على صدقه.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ الإيحاء والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء، ويكون بطريق الإلهام، أو التكليم من وراء حجاب، أو بواسطة المَلَك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، ﴿أَنْ﴾ تفسيرية؛ فالجملة تفسير وبيان للوحي الذي أوحاه الله تعالى في هذا المقام إلى موسى، وهو أمره له أن يُلقي عصاه.

والمعنى: أن ألق عصاك على الأرض، وهي التي كانت بيمين موسى عليه السلام يتوكّأ عليها ويهش بها على غنمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧-١٩].

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

قرأ حفص عن عاصم بتخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «تَلَقَّفُ».

والفاء: عاطفة، تفيد التعقيب، و«إذا»؛ هي الفجائية، أي: فإذا هي فجأة تلقف ما يأفكون؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾ على قراءة التخفيف: تبتلع وتزدرد وتأكل.

ومعناه على قراءة التشديد «تَلَقَّفُ»: المبالغة في اللَّقف، أي: في الابتلاع والازدراد والأكل.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة، تفيد العموم، أي: تلقف جميع الذي يأفكون، أي: جميع الذي يكذبون ويصطنعون ويموهون من السحر والتخييلات الباطلة التي لا حقيقة لها.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فألقى عصاه فإذا هي حية؛ فجعلت تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر؛ فخروا سُجَّدًا، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢]»(١).

والتعبير بالمضارع في ﴿تَلْقَفُ﴾، و﴿يَأْفِكُونَ﴾ للدلالة على التجديد والتكرير مع استحضار الصورة العجيبة.

قوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

قوله: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، الفاء: للتفريع، أي: فظهر الحق وتبين.

و«الحق»: الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضده: الباطل، أي: ظهر صدق موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين، أيده الله عز وجل بهذه الآية والمعجزة العظيمة الدالة على أنها من تأييد الله تعالى له؛ لما فيها من دلائل كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وبطل: الذي كانوا يعملونه، أو: وبطل عملهم، أي: وزال واضمحل الذي كانوا يعملون من السحر ومقصودهم منه، وخاب سعيهم.

وفي هذا تقرير لقوله: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، وتسجيل لذمهم، ونداء بخيبتهم، وتأنيس

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٥٨).

للمؤمنين، وتهديد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾:

قوله: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فغُلب السحرة.

﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان، أي: غُلبوا في ذلك المكان الذي اجتمع فيه أهل مصر بدعوة من فرعون؛ لظنه غلبة السحرة.

﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾، أي: رجعوا وصاروا ذليلين حقيرين مقهورين.

قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ بني الفعل «أُلقي» للمجهول لظهور الفاعل، وهو أنفسهم، أي: ألقى السحرة أنفسهم ساجدين.

﴿سَٰجِدِينَ﴾ حال، أي: ساجدين لله تعالى؛ لما رأوا من عظيم قدرته تعالى، فلم يتمالكوا أن سجدوا لربهم دون تريث أو تردد؛ تعظيمًا وعبادة له عز وجل، وخضوعًا له، وانقيادًا لأمره.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وفي سورة طه: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]؛ فقدم ذكر هارون في سورة طه من أجل تناسب الآيات والفواصل.

أي: صدقنا برب العالمين عامة، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، رب موسى وهارون خاصة، أي: صدقنا به بقلوبنا، وانقدنا له بجوارحنا.

قال الشيخ محمد بن عثيمين: «فكل ما يحكيه الله عن السابقين فهو بالمعنى؛ لأننا نعلم أنهم ما تكلموا بالعربية؛ فلغتهم غير العربية، وترتيبهم ليس كترتيب القرآن فيما نعلم، والله أعلم. وقد يُقال: إن الله حكى قولهم، ولكن صاغه عز وجل وتحدث به على ما يريد»(١).

وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استئناف بياني، أو حال ثانية.

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

والمقصود منه: الإعلان بإيمانهم بالله؛ فجمعوا بين الإيمان بالفعل بالسجود، وبالقول بهذا الإعلان، أي: جمعوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ وهو ما دعاهم إليه موسى عليه السلام، وكفروا بروبية فرعون وإلهيته في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لزيادة الإيضاح والبيان والتأكيد، أي: آمنا بربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وبربوبيته الخاصة لموسى وهارون وأوليائه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾:

قوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿ءَامَنتُم﴾ بهمزة واحدة؛ على الإخبار، وهو مستعمل للإنكار والتهديد؛ لظهور أنه لا يقصد حقيقة الإخبار.

وقرأ الباقون: «أَآمَنتُمْ» بهمزتين؛ على الاستفهام، منهم من حقق الهمزة؛ وهم: حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وخلف، ومنهم من سهل الهمزة الثانية؛ وهم: نافع وأبو عمرو وابن عامر.

والمعنى: قال فرعون للسحرة لما سجدوا وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون؛ متوعدًا ومهددًا لهم: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أي: صدقتم به، أي: بالله رب العالمين، رب موسى وهارون.

ويجوز عود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ على موسى، أي: صدقتم بموسى وأنه رسول من رب العالمين.

والمؤدَّى واحد؛ لأن الإيمان بموسى إيمان برب العالمين؛ كما أن الإيمان برب العالمين إيمان بموسى وما جاء به، وفي ذلك كله كفر بربوبية فرعون وإلهيته.

﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، ﴿أَنۡ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى ﴿قَبۡلَ﴾، أي: قبل إذني لكم، أي: قبل أن آذن لكم بالإيمان برب موسى، أو بموسى، أي: إن هذا سوء أدب منكم، وكان يعتقد ويزعم أنه ربهم وإلههم؛ لا يجوز لهم التصرف إلا

بإذنه؛ فوبَّخهم وأنكر عليهم أمرين: الإيمان برب العالمين، وكون ذلك بغير إذنه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يشير إلى ما حصل من إيمان السحرة برب العالمين، وبما جاء به موسى عليه السلام.

واللام في قوله: ﴿لَمَكْرٌ﴾ للتأكيد، و«المكر»: الكيد والتدبير الخفي والخداع.

ونكّر «مكر»: للتعظيم، أي: لمكر عظيم، ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، أي: دبرتموه أنتم وموسى وتواطأتم عليه.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: في مصر قبل الخروج للميعاد، أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا وإيمانكم به إنما كان عن تشاور منكم ورضا؛ كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تُخرجوا منها أهلها.

أو للعاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تُخرجوا منها أهلها، بعد أن تكون لكم أنتم وموسى الدولة والنصرة.

وهذا محض الكذب والافتراء من فرعون؛ قاله لمَّا أُسقط في يده ورأى السحرة قد آمنوا بالله رب العالمين، فلم يبق أمامه إلا أن يتهمهم بالتواطؤ مع موسى.

وهذا من أبطل الباطل، أراد به فرعون التدليس والتلبيس على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهذا موافق لقول الملإ من قومه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠].

فبالأمس كان خوفه وملئه من موسى عليه السلام أن يُخرجهم من أرضهم، واليوم كان خوفه من السحرة من بني جلدته أن يُخرجوهم لما آمنوا؛ فجاءه الخوف من مأمنه.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد وتهديد منه للسحرة، أي: فسوف تعلمون في المستقبل ما أصنع بكم وما أُحِل بكم من العقوبة.

وحذف المفعول لقصد التهويل في الوعيد؛ لإدخال الرعب في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

هذا تفسير وتفصيل للوعيد المجمل بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأقطعن.

و«التقطيع»: المبالغة والتشديد في القطع، وكونه حتميًّا لا هوادة فيه ولا رحمة.

﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ داخل في حيز المقسم عليه، أي: لأصلبنكم في جذوع النخل؛ كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: ثم لأصلبنكم بعد التقطيع؛ لفضيحتكم، والتنكيل بكم، والتحذير من فعلكم.

و«التصليب»: المبالغة في الصلب والتشديد فيه، وكونه حتميًّا لا هوادة فيه ولا رحمة.

والصلب: أن يُربط الرجل قائمًا على خشبة مدة، أو حتى يموت. وقد يكون الصلب بعد القتل.

والمعنى: ثم لأصلبنكم بعد تقطيع أيديكم وأرجلكم من خلاف؛ فضيحة وخزيًا لكم، ونكاية وتنكيلًا بكم، ونكالًا لغيركم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء»(١).

﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: كلكم لا أستثني منكم أحدًا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥﴾:

بهذا أجابوا عن وعيد فرعون، أي: أن هذا الوعيد لا يضيرنا ولا يفزعنا؛ لأنا إلى ربنا راجعون، وما عنده من الأجر والثواب خير لنا مما عندك، ومن الدنيا وما فيها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٢- ٧٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾:

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٦٤)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٣٨ ١٥٣٧).

قوله: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾، أي: وما تعيب منا، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر.

﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿تَنقِمُ﴾، أي: وما تنقم منا إلا إيماننا بآيات ربنا، أي: إلا تصديقنا بآيات ربنا التي أيَّد بها رسوله موسى عليه السلام؛ ومنها: انقلاب العصا حية تسعى وتلقف ما يأفكون، ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، أي: حين جاءتنا على يدي موسى عليه السلام.

أي: أن ما نقمته منا ليس مما يُنقم منه ويُعاب عليه، بل هو أفضل ما يُمتدح به، وأعظم المناقب، وخير الأعمال، وأوجب الواجبات علينا.

﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: أفض علينا صبرًا.

ونكَّر ﴿صَبْرًا﴾ للتعظيم، أي: أفض علينا صبرًا واسعًا عظيمًا؛ لعظم ما نحن فيه من المحنة؛ تُطَمْئِن به قلوبنا، وتُثَبِّتنا به على الإيمان، وتعيننا به على ما نلقى من عذاب فرعون وأذاه.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: واقبض أرواحنا حال كوننا ثابتين على الإسلام.

وهذا مطلب كل مؤمن، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾، الاستفهام: للإنكار، أي: أتترك موسى وقومه وتدعهم؟ وفيه معنى الإغراء، أي: لا تتركهم ولا تدعهم.

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ليفسدوا رعيتك .

والمراد بقولهم: ﴿وَقَوْمَهُۥ﴾: كل من آمن بموسى من بني إسرائيل ومن القبط كالسحرة.

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، اللام لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يُفسدوا في الأرض بالدعوة إلى الإيمان بربوبية الله تعالى وحده وإلهيته؛ ولهذا قالوا بعده: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾،

أي: يدعك وعبادتك، فيكفر بربوبيتك وإلهيتك.

فاعتقدوا أن ما يدعو إليه موسى من الإيمان بربوبية الله تعالى وإلهيته وحده وترك تأليه فرعون، فساد، كما قال فرعون في الآية الأخرى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد أحسن القائل:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

وقال الآخر:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا(١)

وقوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾.

بهذا أجاب فرعون المحرضين من ملئه على موسى وقومه، وقد تكلم عن نفسه بضمير الجمع اغترارًا بقوته وعظمته وسلطانه.

قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير: «سَنَقْتُلُ» بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء من غير تشديد، وقرأ الباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها للمبالغة في القتل: ﴿سَنُقَتِّلُ﴾.

والسين للمبالغةوالتحقيق والتأكيد، أي: سنقتل أبناءهم، أي: مواليدهم الذكور، فلا نترك منهم أحدًا.

﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾، أي: ونستبقي نساءهم، أي: مواليدهم من الإناث؛ فلا يقتلن، بل نستبقيهن سراري وخدمًا.

﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، أي: وإنا عالون عليهم، غالبون لهم، متمكنون منهم،

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٣/ ٢٢١).

قادرون عليهم، لا خروج لهم عن ملكنا وسلطاننا وحكمنا وقبضتنا.

وقد فعل هذا ببني إسرائيل قبل ولادة موسى خوفًا من وجوده؛ فكان يستبقي المواليد الإناث ويقتل الذكور؛ خشية من ولادة مولود يكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، حين أظله زمان موسى عليه السلام، وقد خاب سعيه، وأُتي من مأمنه، وتربَّى موسى عليه السلام في بيته؛ حكمة بالغة.

وهكذا لما أعاد الكرة وتوعد بني إسرائيل بهذا الصنيع ليقهرهم ويذلهم؛ جاء الأمر على خلاف ما أراد، فخاب مسعاه، ونصرهم الله عليه، وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

لما توعد فرعون موسى وقومه وصمم على أذيتهم وقهرهم، وأقسم على ذلك؛ مُغترًّا بقوته وجبروته، أمرهم موسى عليه السلام بالاستعانة بالله شديد المحال، وأوصاهم بالصبر، وبشَّرهم بوراثة الأرض والعقبى الحسنة.

قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: الجؤوا إلى الله تعالى واطلبوا منه العون وتوكَّلوا عليه؛ فهو الملجأ في المحن والشدائد، الذي لا يُقهر من لاذ بجنابه، واستعان به، وتوكل عليه، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾، أي: واصبروا على ما ينالكم من أذى فرعون وقومه، واثبتوا على دينكم وانتظروا الفرج؛ ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، أي: إن الأرض ملك لله تعالى وحده، لا لفرعون وقومه حتى يتحكموا فيها، ولا لأحد من الخلق.

﴿يُورِثُهَا﴾، أي: يُمَلِّكها ويُسكنها، ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ﴿مَن﴾ موصولة، أي: الذي يشاء.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، أي: بعض عباده، وهم الصالحون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن

﴿تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: والعاقبة الحسنى للمتقين، الذين اتقوا الله؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فلهم العاقبة الحسنى في الدنيا؛ بالنصر والتمكين، ولهم العاقبة الحسنى في الآخرة؛ في جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾:

قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال قوم موسى بنو إسرائيل.

﴿أُوذِينَا﴾، أي: آذانا فرعون وقومه.

والأذى: ما يؤلم ويُحزن من قول أو فعل، أي: أوذينا أذى شديدًا؛ بقتل أبنائنا، واستحياء نسائنا، واستعبادنا واضطهادنا.

﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى ﴿قَبۡلِ﴾، أي: من قبل إتيانك إلينا، أي: من قبل بعثتك فينا رسولًا؛ يعنون ما حصل لهم من فرعون؛ من اضطهاد قبل مبعث موسى عليه السلام، حيث كان فرعون يسومهم سوء العذاب؛ يُذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويهينهم ويُذلهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠- ٣١].

﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: ومن بعد مجيئك إلينا بالرسالة؛ يعنون ما حصل لهم بعد إيمان السحرة بموسى عليه السلام؛ من تعذيب فرعون لهم، وتحريض الملإ من قومه له على بني إسرائيل وتهديده لهم بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾، أي: قال موسى مخاطبًا قومه، بعد أن شكوا ما لقوه من أذى فرعون وما يلقونه منه؛ مُرجِّيًا لهم بالفرج والخلاص من عدوهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾.

و﴿عَسَىٰ﴾ هنا للرجاء، وقرن الرجاء بوصف الربوبية؛ لأنه أنجع، فكأنه يقول: عسى من له الخلق والملك والتدبير أن يُهلك عدوكم.

وفي هذا الخبر نوع من بث الشكوى رجاء أن يدعو لهم موسى ربه أن يُفرِّج كربهم، وإلا فشكوى الحال إنما هي إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنّما تشكو الرّحيم إلى الّذي لا يرحم[١]

وقال الآخر:

لا تشكونّ لمخلوقٍ فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم[٢]

وجملة ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ في محل نصب خبر ﴿عَسَىٰ﴾، أي: أن يُهلك عدوكم فرعون وملأه.

و«عدو»: يُطلق على المفرد وعلى الجمع، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، الواو عاطفة، والسين والتاء في «يستخلفكم» للمبالغة والتأكيد، أي: يجعلكم خلفاء في الأرض، ويمكنكم فيها ويملككم إياها.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، الفاء عاطفة، أي: فينظر ويرى كيف يكون عملكم؛ هل تشكرون ربكم على ما أزال عنكم من النقم، وعلى ما وهبكم من النعم، فتعملون بطاعته، وتجتنبون معصيته؟ أو تكفرون بذلك؟

وفي هذا حض وحث لهم على طاعة الله، وتحذير من معصيته؛ ولهذا ذكَّرهم بربوبية الله تعالى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾.

(١) البيت بلا نسبة كما في «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٨١)، وفي «الكشكول» (١/ ٥٧) منسوب لزين العابدين.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٦٢).

الفوائد والأحكام:

١- إيحاء الله عز وجل إلى موسى عليه السلام بإلقاء عصاه؛ لإبطال مكر السحرة وكيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

٢- عظمة قدرة الله تعالى؛ حيث جعل عصا موسى حية تسعى تلتقم وتبتلع كل ما ألقاه السحرة من السحر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

٣- أن ما جاء به موسى عليه السلام من العصا واليد، وما في ذلك من الآيات، كل ذلك من وحي الله تعالى وتأييده له.

٤- أن ما جاء به السحرة وألقوه كله إفك وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾.

٥- ظهور الحق بصدق موسى عليه السلام فيما دعا إليه من الإيمان برب العالمين وفيما جاء به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.

٦- بطلان ما عمله السحرة وألقوه من السحر، وما عليه فرعون من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٧- غلبة موسى عليه السلام بما معه من البينة والمعجزة للسحرة، وانقلابهم صاغرين ذليلين؛ لقوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾.

٨- أن الغلبة للحق وأهله مهما طغى الباطل وتجبر أهله وتكبروا.

٩- سجود السحرة عبادة لله تعالى وطاعة له وانقيادًا؛ لما رأوا من عظيم ما جاء به موسى عليه السلام من البينة مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

١٠- إعلان السحرة إيمانهم بالله رب العالمين، رب موسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وبهذا جمعوا بين توحيد الإلهية بالسجود لله تعالى، وتوحيد الربوبية بإعلانهم هذا، وبهذا كفروا بفرعون ودعواه الربوبية والألوهية.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى وهارون، وللمؤمنين؛ لقوله تعالى:

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، وقول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

١٣- تسلط فرعون على قومه، وتدخله حتى في خصوصياتهم، واعتقاده أنه لا يجوز لهم التصرف إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

١٤- اتهام فرعون للسحرة- لما غلبهم موسى وآمنوا به- بالمكر والتواطؤ مع موسى كذبًا وزورًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

١٥- تهويل فرعون لأمر موسى عليه السلام، وتخويف قومه منه، وأنه سيخرجهم من بلادهم؛ لقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، وهكذا يعمد أهل الباطل للتخويف من الحق وأهله.

١٦- تهديد فرعون للسحرة، وتوعده لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

١٧- عدم اكتراث السحرة بوعيد وتهديد فرعون لهم بالتقطيع والتصليب؛ لتيقنهم بأنهم إلى الله راجعون وما عند الله خير لهم وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

١٨- إثبات البعث ورجوع الخلائق إلى الله تعالى.

١٩- أن فرعون لا ينقم ولا يعيب من السحرة سوى أنهم آمنوا بآيات ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾.

٢٠- سؤال السحرة لربهم أن يفرغ عليهم صبرًا ويعينهم على أذى فرعون؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾، وهكذا ينبغي سؤال الله تعالى العون والصبر على كل ملمة.

٢١- سؤال سحرة فرعون ربهم حسن الخاتمة والوفاة على الإسلام؛ لقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾، وهكذا يجب على كل مسلم سؤال الله حسن الختام.

٢٢- أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يعدل به المرء شيئًا، ويهون كل أمر في سبيله.

٢٣- أن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما دخل معه الآخر؛ لأن السحرة قالوا

أولًا: ﴿ءَامَنَّا﴾، ثم قالوا آخرًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- تحريض الملأ من قوم فرعون له على موسى وقومه بعدم تركهم، واتهامهم لهم بالفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢٥- أن الهوى وانطماس البصائر وانتكاس الفطرة يؤدي إلى قلب الحق باطلًا، والباطل حقًّا، واعتبار الصلاح فسادًا، والفساد صلاحًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ فاعتبروا الفساد في الأرض الدعوة إلى الإيمان بربوبية الله تعالى وإلهيته، وترك تأليه فرعون وعبادته. وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

٢٦- أن فرعون قد سخَّر قومه لعبادته، وأوهمهم أنه ربهم وإلههم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي: يدعك وعبادتك، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

٢٧- تهديد فرعون لموسى وقومه باستئصال أبنائهم، واستحياء نسائهم، وقهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾.

٢٨- دعوة موسى عليه السلام لقومه في هذه المحنة العظيمة للجوء إلى الله تعالى وحده، والاستعانة به، والتوكل عليه، والصبر على أذى فرعون، والثبات على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾.

٢٩- وجوب الاستعانة بالله تعالى والصبر عند المحن والثبات على الحق؛ فإن الفرج مع الكرب، والنصر مع الصبر، ولن يغلب عسر يسرين.

٣٠- بشارة موسى لقومه بالفرج من الله تعالى، وتوريثهم الأرض، وأن العاقبة الحسنى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

٣١- أن من سنن الله تعالى الكونية الثابتة؛ أن العاقبة في الدنيا للمتقين؛ كما أن لهم العاقبة في الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

٣٢- يجب على المؤمن التفاؤل، وحسن الظن بالله، ورجاؤه، والثقة بوعده مهما ادلهمت الخطوب.

٣٣- إخبار بني إسرائيل لموسى بما عانوه من أذى فرعون قبل مبعثه عليه السلام وبعده؛ حيث كان فرعون يسومهم سوء العذاب يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، رجاء أن يدعو لهم موسى بالخلاص من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾.

٣٤- دعوة موسى عليه السلام ورجاؤه لقومه الفرج من ربهم؛ بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض؛ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣٥- حث موسى عليه السلام لقومه على شكر الله تعالى عند إهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض بالعمل بطاعته واجتناب معصيته؛ لقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾، ولهذا قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ تذكيرًا لهم بربوبية الله عز وجل لهم؛ ليشكروه.

٣٦- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾.

٣٧- أن العبرة بكيفية العمل وكونه صالحًا خالصًا لله، موافقًا للشرع، لا بكميته؛ لقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾.

٣٨- أن الله عز وجل لا يُحاسب الخلائق على ما علمه منهم في الأزل وقدّره عليهم، إنما يُحاسبهم بعد أن يقع ذلك منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾.

٣٩- وجوب شكر الله تعالى على ما يوليه من النعم، وما يدفعه من النقم، وبذلك تستقر النعم وتزيد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ
عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما أيد الله به نبيه موسى عليه السلام في دعوته فرعون وقومه من الآيات والمعجزات، وكفرهم بها، وعتوهم وتجبرهم، ثم ذكر في هذه الآيات ما ابتلاهم به من الشدائد والمصائب والعقوبات لعلهم يتذكرون، لكن هذا وذاك لم ينجع فيه، بل استكبروا وازداد كفرهم وعنادهم؛ فانتقم الله منهم وأغرقهم، وأنجى موسى وبني إسرائيل، وأورثهم الأرض من بعدهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾، الواو استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدّر، أي: والله لقد أخذنا آل فرعون، أي: ابتليناهم وأصبناهم واختبرناهم.

﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾، أي: بالنسين الشداد؛ سني الجدب والقحط والجوع؛ كما في دعائه ﷺ على مضر: «**اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١).

قال الشاعر:

دَعَانِيَ مِنْ نَجْدٍ فَإِنَّ سِنِينَهُ ... لَعِبْنَ بِنَا شِيبًا وَشَيَّبْنَنَا مُرْدَا(٢)

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ معطوف على «السنين»، وتنوين «نقص» وتنكيره للتكثير،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للصمة القشيري. انظر: «ديوانه» (ص٦٠).

أي: ونقص كثير من الثمرات، أي: من ثمرات الزروع والحقول والجنات، فيقل إنتاجها بسبب انعدام البركات، وكثرة الجوائح والآفات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، أي: أخذناهم؛ لأجل أن يذَّكروا.

و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أصلها: «يتذكرون»؛ فأدغم التاء في الذال، أي: لعلهم يتَّعظون ويعتبرون وتلين قلوبهم، فيرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد، ويعلموا أن ذلك هو سبب ما أصابهم من السنين والنقص.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، أي: فإذا حصلت لهم الحسنة.

و﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾: ما يستحسنونه ويحبونه ويرغبونه؛ من صحة وخصب ورزق، ونحو ذلك.

﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، اللام في ﴿لَنَا﴾ لام الاستحقاق، أي: هذه الحسنة حق لنا، أي: نحن مستحقون لها، فكفروا نعمة الله تعالى ولم يشكروه عليها، ولم يتذكروا بذلك، بل ازدادوا كفرًا.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: شرطية، و﴿سَيِّئَةٌ﴾ هنا مقابل ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾.

والمراد بها: ما يسوؤهم من جدب وقحط ونقص الثمرات ونحو ذلك.

فالمراد بالحسنة: الحالة الحسنة، والمراد بالسيئة: الحالة السيئة.

والابتلاء قد يكون بالحسنات، وقد يكون بالسيئات، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال الشاعر:

قَـد يُـنْعِمُ اللهُ بِـالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَـتْ ... وَيَبْـتَلِي اللهُ بَعْـضَ القَـوْمِ بِـالنِّعَمِ

وعبَّر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأن حصولها مرغوب مترقب كما يُترقَّب الجائي، وعبر في جانب السيئة بالإصابة؛ لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقُّب.

وفي التعبير بـ«إذا» التي للمُحَقق في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وتعريف «الحسنة» إشارة وتعريض بتكاثر الحسنات- أي: النعم- عليهم من الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

كما أن في التعبير بـ«إن» التي للمشكوك فيه في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وتنكير «سيئة» إشارة إلى قلة حصول السيئات، أي: المكروهات بالنسبة إلى الحسنات؛ ففضل الله أعم وأكثر، وعفوه أوسع.

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، أصلها: «يتطيروا»؛ فأُدغمت التاء في الطاء.

و«التطيُّر»: التشاؤم، وسُمِّي التشاؤم تطيُّرًا أخذًا من التشاؤم بالطيور، وقد كان هذا موجودًا في العرب حتى جاء الإسلام؛ فقد كانوا إذا خرجوا في سفر نظروا ما يلاقيهم أول سفرهم من طائر، فإن طار من جهة اليمين رأوه علامة يُمنٍ، ويسمونه: السانح، وإن طار من جهة اليسار رأوه علامة شُؤمٍ، وتشاءموا به، ويسمونه: البارح.

والتشاؤم: عدُّ الشيء واعتباره مشؤومًا، أي: اعتقاد أن وجوده يكون سببًا في حصول ما يُحزن ويضرّ.

والمعنى: وإن تصبهم سيئة تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: ما أصابتنا هذه السيئة، أي: ما أصابنا هذا الشر؛ إلا بشؤم موسى وأتباعه، أي: إلا بسببهم وما جاؤوا به، كما قال تعالى عن أعداء الرسول ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه واستفتاح، و﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، وهي أداة حصر، أي: ما طائرهم إلا عند الله.

وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إظهار مقام الإضمار، فلم يقل: «عندي»؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل.

والمعنى: إنما أصابهم بقدر الله وقضائه؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه وشؤمهم.

كما قال صالح عليه السلام لقومه لما قالوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، قال:

﴿طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكما قال المرسلون لما قال لهم أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قالوا: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس: ١٨-١٩].

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو أن ما أصابهم وما يصيبهم بقدر الله تعالى عقوبة لهم على كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال فرعون وقومه لموسى عليه السلام: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾، ﴿مَهْمَا﴾: اسم شرط جازم، أي: أيًّا ما تأتينا به من آية، أي: من علامة ودلالة.

﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لتؤثر بها على أبصارنا وعقولنا، وتلفتنا عما نحن عليه من تأليه فرعون وعبادته.

وفي هذا إعلان منهم بأنه قد تقرر عندنا أنك ساحر.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما»: نافية، والباء: للتوكيد، أي: فما نحن لك بمصدقين فيما تدعونا إليه.

فأكدوا نفي إيمانهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، وبالباء الدالة على التوكيد، وبتقديم ﴿لَكَ﴾ على متعلقه ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فقابلوا ما جاءهم به موسى، وما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، وما أيَّد الله تعالى به موسى من الآيات؛ بنفي الإيمان لموسى مهما جاءهم به من الآيات.

وهذا غاية الكفر، والغرور، والمكابرة، والإصرار على الباطل، والعتو، والتمرد، والعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

ذكر عز وجل مكابرة آل فرعون وعتوهم وعنادهم مع ما جاء به موسى من الآيات والمعجزات، وما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، ثم أتبع ذلك بذكر ما

أرسل عليهم من الآفات والعقوبات؛ لعل ذلك ينجع فيهم.

قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ﴾، أي: فأرسلنا على آل فرعون عقوبات لهم.

﴿ٱلطُّوفَانَ ﴾: السيل الجارف العظيم الذي أغرق زروعهم وأشجارهم.

﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾ الذي أكل زروعهم ونباتهم وثمارهم، وهو الحيوان المعروف المباح أكله.

كما قال عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد»[(١)].

وقال ابن عمر رضي الله عنه: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»[(١)].

﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾ اختلف المفسرون في المراد به؛ فذهب بعضهم إلى أنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال كثير منهم: المراد به: «الدبا»: أولاد الجراد الذي لا أجنحة له.

وقال بعضهم: المراد به: الحمنان؛ نوع من القردان عظيم يمتص دم الإنسان والحيوان، وقيل: المراد به القمل المعروف. وقيل غير ذلك.

والمهم في هذا أنه مما سلَّطه الله عليهم وعاقبهم به.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾: جمع «ضفدع»: وهو حيوان يمشي على أربع أرجل ويسحب بطنه على الأرض، يسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه؛ سلط الله عليهم منه جندًا كثيرًا، فكان يقع في مياههم وأسقيتهم وطعامهم وأثاثهم وفرشهم، وآذاهم أذى شديدًا.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ اختلف في المراد به، فقال جمع من المفسرين: المراد به: نزيف الدم من الأنف، وهو رعاف كثير تفشّى فيهم، وقال آخرون: المراد به دم خالط مياههم.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الألفاظ الخمسة، أي: علامات ودلالات على ظلمهم وعلى غضب الله تعالى عليهم، وعلى صدق موسى عليه السلام، وأن ماء جاء به حق وصدق.

﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ صفة لآيات، أي: آيات مبيَّنات موضَّحات، لا شك في كونها آيات، ومفرَّقات، أي: لم تحدث في وقت واحد، بل فُصل بينها، وجُعل بعضها إثر بعض.

فالطوفان أغرق ما بذروه، والجراد أكل ما ظهر من الزروع، والقمل أفسد ما

---

(١) سبق تخريجه.

ادخروه من الحبوب والطعام، والضفادع أفسدت المياه، والدم استنزف ما حصل من الغذاء والطعام الذي أكلوه.

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، الفاء عاطفة، والسين والتاء للمبالغة، أي: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات استكبارًا شديدًا.

﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ معطوف على «استكبروا»، أي: فاستكبروا وأجرموا.

والإجرام: فعل الجرم، أي: وارتكبوا الجرائم؛ من الشرك بالله والكفر، والاستكبار.

وصِيغَ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم وتمكنه منهم، وأنه علة استكبارهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾، الواو استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: حين، فيه معنى الشرط.

﴿ٱلرِّجۡزُ﴾: العذاب. يحتمل أن يكون المراد به الطاعون، كما قال جمع من المفسرين، ويحتمل أن يكون المراد به المذكور بقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ ولهذا عرّف ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ باللام، أي: الرجز المذكور المعهود.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: قالوا متوسلين إلى موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: ادع لنا ربك يكشف هذا الرجز عنا.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي عهد عندك، أو بسبب عهده عندك.

والمعنى: بما عهد عندك من النبوة وأوحى إليك.

﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن كشفت عنا الرجز، أي: والله لئن رفعت عنا هذا العذاب وأزلته ودفعته عنا.

﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: لنصدقنك بما جئت به ودعوت إليه، ونُقر بذلك.

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معطوف على «نؤمنن»، داخل ضمن جواب القسم، وإعادة اللام: للتأكيد، أي: ولنتركن معك بني إسرائيل، أي: نتركهم يذهبون حيث شاؤوا ولا نمنعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾، أي: فحين رفعنا وأزلنا عنهم العذاب.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، أي: إلى زمن مسمى هم بالغوه، وهو بقية حياتهم، ومن ثم إهلاكهم بالغرق.

وفي هذا إشارة إلى أن موسى عليه السلام دعا ربه بكشف الرجز، فكشفه الله عز وجل.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب الشرط: «لمَّا»، و«إذا»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية تفيد معنى المفاجأة.

﴿يَنكُثُونَ﴾، «النكث»: النقض، وأصله نقض المغزول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

فمعنى «ينكثون»: ينقضون.

والمعنى: إذا هم يفاجئون بنقض عهدهم الذي عاهدوا عليه موسى عليه السلام بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل، فلا هم آمنوا به، ولا أرسلوا معه بني إسرائيل؛ بل اتَّبعوهم ليردوهم لما خرجوا ليلًا، فخيَّب الله مسعاهم، وكان في ذلك هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، الفاء في الموضعين: عاطفة، أي: فعاقبناهم عقوبة شديدة؛ لكفرهم وعنادهم ونكثهم العهد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ بيان وتفصيل للانتقام، أي: فأغرقناهم في البحر، في بحر القُلْزُم، المعروف اليوم بـ«البحر الأحمر».

و«القُلْزُم»: بلد كان في شرقي مصر قرب جبل الطور، أُضيف البحر إليه؛ لأنه على طرفه، وهو المعروف الآن بـ«السويس».

والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر ويحبس النفس.

والمعنى: فأغرقناهم في البحر، وذلك لما حان أجل هلاكهم؛ حيث أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٦٦]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٢- ٢٨].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب تكذيبهم بآياتنا، وكونهم ﴿عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: معرضين عنها، وعما دلت عليه من الحق، وعن التفكر فيها ودلالاتها.

وفي هذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التدبر في آيات القرآن الكريم وما فيها من الدلالة على صدق الرسول ﷺ، وعلى أنها حق من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾، أي: وملّكنا القوم الذين كانو يُستضعفون، وهم بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:

٥٩]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾، السين والتاء: للمبالغة، أي: يستضعفهم فرعون وقومه ويسومونهم سوء العذاب؛ يذبِّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستعبدونهم، ويُذلُّونهم، ويُسخِّرونهم في خدمتهم.

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ جوانبها الشرقية والغربية، أي: كلها.

والمراد: أرض الشام، الأرض المقدسة.

﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، أي: التي جعلنا فيها البركة، وهي: الخير الكثير الدائم الثابت؛ حيث جعلها الله مهدًا لأكثر النبوات، وبارك في أرضها بالخصب وسعة الرزق وكثرة ثمارها وخيراتها، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقال السعدي: «والمراد بالأرض ههنا: أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين، أي: ملكهم الله جميعًا ومكَّنهم فيها»[(١)].

ولو قال قائل: المراد بمشارق الأرض: أرض الشام، ومغاربها: أرض مصر؛ لكان محتملًا.

﴿وَتَمَّتْ﴾، الواو عاطفة، أي: وتحققت.

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له ،ﷺ وبشارة له ﷺ بأن ربك الذي حقق نصر موسى وقومه على عدوهم سينصرك وأمتك على عدوكم.

وفي قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: كلمتي؛ تعظيمًا لنفسه

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٤).

عز وجل، وتشريفًا وتكريمًا لنبينا ﷺ بخطابه له، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ وربوبيته الخاصة له.

وكلمات الله تعالى قسمان:

كلمات كونية؛ وهي: ما قدَّره وقضاه كونًا، ولا بد من تحققها ووقوعها.

وكلمات شرعية؛ وهي: ما أمر به أو نهى عنه شرعًا، ولا يلزم تحققها ووقوعها.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لـ﴿كَلِمَتُ﴾، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: على وزن «الفُعْلى»، أي: البالغة منتهى الحسن.

وهي: ما وعده بني إسرائيل من التمكين في الأرض، ونصرهم على عدوهم فرعون على لسان موسى- عليه السلام- كما في قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

ومن ذلك توريثهم الأرض المقدسة والمباركة، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: قدَّرها لكم.

﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكلماته عز وجل كلها حسنى؛ كونية أو شرعية، وما قدَّره وقضاه على بني إسرائيل منها إحسان منه تعالى عليهم.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: ودمَّرنا الذي شاده من المصانع فرعون وقومه، و«التدمير»: التخريب الشديد.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الراء: ﴿يَعْرُشُونَ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَعْرِشُونَ﴾.

والجملة معطوفة على قوله: ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: ودمَّرنا الذي

كانوا يرفعونه ويشيدونه من البناء، من القصور والمساكن والبيوت، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء آل فرعون بالشدائد والجدب والقحط ونقص الثمرات؛ ليتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٢- تأكيد أخبار القرآن بالقسم؛ كما هي عادة العرب في الإقسام على الأخبار تأكيدًا لها.

٣- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع في مواضع كثيرة من هذه الآيات؛ منها قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾، ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾، ﴿وَدَمَّرْنَا﴾.

وأيضًا: في الإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ولم يقل: «عندي»، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولم يقل: «تمت كلمتي»؛ لأنه العظيم حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي**»(١).

٤- كفر آل فرعون بنعم الله وعدم شكرها، ونكرانهم لفضله عز وجل، وزعمهم استحقاقهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾.

٥- تشاؤم آل فرعون بموسى عليه السلام ومن معه، وزعمهم أنه ومن معه سبب ما يصيبهم من السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

٦- في الإتيان بـ«إذا» الدالة على المحقق في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ مع تعريف ﴿الْحَسَنَةُ﴾، والإتيان بـ«إن» التي للمشكوك فيه في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مع تنكير ﴿سَيِّئَةٌ﴾ إشارة واضحة إلى كثرة نعم الله تعالى على العباد، في مقابلة قلة ما يقع عليهم من المصائب؛ فنعمه عز وجل أضعاف أضعاف ما يؤاخذ به من العقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب (٢٦٢٠)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا ختم الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] في إشارة لكثرة نعمه تعالى على العباد، وختم آية إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] في إشارة لقلة الشاكرين.

٧- أن الابتلاء كما يكون بالشدة والضراء، يكون أيضًا بالرخاء والنعماء؛ ولهذا ابتلى الله آل فرعون بالحالين، لكن ذلك لم ينجع فيهم.

٨- الرد على آل فرعون في تطيرهم بموسى ومن معه، وبيان أن ما يصيبهم من سيئة إنما هو بقدر الله تعالى؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٩- فساد فطر آل فرعون وإغراقهم في الضلال؛ حيث اعتقدوا الشؤم في موسى وما جاءهم به من البينات والهدى؛ فعكسوا الأمر واعتبروا الخير شرًّا؛ لفساد فطرهم وخذلانهم. وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

١٠- أن أكثر آل فرعون لا يعلمون أن ما يحصل لهم من المصائب إنما هو بقضاء الله وقدره؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١١- في نفي العلم عن أكثرهم دون أن يقول: «ولكنهم لا يعلمون»؛ إشارة إلى أن بعضهم قد يعلمون، لكنهم يسايرون الأكثرين فيما يقولون ويفعلون.

كما أن في ذلك إرشادًا إلى أن الأولى ألا تُحمل الأحكام على الكل، وبخاصة الأحكام التي تتعلق بالأمم أو الأقوام والطوائف الكثيرة؛ فقد يكون من بينهم من لا يرى رأيهم.

١٢- شدة تمرد آل فرعون، وعتوهم واستكبارهم، وإصرارهم على الكفر، وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

١٣- إعلان آل فرعون لموسى عليه السلام أنه تقرر عندهم أنه ساحر.

١٤- تتابع إرسال العقوبات والنُّذُر والآيات المفصَّلات على آل فرعون ليتوبوا، لكن ذلك أيضًا لم ينجع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

١٥- أن آل فرعون لم يزدادوا بما أرسل عليهم من العقوبات والآيات إلا استكبارًا وإجرامًا على إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

١٦- توسل آل فرعون إلى موسى عليه السلام ليدعو ربه لكشف الرجز عنهم، ووعْدُهم بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

١٧- أن آل فرعون يعلمون أن موسى مرسل من ربه، وإن كانوا لا يؤمنون به ولا بربه؛ كما يعلمون أن ما وقع عليهم من الرجز بسبب عدم إيمانهم به وعدم إرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

١٨- كشف الله عز وجل الرجز عن آل فرعون إلى وقت حدده لهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾.

١٩- نكث آل فرعون ما قطعوه على أنفسهم من العهد بالإيمان بموسى وإرسال بني إسرائيل معه إن كشف الرجز عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾.

٢٠- مشابهة ما حصل من آل فرعون من العهد والنكث لحال كثير من المشركين؛ من الإيمان وقت الشدة، والكفر في الرخاء، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢١- انتقام الله عز وجل من آل فرعون وإغراقهم في البحر؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾.

٢٢- إثبات الاختيار للإنسان؛ لأن النكث والتكذيب والإعراض فعلهم؛ لهذا انتقم الله منهم وعاقبهم على ذلك بإغراقهم. وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان لا اختيار له.

٢٣- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن ما يقع من الانتقام والعقوبات بسبب

التكذيب بآيات الله والغفلة عنها والذنوب والمعاصي، وذلك عدل من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

٢٤- التحذير من التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، وأن ذلك سبب لغضب الله تعالى وانتقامه.

٢٥- توريث بني إسرائيل- بعد أن كانوا مستضعفين- أرض الشام الأرض المقدسة المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٢٦- أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٢٧- لطف الله تعالى ببني إسرائيل، وإنقاذه لهم من استعباد وإذلال آل فرعون لهم، وإحسانه تعالى إليهم.

٢٨- أن وراثة الأرض وراثةً شرعية إنما هي لعباد الله المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٢٩- أن الله بارك في أرض الشام الأرض المقدسة؛ حيث جعلها مهدًا لكثير من الرسالات والنبوات السماوية، وبارك في ثمارها وخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٣٠- أن بعض الأرض أكثر بركة من بعض؛ كما أن بعضها أفضل من بعض.

٣١- إثبات كلمات الله تعالى التي هي في غاية الحسن؛ وهي قسمان: كلمات كونية، وكلمات شرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافته اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣٣- تحقق ما وعد الله تعالى به بني إسرائيل من الوعد الحسن بتمكينهم في الأرض، ونصرهم على فرعون وقومه؛ بسبب صبرهم على أذاه وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

٣٤- فضيلة الصبر، وحسن عاقبته، والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال ﷺ: «**وَإِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»(١).

٣٥- تدمير ما كان يشيد فرعون وقومه من المصانع، وما كانوا يبنون ويرفعون من القصور والمساكن والبيوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

٣٦- البشارة للرسول ﷺ والمؤمنين الصابرين، والنذارة للمكذبين، وأن العاقبة للمتقين، والعقوبات والبوار والدمار للكافرين؛ وتلك سنة الله تعالى في الأولين والآخرين: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى
ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩
قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ
يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ
عَظِيمٞ ١٤١ ۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ
لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ
قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ
وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ
حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة بعثَهُ موسى عليه السلام بالآيات إلى فرعون وملئه، وظلمهم وتكذيبهم بها، واتهامهم موسى عليه السلام بالسحر، وما جعل الله تعالى على يديه من الآيات البينات، وأخذهم بالسنين ونقص الثمرات، وبالحسنات والسيئات، ومكابرتهم وعنادهم، وما عاقبهم الله به من أنواع العقوبات، إلى أن انتقم سبحانه منهم وأغرقهم.

ثم أتبع ذلك بذكر قصص بني إسرائيل وما أحدثوه بعد تخليصهم من فرعون ومشاهدتهم الآيات ومجاوزتهم البحر؛ من عبادة العجل، وأنواع الكفر والمعاصي، والتبديل والتحايل على أمر الله، مع ما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، وأنواع العقوبات.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾:

قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، أي: جعلناهم يجاوزن البحر، أي: يمرون به ويقطعونه ويبتعدون عنه.

و«البحر»: هو بحر القُلْزُم، البحر الأحمر، وهو المراد بـ«اليم» في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦]؛ ولهذا جاء هنا مُعرَّفًا بـ«أل»، أي: البحر المذكور بـ«اليم» الذي أغرقنا فيه فرعون وقومه.

وفي قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ امتنان من الله تعالى عليهم بإنجائهم وإغراق عدوهم فرعون.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: فمروا على قوم، قيل: إنهم من الكنعانيين والعمالقة.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي والوراق عن خلف: «يَعْكِفُونَ» بكسر القاف، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يَعْكُفُونَ﴾.

والمعنى: يقيمون على عبادة أصنام لهم، ويلازمونها، ويتبركون بها، قيل: كانت على صور البقر.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، أي: اصنع لنا معبودًا نعبده ونلازمه ونتبرك به.

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، أي: كما لهؤلاء القوم ﴿ءَالِهَةٌ﴾، أي: أصنام يعبدونها.

والمعنى: اجعل لنا إلهًا مماثلًا لآلهتهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: قال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: تجهلون عظمة الله تعالى وجلاله، وما ينبغي أن ينزَّه عنه من الشريك والمثيل، وأنه لا تجوز العبادة إلا له عز وجل.

وفي قوله: ﴿قَوْمٌ﴾ دلالة على عموم جهلهم وتأكيده، والعجب من ذلك.

وأكَّد وصفهم بالجهل بـ«إن»، وكون الجملة اسمية؛ للدلالة على عظيم جهلهم ورسوخه.

وأي جهل أعظم من جهل الإنسان بربه وخالقه، وأن يشرك به غيره مما لا ينفع ولا يضر؟! هذا مع ما رأوا من الآيات العظيمة والعبر والبينات على يدي نبي الله موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ الإشارة للقوم الذين يعكفون على أصنام لهم.

والجملة بمعنى التعليل لمضمون قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

و«التبار»: الخسران والهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، أي: هلاكًا ودمارًا وخسارًا.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية.

و«البطلان»: الضياع والزوال، أي: وضائع زائل الذي كانوا يعملونه، أو عملهم، أي: أنهم لا يثابون عليه ولا ينفعهم.

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «**قُلْتُمْ- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ؛ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام ردًّا على بني إسرائيل.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتعجب، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به لـ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ قُدِّم عليه: للاختصاص والمبالغة في الإنكار، و﴿إِلَٰهًا﴾ تمييز، والمعنى: أسوى الله أجعل لكم إلهًا؟ أي: معبودًا.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الجملة حالية، أي: والحال أنه فضلكم على العالمين، أي: وهو قد جعلكم أفضل عالمي زمانكم؛ بأن خصَّكم من الفضائل بما لم يعطه لأحد من عالمي زمانكم ولا لمن سبقوكم؛ حيث جعل منكم الرسل والأنبياء، وخلَّصكم من فرعون وعذابه واستعباده، وأورثكم الأرض وأيَّدكم، وبعث فيكم رسولًا يقيم فيكم الشريعة، إلى غير ذلك من عظيم نعمه تعالى ومننه عليكم؛ مما يوجب

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٤١٠-٤١١)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٥٣).

عليكم شكره تعالى وإفراده وحده بالعبادة دون سواه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

هذا أيضًا من أعظم نعم الله تعالى على بني إسرائيل، ولهذا ذكَّره في هذه النعمة عنا، وفي سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وفي سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قرأ ابن عامر: «وَإِذْ أَنْجَاكُمْ» فيكون هذا من تتمة كلام موسى عليه السلام، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقرأ الباقون: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾، ومقتضى السياق قبله وبعده أن يكون من كلام موسى أيضًا، ويعضده قراءة ابن عامر وآية سورة إبراهيم.

ويحتمل أن يكون الكلام مستأنفًا من كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه: ٨٠].

قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾، الواو عاطفة، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين» يتعلق بمحذوف، أي: واذكروا حين أنجيناكم من آل فرعون، أي: خلَّصناكم وأنقذناكم من فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: يوقعون فيكم أسوأ العذاب وأقبحه، ويهينونكم.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ هذا بيان وتفسير؛ لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

قرأ ابن عامر بفتح الياء وإسكان القاف وضم التاء من غير تشديد: ﴿يَقْتُلُونَ﴾،

وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾.

و«التقتيل»: المبالغة في القتل، أي: ويقتلون مواليدكم الذكور ويستأصلونهم.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: ويستبقون المواليد الإناث؛ للخدمة والعمل عندهم ونحو ذلك.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: وفي إنجائنا لكم من آل فرعون وعذابهم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نعمة من ربكم عظيمة جليلة، ومنحة جزيلة.

ويحتمل أن تكون الإشارة لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: وفيما تلقونه من سوء العذاب من آل فرعون بقتل أبنائكم واستحياء نسائكم.

﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ من حيث كيفه وكمِّه ونوعه؛ لما فيه من الإهانة والإذلال والتسلط عليكم، والاستئصال لكم.

والمعنى: وفي ذلكم اختبار وامتحان من ربكم عظيم.

والابتلاء يكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ … وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بِالنِّعَمِ

قال السعدي: «فلما ذكَّرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك»(١).

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾:

قال السعدي: «ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٦).

أراد تبارك وتعالى أن يُتِمَّ نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة أتمها بعشر فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى ويتهيأ لوعد الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوّق إلى نزولها»[1].

قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾ قرأ أبو عمرو: «وَوَعَدْنَا» بدون ألف بين الواو والعين، وقرأ الباقون: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ بالألف.

وهذا من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وامتن بها عليهم، بل هي أعظمها، وهي النعمة الكبرى، نعمة وعد الله تعالى موسى عليه السلام لميقات ربه ومناجاته وهدايتهم، أي: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة لمناجاة ربه.

﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، أي: وأتممنا الليالي الثلاثين بعشر ليال.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أضاف ﴿مِيقَٰتُ﴾ إلى ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ للتشريف. والمعنى: فبلغ ميقات ربه الذي وقَّته لمناجاته أربعين ليلة، أي: أربعين ليلة بأيامها؛ لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

والمعنى: صار أكمل وأفضل؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، أي: وقال موسى لما عزم على الذهاب إلى ميقات ربه لمناجاته.

﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ موصيًا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته.

﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾، أي: كن خلفًا عني فيهم بما كنت أعمل إلى أن أرجع.

﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، أي: واسلك طريق الإصلاح، بحملهم على الإخلاص لله واتباع الحق.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: ولا تتبع طريق المفسدين بمخالفة الحق، واتباع الباطل، وفعل المعاصي.

وفي هذا النهي عن اتباع سبيل المفسدين تأكيد للأمر بالإصلاح.

وقد جمع موسى في هذه الوصية ملاك السياسة؛ فإن سياسة الأمم تقوم على محورين: الإصلاح، ومحاربة الفساد، أي: إبعاد الناس عن الشر بالبيان والتحذير منه،

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٦).

وإبعاد الشر عنهم.

وفي قول موسى لهارون- عليهما السلام-: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ما قد يشير إلى وجود مفسدين في القوم، وإلى تخوُّف موسى عليه السلام من ضعف هارون أمامهم، كما قال هارون: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وكما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢- ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾، الواو عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: حين، أي: ولما حضر موسى لوقتنا الذي وقَّتنا له وحددناه للمناجاة.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أي: وكلمه ربه وخاطبه من غير واسطة ملك، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وهذا مما خص الله تعالى به موسى من بين سائر الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ جواب «لمَّا»، أي: لما أتى موسى لميقات ربه وكلّمه ربه من وحيه وأمره ونهيه؛ اشتاق عليه السلام إلى رؤية ربه محبة له؛ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، أي: يا رب، أرني أنظر إليك.

وفرق بين سؤاله عليه السلام رؤية ربه محبة له واشتياقًا، وبين سؤال بني إسرائيل الرؤية مكابرة وعنادًا لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿قَالَ﴾، أي: قال عز وجل لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، أي: لن تراني في الدنيا؛ لأنك لا تقدر على الثبات لرؤيتي في هذه الدار.

و«لن» لا تدل على دوام النفي وتأبيده، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن انظر إلى الجبل؛ فإن ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يندك ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، أي: تثبت لرؤيتي، وإلا فلا طاقة لك بذلك.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، أي: ظهر عز وجل للجبل مع شدته وصلابته.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «دَكَّاءَ» بالمد والهمز مفتوحًا من غير تنوين، وقرأ الباقون بالتنوين وغير مد ولا همز: ﴿دَكًّا﴾.

أي: جعله منهالًا متفتتًا منهدًّا مستويًا في الأرض، فلم يستقر مكانه.

قال ابن القيم: «إن الله سبحانه أراد أن يُريَ موسى ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانًا؛ لصيرورة الجبل دكًّا عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجلٍّ»(١).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، أي: وقع مغشيًّا عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الغشي، والإفاقة: رجوع الإدراك بعد زواله بغشي أو نوم أو سكر أو جنون.

﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، أي: رجعت وأنبت إليك من جميع الذنوب، ومن أن أسألك الرؤية وما لا يليق سؤاله، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أول المؤمنين من بني إسرائيل، أو أقوى المؤمنين إيمانًا، وبأنه لا يراك أحد من خلقك في هذه الدار. وعلى هذا المعنى يستثنى محمد وإبراهيم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٦٦).

عليهما الصلاة والسلام، فمحمد ﷺ أفضل الخلق وأقواهم إيماناً، وبعده إبراهيم عليه السلام، ثم موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾، أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: الموجودين في عهده، أو على الناس عمومًا، لكن يُخص من هذا العموم نبينا محمد ﷺ؛ فهو أفضل الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وسيد الأولين والآخرين؛ كما يُخص من هذا إبراهيم الخليل عليه السلام؛ فهو أفضل من موسى عليه السلام.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين؛ فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله؛ فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تخيّروني على موسى؛ فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق؛ فأجد موسى ممسكًا بجانب العرش؛ فلا أدري: أكان ممّن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممّن استثناه الله عزّ وجلّ**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**لا تخيّروني من بين الأنبياء؛ فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق؛ فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش؛ فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطّور**»(٢).

وهذا- والله أعلم- محمول على النهي عن التفضيل بينهم على وجه التعصب أو لمجرد الهوى والتشهي، ومثل هذا قوله ﷺ: «**ولا أقول: إنّ أحدًا أفضل من يونس بن**

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في الديات، إذا لطم المسلم اليهودي (٦٩١٧).

متّى»(١).

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وروح عن يعقوب: «بِرِسَالَتِي» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ بالجمع؛ باعتبار ما اشتملت عليه الرسالة من التكاليف والأوامر والنواهي ونحو ذلك.

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾، أي: وبكلامي إياك من غير واسطة.

وهذه فضيلة اختص الله تعالى بها موسى من بين سائر الأنبياء والمرسلين؛ ولهذا يقال له: موسى الكليم.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، «ما» موصولة، أي: فخذ الذي أعطيتك من الرسالة والكلام والشريعة ومن النعم؛ بالقبول وانشراح الصدر.

وفي هذا امتنان بنعمته عز وجل على موسى عليه السلام، ولهذا قال بعده.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: لله تعالى بطاعته والمسارعة إلى مرضاته على ما خصك به وفضَّلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ تعظيمًا لنفسه؛ لأنه العظيم حقًّا؛ فهو عز وجل الذي كتب التوراة بيده، كما قال ﷺ: «**وكتب لك التّوراة بيده**»(٢).

﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾، ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ جمع «لوح»: وهو في الأصل القطعة من الخشب مربعة أو مستطيلة.

قيل: وكانت الألواح التي كتبت فيها التوراة من حجارة نقشت عليها الكتابة نقشًا.

﴿مِن كُلِّ﴾، ﴿مِن﴾ تبعيضية، أي: بعضًا من كل شيء، مما تحتاجه الأمة؛ كقوله

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٥)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

﴿مَّوْعِظَةً﴾ حال، أي: حال كون ذلك موعظة، والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةً﴾، أي: وحال كون ذلك تفصيلًا لكل شيء، أي: بيانًا لكل شيء مما تحتاجه الأمة، من بيان الحلال والحرام، والأمر والنهي، وتبصير الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ الجملة في موضع نصب بفعل مقدر، أي: قلنا له: خذها بقوة، والفاء: عاطفة، والضمير يعود إلى الألواح، والباء: للملابسة، أي: فخذ هذه الألواح بالعمل بما فيها بعزم وجد واجتهاد.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، أي: وأمر قومك يعملوا ويتمسكوا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾.

وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وصف مسلوب المفاضلة، مقصود به المبالغة في حسنها كلها، لا أن بعضها حسن وبعضها أحسن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

فالمعنى: وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها.

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَٰسِقِينَ﴾ الخطاب لموسى ومن معه، و«الإراءة» هنا بصرية.

﴿دَارَ الْفَٰسِقِينَ﴾: مسكنهم ومكان نزولهم وإقامتهم، كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

يحتمل أن معنى قوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَٰسِقِينَ﴾: الوعد لهم بدخول الأرض المقدسة وفتحها، ونصرهم على الجبابرة الذين كانوا فيها.

ويحتمل أن المراد: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله تعالى، المخالفين

لأمره، وأن مصيرهم إلى النار دار البوار.

وفي هذا تهديد ووعيد للفاسقين، أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، وهي المصير إلى النار.

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾:

أي: سأصرف عن الإيمان بآياتي الكونية والشرعية، وعن التفكر والاعتبار بها ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: سأصدهم عن ذلك وأحول بينهم وبينها كونًا وقدرًا؛ بسبب تكبرهم في الأرض بغير الحق، أي: تكبرهم عن قبول الحق، وتكبرهم على الخلق، كما قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحقّ، وغمط النّاس**»(١).

فلا ينتفعون بالآيات ولا يعتبرون بها، بل ربما انقلبت عندهم الحقائق؛ فرأوا الحق باطلًا، والباطل حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

والتعبير بالموصول في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ ليشملهم هذا الوصف وما عُطف عليه، ويشمل غيرهم ممن اتصف بهذه الصفات؛ كمشركي مكة.

وفي قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة لشيوع تكبرهم وأثره، وانتشار ضرره؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، وقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لمصدر محذوف، [البقرة: ٢٧، الرعد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: تكبراً بغير الحق، وهو: وصف كاشف؛ لأن التكبر في الأرض لا يكون بحق، وفي هذا زيادة التشنيع عليهم.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾، ﴿كُلَّ﴾ بمعنى: الكثرة، أي: وإن يروا ويشاهدوا كثيرًا من الآيات كونية أو شرعية.

(١) سبق تخريجه.

﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، أي: لا يصدقوا بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. ولله الحكمة في ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: «الرَّشَدِ» بفتح الراء والشين، وقرأ الباقون: ﴿الرُّشْدِ﴾ بضم الراء وإسكان الشين.

أي: وإن يظهر لهم طريق الهدى والاستقامة والصلاح والنجاة الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهو طريق الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: لا يسلكوه ولا يجعلوه لهم طريقًا.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: وإن يظهر لهم طريق الفساد والضلال والهلاك يجعلوه لهم طريقًا ومسلكًا.

وهذه- والله- غاية الجهل والحمق وانطماس البصيرة، وغاية الخذلان.

وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ تعليل لما قبله، والإشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

الباء: للسببية؛ أي صرفهم عن آيات الله، وعن الإيمان بها والتفكر والاعتبار فيها، وجعلهم يتكبرون في الأرض بغير الحق، ويعرضون عن الآيات وعن سلوك طريق الرشد، ويتخذون سبيل الغي سبيلاً بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها.

أي: ذلك بسبب أنهم كذبوا بقلوبهم وألسنتهم بآياتنا، أي: جحدوها وأنكروها.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾، أي: وبسبب أنهم كانوا عنها غافلين، أي: غافلين عن التفكر فيها، والتدبر لها، والعمل بها بجوارحهم عن قصد

منهم وإصرار واستمرار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: وكذبوا بلقاء الله تعالى في الآخرة، وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، أي: بطلت أعمالهم فلا تنفعهم لفقدان شرط قبولها؛ وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بلقائه وجزائه، فهم لا يرجون ثوابًا، ولا يخشون عقابًا.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الاستفهام مشرب بمعنى النفي، أي: لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: إلا عملهم أو إلا الذي كانوا يعملونه، أي: لا يجزون إلا الذي كانوا يعملونه من الأعمال الباطلة الظاهرة والباطنة، وهو: الخلود في النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بمنة الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من الغرق ومجاوزتهم البحر، وما أحدثوه بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

٢- وجود عبادة الأصنام في ذلك العهد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾.

٣- جهل بني إسرائيل عظمة الله تعالى، وما يجب أن يُنزه عنه من الشريك والمثيل، وأنه لا تجوز العبادة إلا له، وبطلان ما عليه أهل الشرك؛ لقولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، ولهذا أجابهم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

٤- خطر التقليد الأعمى ووجوب الحذر منه، وأنه أمر موجود في الناس منذ القدم.

٥- خسران المشركين وبطلان عملهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٦- إنكار موسى عليه السلام على بني إسرائيل قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾، وتعجبه من سؤالهم هذا مع ما أولاهم الله من النعم؛ بتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من آل

فرعون وعذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

٧- أنه لا إله للخلق ولا معبود لهم بحق إلا الله تعالى.

٨- وجوب شكر نعم الله تعالى؛ بعبادته وحده لا شريك له، وطاعته.

٩- تفضيل بني إسرائيل على عالمي زمانهم؛ لقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٠- نعمة الله تعالى ومنته على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من آل فرعون وتعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

١١- عظم ما لقيه بنو إسرائيل من الابتلاء والعذاب والإهانة على يدي آل فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٢- أن إنجاء بني إسرائيل من تعذيب آل فرعون نعمة من الله تعالى عليهم عظيمة، ومنحة جليلة؛ تستوجب منهم شكرًا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٤- التذكير بوعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة لمناجاته، وإتمامها بعشر، وتمام ميقاته ربه أربعين ليلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

١٦- استخلاف موسى لأخيه هارون عند ذهابه لمناجاة ربه؛ شفقة منه على بني إسرائيل، وحرصًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾.

١٧- وصية موسى لأخيه هارون بما هو ملاك السياسة، وهو: الإصلاح، والحذر من اتباع سبيل المفسدين؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٨- إثبات تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

١٩- اشتياق موسى عليه السلام إلى رؤية ربه محبة له، وسؤاله ذلك؛ لقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

وفرق بين هذا وبين سؤال بني إسرائيل الرؤية مكابرة وعنادًا وتكذيبًا حين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

٢٠- أن رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

أما رؤيته عز وجل في الآخرة فإنها ثابتة للمؤمنين، ومحجوبة عن الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته**»(١).

وقال تعالى في حق الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقد استدل ابن القيم رحمه الله بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة يوم القيامة من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بموسى كليم الرحمن أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو أبطل الباطل، وأعظم المحال.

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه.

الوجه الثالث: أنه أجاب بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: «لا تراني»، ولا: «إني لست بمرئي»، ولا: «لا تجوز رؤيتي»، وهذا يدل على أنه تبارك وتعالى يُرى، لكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٧).

يوضحه **الوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار؛ فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلق من ضعف.

الوجه الخامس: أن الله تعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته.

الوجه السادس: قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ فإذا جاز أن يتجلى للجبل- الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب- فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟!

الوجه السابع: أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز؛ ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم»(١).

٢١- أن رؤية الله تعالى في الدنيا مما لا يستطيعه البشر ولا يثبتون أمامه، لا هم ولا غيرهم من المخلوقات في الدنيا مهما كانت قوتها كالجبال ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

٢٢- ثبوت تجلي الله عز وجل للجبل، وعدم استقرار الجبل أمام ذلك، واندكاكه وتفتته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

٢٣- سقوط موسى عليه السلام على الأرض مغشيًّا عليه؛ لِمَا رأى من اندكاك الجبل وتدهدهه أمام عظمة الله عز وجل؛ بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾.

٢٤- تنزيه موسى عليه السلام لربه عما لا يليق بجلاله؛ لقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

٢٥- إعلان موسى عليه السلام توبته عن الذنوب، وعن سؤال الرؤية، أو سؤال ما لا يليق سؤاله؛ لقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

٢٦- إعلان موسى عليه السلام أنه أول المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾،

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

أي: من بني إسرائيل، أو: من أقوى المؤمنين إيمانًا، أو: من أول المؤمنين بأن رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة.

٢٧- اصطفاء الله عز وجل لموسى عليه السلام وعلى الناس برسالاته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾.

والمراد بالناس: أهل زمانه.

وإن حمل ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على عموم الناس؛ فيخص من هذا نبينا محمد ﷺ؛ فهو أفضل الرسل وسيد الأولين والآخرين؛ كما يخص منه إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن؛ فهو أفضل من موسى عليه السلام.

٢٨- جواز التفضيل بين الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ فموسى عليه السلام أفضل الناس وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ وإبراهيم الخليل عليه السلام.

وفي هذا دلالة على أن ما جاء من نهي النبي ﷺ عن التخيير بين الأنبياء، أو النهي عن تفضيله ﷺ على الأنبياء، أو على موسى، أو على يونس بن متى؛ إنما هو محمول على ما كان على وجه التعصب، أو بمجرد الرأي والتشهي.

٢٩- اصطفاء الله تعالى موسى وتخصيصه بكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ولهذا يقال له: «كليم الرحمن»، «موسى الكليم».

٣٠- أن الفضل لله تعالى يؤتيه من يشاء؛ فقد خص نبينا محمدًا ﷺ بأن جعله أفضل الرسل وخاتمهم، وسيد الأولين والآخرين؛ كما خص إبراهيم عليه السلام بأن اتخذه خليلًا، وخص موسى عليه السلام بتكليمه عز وجل له؛ كما خص بني إسرائيل بتفضيلهم على عالمي زمانهم، وخص أمة محمد ﷺ بجعلها خير الأمم.

وصدق الله العظيم: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

٣١- امتنان الله عز وجل على نبيه موسى عليه السلام بما آتاه من الرسالة والكلام والشريعة، وأمره تعالى له بأخذ ذلك وشكره؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٣٢- أن الله عز وجل كتب التوراة التي أنزلها على موسى في الألواح بيده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ**»[(١)].

٣٣- امتداح الله عز وجل لما كتبه في الألواح؛ لعمومه لكل شيء مما يُحتاج إليه، مما فيه الترغيب والترهيب، وتفصيل الأحكام، وبيان الحلال والحرام، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾.

٣٤- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بأخذ الألواح، والعمل بما فيها بعزم وجد واجتهاد، وأمر قومه بالأخذ بأحسنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾.

٣٥- أن ما كتبه الله تعالى في الألواح كله حسن؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾، أي: يأخذوا بها.

٣٦- وعد الله تعالى لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وفتحها، ونصرهم على الجبابرة الذين فيها، وأن يريهم دار الفاسقين الخارجين عن طاعته، وأن عاقبة هؤلاء ومصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ على الاحتمالين للآية.

٣٧- وعيد الله عز وجل بالصرف عن الإيمان بآياته والتفكر فيها للمتكبرين في الأرض بغير الحق، المكذبين بالآيات، المعرضين عن طريق الرشد، السالكين سبيل الغي؛ لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾.

٣٨- أن سبب صرف هؤلاء عن الإيمان بالآيات والتفكر فيها، ووقوعهم فيما وقعوا فيه من الكبر وعدم الإيمان بالآيات، وترك طريق الرشد وسلوك طريق الغي؛ كل ذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وغفلتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٩- حبوط وبطلان أعمال المكذبين بالآيات ولقاء الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

٤٠- أن كل إنسان إنما يُجزى بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾:

ذكر عز وجل في الآيات السابقة مجيء موسى لميقاته عز وجل ومناجاته وتكليمه عز وجل له، وما في ذلك من الآيات والعبر، ثم أتبع ذلك بذكر ما حصل من قومه في مدة مغيبه للمناجاة؛ من اتخاذهم العجل والإشراك بالله.

قوله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾، ﴿مِنۢ﴾ لابتداء الغاية، أي: من بعد ذهابه ومغيبه عنهم لميقات ربه ومناجاته؛ كما هو معلوم من قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ قرأ يعقوب بفتحِ الحاءِ وإسكانِ اللامِ وتخفيفِ الياءِ: «حَلْيِهِمْ»، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الحاء وكسر اللام وتشديد الياء مكسورة: «حِلِيِّهِمْ»، وقرأ الباقون بذلك مع ضم الحاء: ﴿حُلِيِّهِمۡ﴾.

و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ تبعيضية، أي: من بعض حليهم، أي: ذهبهم الذي جمعوه أو استعاروه.

﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: ﴿عِجۡلٗا﴾ مفعول أول لـ«اتخذ» و«العجل» هو: ولد البقر قبل أن يصير ثورًا.

والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا.

﴿جَسَدًا﴾ صفة لـ﴿عِجْلًا﴾، ويقوي هذا قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، أو بدل من ﴿عِجْلًا﴾.

و«الجسد»: الجسم الذي لا روح فيه ولا حياة، أي: جسداً على هيئة وصورة العجل.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ في محل نصب: صفة لـ﴿عِجْلًا﴾.

و«الخوار»: صوت البقر، بحيث يدخل الهواء في تجويف هذا الجسد ويخرج من ثقب فيه فيحصل هذا الصوت؛ كما في صنعة الصفارة والمزمار.

والمعنى: وجعل قوم موسى- من بعد ذهابه لميقات ربه ومغيبه عنهم- عجلًا جسدًا له خوار إلهًا ومعبودًا لهم، وعكفوا على عبادته من دون الله، كما قالوا: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

وكان الذي صاغه وصنعه لهم السامري، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧- ٨٨].

وقال تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦- ٩٧].

وقد أخبره الله عز وجل بذلك وهو على الطور بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، الاستفهام: للإنكار والتقرير والتعجب.

والرؤية علمية، وقيل: بصرية.

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، أي: ولا يدلهم طريقًا.

والمعنى: ألم يروا أن هذا العجل- الذي اتخذوه إلهًا ومعبودًا- لا يكلمهم فيأمرهم بالخير أو ينهاهم عن الشر، ولا يدلهم طريقًا رشادًا يسعدون بسلوكه، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وعدم الكلام من أعظم النقص؛ فكيف يتخذون معبودًا لا يتكلم ولا يهديهم طريقًا، ولا ينفع ولا يضر، ولا يملك لهم موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

ولهذا فإن من أنكر كلام الله تعالى فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى الذي يكلم أنبياءه

ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير والهدى، ويحذرهم من سبل الشرور والردى.

قال ابن القيم: «نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهًا»(١).

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾؛ لتأكيد ذمهم والتعجب منهم؛ كما يُقال: نعم اتخذوه. ولتُبنى عليه جملة: ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، الواو: استئنافية، أي: وكانوا في السابق ظالمين.

ويجوز أن تكون عاطفة على قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾، أي: اتخذوه وظلموا.

ويجوز أن تكون حالية، أي: اتخذوه والحال أنهم كانوا ظالمين بهذا العمل.

و«الظلم»: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم: الشرك بالله تعالى، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وكانوا ظالمين في الشرك بالله ووضع العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾، الواو: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: وحين سُقط في أيديهم، أي: ندموا على عبادتهم العجل.

يُقال لكل نادم على أمر فات أو عاجز عن شيء: أسقط في يده.

وخصت الأيدي؛ لأن العمل يُضاف إليها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾، أي: وتبين لهم وعلموا وتيقنوا.

﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾: ﴿قَدۡ﴾ للتحقيق، أي: أنهم قد تاهوا عن الحق والهدى فيما اتخذوه من عبادة العجل، تبين لهم ذلك بعد أن رجع موسى وأنكر عليهم ذلك ورأوا شدة غضبه عليهم.

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦٧).

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب ونصب «رَبَّنَا» على النداء: «لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا».

وقرأ الباقون بالغيب ورفع ﴿رَبُّنَا﴾ على أنه فاعل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾.

واللام في قوله: ﴿لَئِن﴾: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا.

والمعنى: أنهم لما علموا وتحققوا ضلالهم فيما حصل منهم من عبادة العجل؛ تابوا وتضرعوا إلى الله تعالى، وأقسموا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا من الشرك وعبادة العجل، وتوفيقنا للإيمان والعمل الصالح، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: ويستر ذلك علينا، ويتجاوز عن عقوبتنا على ذلك؛ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقُدِّمت الرحمة على المغفرة؛ لأنها سببها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، و﴿مِنَ﴾ تبعيضية، وهذا أبلغ وأقوى في إثبات عظم خسارتهم من لو قال: «لنكونن خاسرين».

والمعنى: لنكونن في عداد الخاسرين كل الخسران الذين خسروا الدنيا والآخرة، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، أي: وحين رجع موسى إلى قومه بعد مناجاة ربه.

﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ حالان، أي: حال كونه غضبان أسفًا على قومه لما أحدثوه بعده من عبادة العجل؛ لأن الله تعالى أخبره أنه قد فتنهم من بعده؛ قال تعالى في سورة طه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣- ٨٥].

و﴿غَضْبَانَ﴾: على وزن «فعلان» صيغة مبالغة، أي: ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم؛ غضبًا لله تعالى، وغيرة لدينه عز وجل، ونصحًا لقومه، وشفقة عليهم.

﴿أَسِفًا﴾ على وزن «فَعِل»: صيغة مبالغة، أي: شديد الغضب. و«الأسف»: شدة الغضب؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويجوز أن يكون معنى ﴿أَسِفًا﴾: حزينًا على ما آل إليه حال قومه.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، ﴿بِئْسَمَا﴾، «بئس»: فعل لإنشاء الذم، و«ما»: نكرة موصوفة، أي: بئس خلافة خلفتمونيها خلافتكم.

وهذا منه خطاب لهارون ووجوه القوم، أو لجميعهم؛ لما أحدثوه من بعده من عبادة العجل.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ للتذكير بالبون الشاسع بين الحال التي كانوا عليها معه، وحالهم بعد مغيبه.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، الاستفهام: للإنكار، أي: أستعجلتم وبادرتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ أي: وعده وميقاته لي أربعين يومًا، فلم تصبروا إلى تمامها.

أو استعجلتم أسباب غضبه، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ويدل على هذين المعنيين قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾، أي: وألقى الألواح على الأرض؛ إظهارًا للغضب على قومه.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره الله عز وجل أنّ قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلمّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح**»(١).

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، أي: وأمسك بشعر أخيه هارون يجره إليه موجدة منه عليه؛ لظنه أنه قصَّر في نهيهم والإنكار عليهم، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٧٠)، والحاكم (٢/ ٣٢١)، وذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٧٥).

إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢- ٩٤]، أي: ولم ترقب قولي لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر بكسر الميم: «ابْنَ أُمِّ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾، أي: يا ابن أمي.

وإنما قال هارون لموسى عليهما السلام: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون ذلك أرأف وأنجع عنده، واستعطافًا له برحم الأم وحقها العظيم؛ وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾، أي: احتقروني وعدُّوني ضعيفًا، ولم يُصغوا لنهيي لهم عن الشرك وأمري لهم بعبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]؛ حيث قالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، أي: وقاربوا يقتلونني، أي: إني أنكرت عليهم ولم أقصر؛ حتى إنهم من شدة إنكاري عليهم كادوا يقتلونني ليتخلصوا مني.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾، الفاء: للتفريع.

و«الشماتة»: سرور الأعداء والحُسَّاد بما يصيب المرء، وهي من أشد الأمور وأقساها وقعًا على النفس؛ ولهذا قيل:

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ(١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ(٢)

وقال آخر:

إِذَا مَا المَوْتُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا

(١) البيت أنشده ابن الاعرابي، كما في «الكشف والبيان» (٢/ ٣٠٩)، وينسب لابن أبي عيينة، كما في «محاضرات الأدباء» (١/ ٣١٤).

(٢) البيت بلا نسبة، كما في «الكشاف» (٢/ ٥٢٥).

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا(١)

وفي الحديث: «**لا تظهر الشّماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**»(٢).

والمعنى: فلا تُفرح عليَّ الأعداء بعتابك وتأنيبك لي، مع تحذيري للقوم وإنذاري لهم وإعذاري منهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: ولا تصيرني في عداد القوم الظالمين؛ ظانًّا أني منهم، أو تظهرني منهم؛ فتؤنبني وتعاقبني معهم مع براءتي منهم ومما ارتكبوه من الشرك وعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾، أي: قال موسى عليه السلام داعيًا ربه، بعد أن تحقق براءة ساحة أخيه هارون مما وقع فيه بنو إسرائيل، وإنذاره وإعذاره منهم.

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾، أي: استر علينا وتجاوز عنا.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾، أي: عُمنا واشملنا برحمتك، واجعلها تحيط بنا من كل جانب؛ لنحصل على كل خير، وننجو من كل شر.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: ﴿أَرْحَمُ﴾ على وزن «أفعل»: صيغة تفضيل، أي: لا أحد أرحم منك؛ لأنه عز وجل أرحم بالخلق من أمهاتهم ومن آبائهم ومن أنفسهم.

وفي الحديث: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: إن الذين جعلوا العجل إلهًا من دون الله.

﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ السين حرف استقبال، أي: سيصيبهم غضب، كما

(١) البيتان لذي الأصبع العدواني. انظر: «ديوانه» (ص٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي، في صفة القيامة، (٢٥٠٦) وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]. ونكّر ﴿غَضَبٌ﴾ للتعظيم.

﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ صفة لـ﴿غَضَبٌ﴾، أي: كائن من ربهم ذي العزة والجبروت عظيم الانتقام، أي: سيصيبهم غضب عظيم من ربهم؛ كما أغضبوه بعبادة العجل واستهانوا بأمره، وغضبه عز وجل سبب لانتقامه، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: هوان وصغار في الحياة الدنيا.

وقد نال عبدة العجل ما نالهم من غضبه عز وجل؛ حيث جعل من شرط قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾، الكاف: للتشبيه، أي: وكما جازينا من عبدوا العجل بالغضب والإذلال في الحياة الدنيا؛ فمثل ذلك نجزي المفترين، أي: نجزي الكاذبين على الله تعالى بجعل الشريك والصاحبة والولد وغير ذلك.

وفي هذا دلالة على أن عبدة العجل مفترون، وأن من عمل عملهم فهو مفترٍ، وأن الجزاء بالغضب والذلة عام لكل مفتر على الله الكذب مشرك بالله؛ لأن الله عز وجل أبى أن تكون العزة إلا له ولأوليائه، فالعز كل العز في طاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية الله تعالى.

قال سفيان بن عيينة: «كل صاحب بدعة ذليل»[1].

وقال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين»[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾﴾:

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٤٦٥).

(٢) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٧٥). **والهملجة:** حسن سير الدابة في سرعة. **والطقطقة:** صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة.

بعد أن توعد عز وجل الذين اتخذوا العجل بغضبه وبالذلة في الحياة الدنيا، وبيَّن أن هذا جزاء المفترين، نبه تعالى عباده على قبوله التوبة ممن عملوا السيئات؛ ترغيبًا لهم في التوبة والإنابة إليه؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: والذين عملوا الأعمال السيئة من شرك وكبائر وصغائر.

وسميت هذه الأعمال سيئات؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره.

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للعطف مع التراخي، أي: ثم تابوا من بعد السيئات، أي: رجعوا وأنابوا إلى الله تعالى من بعد أن عملوا السيئات.

﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾، أي: وجددوا الإيمان وثبتوا عليه وأخلصوا؛ لأن الإنسان في كل لحظة يحتاج إلى الإيمان وتجديده والثبات عليه والإخلاص فيه؛ لهذا قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد توبتهم.

﴿لَغَفُورٌ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لغفور لهم ولغيرهم من التائبين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم؛ يستر سيئاتهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم ويرحمهم.

فمن تاب من عمل السيئات فتوبته مقبولة- بإذن الله تعالى- وإن تأخرت، ما دامت بوقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾، أي: وحين سكت عن موسى الغضب، أي: سكن غضبه.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي كان ألقاها من شدة الغضب على قومه.

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: وفيما نُسخ فيها، أي: كُتب فيها، ﴿هُدًى﴾

إرشاد وبيان للحق، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، كائنة ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أو لأجل الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أي: يخافون، وعُدِّي الفعل ﴿يَرْهَبُونَ﴾ باللام؛ لأنه ضمن معنى «يخضعون».

أي: وكتب في هذه الألواح إرشاد وبيان للحق ورحمة من الله عز وجل ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أي: يخضعون له ويخافونه ويخشونه.

وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين يقبلون هدى الله وينقادون له.

الفوائد والأحكام:

١- اتخاذ بني إسرائيل العجل وعبادتهم له بعد مغيب موسى وذهابه لميقات ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

٢- جهل بني إسرائيل وعنادهم؛ فهم مع ما رأوا من الآيات العظيمة الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته؛ لم ينجع فيهم ذلك؛ ولهذا سرعان ما وقعوا في الشرك.

٣- حاجة الناس إلى من يرعى أحوالهم ويقوِّمهم على الحق ممن يجمع بين العلم والقوة؛ فإن بني إسرائيل إنما وقعوا فيما وقعوا فيه حين غاب عنهم موسى عليه السلام، واستضعفوا هارون عليه السلام.

٤- أن اتخاذ التصاوير والتماثيل كانت من أعظم أسباب ضلال كثير من الخلق ووقوعهم في الشرك.

٥- الإنكار على عبَّاد العجل؛ كيف يعبدون ما لا يكلمهم ولا يدلهم على خير ولا ينفعهم ولا يضرهم؟! لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

٦- أنه إنما يستحق العبادة من له صفات الكمال وحده، الذي يكلِّم رسله وأنبياءه، ويهدي إلى كل خير، وبيده النفع والضر؛ وهو الله عز وجل وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

٧- إثبات الكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه يكلم رسله وأنبياءه، ويكلم أولياءه في الجنة. وأن من أنكر كلام الله عز وجل فقد أنكر خصائص إلهيته عز وجل.

٨- ظلم بني إسرائيل بإشراكهم بالله وعبادتهم العجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

٩- أن مِن أظلم الظلم الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

١٠- ندم بني إسرائيل بعد أن تبين لهم ضلالهم في عبادتهم العجل، وذلك بعد رجوع موسى إليهم وغضبه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾.

١١- توجُّه بني إسرائيل بطلب الرحمة والمغفرة من ربهم لما فرط منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى لخلقه- ربوبية خاصة وعامة- لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾، وقوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

١٣- أن التوسل والدعاء بصفة الربوبية من أنجع الأدعية وأقربها إجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾، وبذلك كان يدعو الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

١٤- أن الرحمة سبب للمغفرة؛ لهذا قدمت عليها في الآية.

١٥- إقرار بني إسرائيل وإقسامهم على كونهم من الخاسرين إن لم يرحمهم ربهم ويغفر لهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٦- أن الخسران كل الخسران في ضياع نصيب الإنسان من رحمة ربه ومغفرته، وموته على الشرك.

١٧- رجوع موسى عليه السلام غضبان أسفًا على قومه؛ غيرة لربه؛ لما أحدثوه بعده من الشرك وعبادة العجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

١٨- أن الغضب لانتهاك حرمات الله تعالى أمر مشروع؛ لأن الله عز وجل لم يُعاتب موسى على ذلك، لكن ذلك مشروط بأن يكون في حدود الشرع.

وقد كان نبينا ﷺ لا ينتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تُنتهك حرمات الله

فينتقم لله[1].

١٩- تقبيح موسى عليه السلام لصنع قومه وما خلفوه به بعد مغيبه، وإنكاره عليهم استعجال أمر ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

٢٠- إلقاؤه عليه السلام الألواح من شدة الغضب على قومه.

٢١- إمساك موسى عليه السلام بشعر رأس أخيه وجره إليه موجدة عليه؛ لظنه أنه قصَّر في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل وفي الإنكار عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

٢٢- مناداة هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ استعطافًا له برحم الأم وحقها العظيم.

٢٣- اعتذار هارون عليه السلام مما فعله بنو إسرائيل، وأنه لم يأل جهدًا في نصحهم، لكنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه لما أنكر عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾.

٢٤- التماس هارون وطلبه من أخيه موسى عليهما السلام ألا يُشمت به الأعداء بعتابه وتأنيبه له، وألا يجعله ويظهره أمام الناس من القوم الظالمين؛ لقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٥- ابتهال موسى عليه السلام إلى ربه، بعد أن تبين له إعذار أخيه هارون من بني إسرائيل وبراءته مما أحدثوه من الشرك، وسؤاله لنفسه ولأخيه المغفرة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل هو أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢٧- غضب الله عز وجل على عبدة العجل، وإذلاله لهم في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غضب وذل لا يفارقهم إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٨- إثبات صفة الغضب لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ فهو عز وجل يغضب على من أغضبه بانتهاك حدوده وحرماته، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٢٩- أن اتخاذ شريك مع الله هو أعظم الافتراء على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

٣٠- الوعيد لجميع المفترين على الله تعالى باتخاذ شريك معه ونحو ذلك بالغضب والذلة في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

٣١- ذل أصحاب البدع والمعاصي مهما ادعوا لأنفسهم العزة؛ لأن الله عز وجل قضى عليهم بالذلة، وكتب العزة له ولأوليائه.

٣٢- جمع القرآن بين الترهيب والترغيب؛ لأن الله لما ذكر غضبه على المفترين وإذلالهم؛ أتبع ذلك بقبول توبة التائبين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾.

٣٣- سعة عفو الله تعالى وفضله، وقبوله التوبة ممن تاب ولو تراخت، ما دامت في وقتها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٣٤- الترغيب في التوبة، والحث عليها، والإغراء بها.

٣٥- لا بد من تحقق شروط التوبة وكونها خالصة لله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ ﴾.

٣٦- حاجة المؤمن كل لحظة إلى الإيمان وتجديده والثبات عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ ﴾.

٣٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى، وصفة الرحمة الواسعة له سبحانه، وأنه يغفر لمن تاب من عباده ويرحمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقوله تعالى قبل هذا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

٣٨- أخذ موسى عليه السلام الألواح لما سكن غضبه؛ عناية بها واشتغالًا بالأهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

٣٩- أن الغضب- وإن كان لذات الله ولأجل انتهاك حرماته- إذا زاد عن حد الشرع قد يؤدي إلى مفسدة أكبر؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: أوصني. قال له: «**لا تغضب**». ردد ذلك(١).

٤٠- اشتمال هذه الألواح على الهدى والرحمة وأسبابهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

٤١- أنه إنما يستفيد من كتب الله تعالى وينتفع بها أهل الخوف منه عز وجل دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

٤٢- الترغيب في الخوف من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ الواو استئنافية، ﴿قَوْمَهُ﴾ منصوب على نزع الخافض، أي: من قومه.

﴿سَبْعِينَ﴾ مفعول لـ«اختار» منصوب بالياء، ﴿رَجُلًا﴾ تمييز.

والمعنى: واختار موسى من خيار قومه سبعين رجلًا للوقت والأجل الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم؛ للتوبة والاعتذار لقومهم مما فعل سفهاؤهم من عبادة العجل.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، ﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة والصاعقة، وهلكوا.

واختلف في سبب أخذهم بالرجفة، فقال جمع من المفسرين: لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويدل على هذا قول موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

وقيل: لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقيل غير ذلك[١].

---

(١) انظر: (جامع البيان) (١٠/ ٤٦٩-٤٧٣)، (تفسير ابن أبي حاتم) (٥/ ١٥٧٤).

﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال موسى: يا رب ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾، ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: حين عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم، ومن قبل هذا الوقت الذي جاءوا فيه للتوبة والاعتذار عن قومهم، والله أعلم.

يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا قد وسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم؛ فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

﴿وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، الاستفهام: للاستعطاف، والباء: للسببية، و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: بسبب فعل السفهاء منا، أو بسبب الذي فعله السفهاء منا؛ من عبادة العجل.

ومفاد قول موسى هذا: أنك يا رب لا تهلكنا بما فعل السفهاء؛ لأنك لا تأخذ أحدًا بذنب غيره.

و«السفهاء»: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف، والمراد به هنا: السفيه في الدين.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هي إلا فتنتك، والضمير ﴿هِىَ﴾ يعود إلى ما فعله السفهاء من عبادة العجل.

و«الفتنة»: الابتلاء والامتحان، وتكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: ما هي إلا ابتلاؤك وامتحانك وتقديرك؛ فما الأمر إلا أمرك، وما الحكم إلا حكمك.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾، الباء: للسببية، و«مَن»: موصولة، أي: ﴿تُضِلُّ﴾ بسبب فتنتك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ بعدلك، ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ بفضلك.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أي: متولي أمورنا، القائم بجلب المنافع لنا ودفع الضر عنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاستر ذنوبنا، وتجاوز عنا.

﴿وَٱرْحَمْنَا﴾، أي: واشملنا برحمتك الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ رحمة تحفظنا بها من الذنوب والشرور، وتولي بها علينا النعم؛ فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

وقدِّمت المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، ولا يتم التنعم بالمطلوب إلا

إذا زال المرهوب.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، أي: وأنت خير من ستر وتجاوز، لا يغفر الذنوب إلا أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

تغفر الذنوب جميعًا مهما كثرت وعظمت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السّماء ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرةً**»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

والمعنى: وأوجب لنا وأعطنا في هذه الدنيا حسنة؛ بتوفيقنا للعلم النافع، والعمل الصالح، والرزق الواسع.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: واكتب لنا وأعطنا في الآخرة حسنة بالمثوبة الحسنى والجنة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى مجيبًا موسى في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ...﴾ الآية.

﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، أي: عذابي أصيب به الذي أشاء بعدلي؛ كما أن رحمتي: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

هذا في مقابل قول موسى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾، وفي هذا وعد وتعريض بحصول الرحمة له ولهم.

أي: ورحمتي وسعت كل شيء تفضلًا مني، وهذا كما قال حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

---

(١) سبق تخريجه.

وعن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عنانها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا تشرك في رحمتنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أتقولون: هذا أضلّ أم بعيره؟! ألم تسمعوا إلى ما قال؟!**»؟!» قالوا: بلى. قال: «**لقد حظرت رحمةً واسعةً، إنّ الله عز وجل خلق مئة رحمةٍ، فأنزل رحمةً واحدةً يتعاطف بها الخلق؛ جنّها وإنسها وبهائمها، وأخّر عنده تسعًا وتسعين رحمةً، أتقولون: أضلّ هو أم بعيره**»(١).

وعن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إنّ لله عز وجل مئة رحمةٍ؛ فمنها رحمةٌ يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ لله مئة رحمةٍ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعًا وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٣).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله عز وجل مئة رحمةٍ؛ فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق، فبه يتراحم النّاس والوحوش والطّير**»(٤).

هذه رحمته عز وجل العامة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

أما رحمته الخاصة؛ فهي ما ذكره تعالى بقوله:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الفاء: عاطفة، والسين: للاستقبال والتحقيق، أي: فسأوجبها تفضلًا مني ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٩)، وأبو داود في الأدب مختصرًا (٤٨٨٥).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٩).
(٣) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٢).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٥٥)، وابن ماجه في الزهد، ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٤).

والمعنى: فسأوجبها وأخص بها المتصفين بهذه الصفات.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون زكاة أموالهم للمستحقين لها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: والذين هم بآياتنا الكونية والشرعية يصدِّقون، وينقادون للعمل بها ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الجملة في محل جر بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين يتبعون. وقد قُطع عن النعت؛ للمدح.

و«أل» في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان؛ محمد ﷺ.

﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ صفة لـ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ فهو ﷺ نبي رسول، وقدم وصف الرسول؛ لأنه الوصف الأخص والأهم.

﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ نعت لـ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه من أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

وهو وصف خُصَّ به النبي محمد ﷺ من بين الأنبياء؛ إظهارًا لكمال وتمام إعجاز ما جاء به من الوحي.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾، ﴿مَكْتُوبًا﴾ حال.

﴿عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، أي: يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل باسمه وصفاته ونعوته التي لا يشبهه فيها غيره، والتي من أعظمها وأجلها أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾، ولم يقل: يجدون وصفه؛ للدلالة على أنهم يجدون وصفًا لا يقبل الالتباس ولا يتطرق إليه الشك بحال.

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بالإيمان بالله وتوحيده، والعمل بشرعه، والأخذ بمكارم الأخلاق، وكل ما هو معروف في الشرع والعقل والفطرة السليمة.

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما أُنكر في الشرع والعقل والفطر السليمة؛ من الكفر والشرك والظلم والمعاصي ومساوئ الأخلاق وغير ذلك.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: ويحل لهم كل ما هو طيب، أي: كل ما يُستلذ ويُستطاب من الذبائح والمآكل والمشارب وغير ذلك.

ومن ذلك إحلال ما حرَّموه على أنفسهم مما لم ينزل الله به سلطانًا؛ من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك. وكل ما أحله الله تعالى فهو طيب.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، أي: ويحرم عليهم كل ما هو خبيث ضار بالبدن والعقل والدين والعرض والمال؛ من الذبائح والمآكل والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال؛ كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه. وكل ما حرم الله فهو خبيث.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ﴿آصَارَهُمْ﴾ بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ بالإفراد.

«الإصر»: الثقل أو الميثاق الثقيل.

و«الأغلال»: جمع غُل؛ وهو القيد الشديد يكون في الرقبة أو اليد؛ قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

والمعنى: يزيل ويحط عنهم الآصار والأغلال، أي: المواثيق الشديدة التي أخذت عليهم، فيما حرم عليهم، وفيما كلِّفوا به من التكاليف الشاقة والثقيلة.

أي: إنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ورفع الحرج في الدين، كما قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفيّة السّمحة**»(١).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه (٦/ ١١٦، ٢٣٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ**»(١).

وقال ﷺ: «**إنّ الله تجاوز لي عن أمّتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل**»(١).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾، أي: فالذين صدَّقوا بهذا الرسول النبي الأمي محمد ﷺ واتبعوه ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، أي: وقروه وعظموه، وأيدوه وقووه.

ومن ذلك إظهار أهل الكتاب ما في كتبهم من البشارة به ﷺ وتصديقه والدعوة إلى اتباعه.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أعانوه بأموالهم وأنفسهم على جهاد أعدائه ونشر دينه، ومنعوه منهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: واتبعوا القرآن الذي أنزل ببعثته ﷺ؛ بتصديق أخباره، والعمل بأحكامه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات العظيمة.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة لعلو شأنهم، ورفعة منزلتهم.

وأكد الفلاح وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، أي: أولئك هم المفلحون دون غيرهم.

وفي هذا تنويه بفضيلة أصحاب رسول الله ﷺ، وبكل من اتبع النبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

لما دعا أهل التوراة والإنجيل من بني إسرائيل إلى اتباعه ﷺ، وكان ربما يتوهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم؛ أتبع ذلك ببيان عموم رسالته ﷺ.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ. وفي هذا دلالة على أنه مبلغ عن الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ نداء لجميع بني آدم على اختلاف لغاتهم وألوانهم؛ العربي والعجمي، الأحمر والأسود، الموجودين منهم حال نزول الآية، ومن سيوجد إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في ذكر ما حصل بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من مغاضبة، فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إنّي قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فقلتم: كذبت، وقال أبو بكرٍ: صدقت**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وكان النّبيّ يبعث إلى قومه، وبعثت إلى النّاس عامّةً**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والّذي نفس محمّدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمّ يموت ولم يؤمن بالّذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النّار**»(٣).

بل إن هذا العموم يشمل الجن؛ للأدلة على أنه ﷺ رسول للثقلين، وأن الجن مكلفون بالإيمان بأصول الدين كالإنس.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، وقد أُكِّد هذا الخبر بـ«إن» في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأعراف (٤٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٥٠).

وبقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ لأن في المخاطبين من ينكر رسالته ﷺ، وفيهم من ينكر عمومها؛ كبعض أهل الكتاب، ولأن الرسل قبله ﷺ كان الرسول منهم يُبعث إلى قومه خاصة.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي له ملك السموات والأرض.

أو في محل نصب لفعل محذوف على المدح، أي: أعني الذي له ملك السموات والأرض.

وعلى التقديرين؛ فالجملة دالة على الثناء عليه عز وجل، وكذلك قوله بعدها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

وقُدِّم الخبر: ﴿لَهُۥ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: له وحده.

﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: بيده الإحياء والإماتة، وكامل الحكم والتدبير.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم بالإيمان به.

أي: فصدقوا بقلوبكم وألسنتكم بالله ورسوله، وانقادوا بجوارحكم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان برسوله: شهادة أن محمدًا رسول الله، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

والإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول؛ كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله؛ ولهذا قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أعاد وصفه بهذا؛ تأكيدًا للثناء عليه وبيان فضله، ولاختلاف المقام؛ فالمقام الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ في وصف أتباعه.

وهذا المقام: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ في وصفه ﷺ والثناء عليه، والأمر بالإيمان به.

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: الذي يؤمن ويصدق بالله وكلماته

الشرعية، وهي كتبه ووحيه إلى رسله، وكلماته الكونية القدرية في الكون، ومن ذلك خلق عيسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤١].

﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾، أي: واقتدوا به، واقتفوا أثره، واسلكوا طريقه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم، وتصلح أمور دينكم ودنياكم وأخراكم.

الفوائد والأحكام:

١- اختيار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه للتوبة والاعتذار عن قومهم في عبادة العجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾.

٢- أخذهم بالرجفة وإهلاكهم، قيل: بسبب عدم مزايلتهم لقومهم وعدم إنكارهم عليهم عبادة العجل، وقيل: بسبب قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أو لغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

٣- توسل موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل أن يسع قومه بعفوه ومغفرته؛ كما وسعهم من قبل؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

٥- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾، وقوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾.

٦- فضيلة موسى عليه السلام، وقوة يقينه وإيمانه بربه وبنفوذ مشيئته في خلقه؛ لقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

٧- أن الله لا يأخذ أحدًا بجريرة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فهذا استعطاف من موسى عليه السلام مفاده: إنك يا رب لا تهلك أحدًا بذنب غيره.

٨- أن مخالفة أمر الله تعالى ورسله- بارتكاب الشرك والمعاصي- من السفه المؤدي

إلى الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

٩- ابتلاء الله تعالى للعباد وامتحانه لهم بالشر والخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾.

١٠- أن لله عز وجل كمال التدبير في خلقه؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، وله الحكمة البالغة في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾.

١١- تفويض موسى عليه السلام أمره إلى الله تعالى هو وقومه، واعتمادهم على الله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

١٢- دعاء موسى عليه السلام ربه بالمغفرة والرحمة له ولقومه؛ لقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

١٣- ثناء موسى عليه السلام على ربه وتعظيمه له بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

١٤- في تفويض موسى عليه السلام أمره إلى ربه عز وجل، واعتماده عليه، ودعائه إياه أن يغفر له ويرحمه- وهو كليم الرحمن، وثالث أولي العزم من الرسل- دلالة على حاجة جميع الخلق إلى الله تعالى، ووجوب توكلهم على الله تعالى وحده، والتضرع إليه بطلب المغفرة والرحمة.

١٥- مشروعية الدعاء بطلب خير الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٦- توبة بني إسرائيل ورجوعهم إلى الله وإنابتهم إليه؛ لقول موسى عليه السلام معتذرًا لهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

١٧- الترهيب من عذابه عز وجل، والترغيب في طلب رحمته، وتأكيد أن له إتمام التدبير، وله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

١٨- سعة رحمة الله تعالى لكل شيء، وعمومها لكل حي؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

١٩- كتابة الله عز وجل رحمته الخاصة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات

الله ويتبعون رسوله، وإيجابها لهم تفضلًا منه وكرما؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

٢٠- فضيلة تقوى الله، وإيتاء الزكاة، والإيمان بآيات الله، واتباع الرسول ﷺ، والحث على الاتصاف بهذه الصفات، والثناء على أهلها.

٢١- امتداح الذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله باتباعهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

٢٢- فضيلة نبينا ﷺ، وعظم منزلته عند ربه؛ حيث جمع له بين وصف الرسالة والنبوة، وامتدحه بقوله: ﴿الْأُمِّيَّ﴾، وكرر ذلك؛ إظهارًا لكمال صدقه، وتمام إعجاز ما جاء به من الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

٢٣- بشارة التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ وتصديقهما له؛ باشتمالهما على صفاته ونعوته ودعوته، وما يأمر به وما ينهي عنه، وما يحله لهم وما يحرمه عليهم، وما يضعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

٢٤- التنويه بما تضمنته دعوته ﷺ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الآصار والأغلال، ورفع الحرج في الدين.

٢٥- الإشارة لما اشتملت عليه كتب بني إسرائيل من الآصار والأغلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

٢٦- فضل صحابة رسول الله ﷺ وجميع المؤمنين الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ووعدهم بالفلاح، بل وحصر الفلاح وتأكيده فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ومفهوم هذا أن من عداهم هم الخاسرون.

٢٧- الترغيب في الإيمان به ﷺ وتوقيره ومناصرته، واتباع النور الذي أنزل معه.

٢٨- إثبات علو الله تعالى بذاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٢٩- أن القرآن منزل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٣٠- أن القرآن نور يهدي من اتبعه إلى الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

٣١- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾.

٣٢- اختصاص الله عز وجل بملك السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣٣- تفرده عز وجل بالإلهية وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣٤- إثبات قدرته عز وجل التامة على الإحياء والإماتة، وأن ذلك بيده وحده؛ لقوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

٣٥- وجوب الإيمان بالله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٣٦- ثناء الله عز وجل على النبي ﷺ بإيمانه بالله تعالى وكلماته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٣٧- وجوب اتباعه ﷺ والتأسي به بالإيمان بالله وكلماته، وأن بذلك الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

لما ذكر في الآيات السابقة جملة من معائب بني إسرائيل من عبادة العجل وغير ذلك، فربما توهم متوهم أن هذا يعمهم جميعًا، فاحترز بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ومن أتباع موسى عليه السلام على دينه قبل بعثة محمد ﷺ؛ لأنهم بعد بعثته ﷺ لا يسمون قوم موسى، فمن آمن منهم به ﷺ فهو من أمة محمد ﷺ، ومن لم يؤمن به منهم فهو من سائر بني إسرائيل واليهود.

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يهتدون بالحق ويتبعونه، ويهدون الناس إليه، ويدلونهم عليه.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، أي: وبالحق يعدلون في حكمهم بين الناس، فيحكمون بينهم على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ

أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾، أي: وفرقناهم وقسمناهم، وهو هنا محمود؛ لتكثيرهم ونمائهم، وتوسعة عليهم.

﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، أي: ثنتي عشرة فرقة، ﴿أَسْبَاطًا﴾ حال أو بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، أو من تمييز محذوف تقديره: فرقة.

والمعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة متعارفة، متوالية بعدد أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر، كل واحد من أبناء يعقوب قبيلة.

﴿أُمَمًا﴾ بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾، أو نعت له، ونكِّرت للتكثير والتعظيم، أي: أممًا كثيرة عظيمة، وفي هذا امتنان عليهم بكثرتهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

كقوله في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الآية: ٦٠].

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، أي: حين طلب منه قومه في التيه أن يدعو الله أن يسقيهم ما يشربون منه وتشرب منه مواشيهم.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، «أن» تفسيرية. فالجملة لا محل لها من الإعراب تفسير لـ«أوحينا».

ويجوز كون «أن» حرفًا مصدريًّا، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول لـ«أوحينا».

والمراد بقوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾: عصا موسى عليه السلام المعروفة، والتي هي من الآيات التي أعطيها موسى عليه السلام.

﴿ٱلْحَجَرَ﴾، «أل» للجنس، أي: أيَّ حجر، وقيل: المراد حجر معين.

والأول أولى؛ لأنه أبلغ، ولا دليل على تعيّنه.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، أي: فضربه، فانفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

جارية سارحة، و﴿عَيْنًا﴾ تمييز.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أي: قد علم أناس من هذه الأسباط والقبائل الاثني عشر مشربهم الخاص بهم، فلكل سبط وقبيلة منهم عينٌ يشربون منها، لا يزاحمهم عليها غيرهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

كقوله في سورة البقرة مخاطبًا لهم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ٥٧].

قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، أي: وظللنا عليهم السحاب يقيهم من حر الشمس.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو شيء يشبه الصمغ، طعمه كالعسل والحلوى.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طائر من أحسن الطيور وألذها طعمًا، يشبه السماني.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الأمر: للامتنان والإباحة، أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم، أي: أعطيناكم من الحلال والمستلذات.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وما ظلمونا حين لم يشكروا الله ويقوموا بما أوجب عليهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث حرموها من الخير والمثوبة، وعرضوها للشر والعقوبة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٥٨].

قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، أي: واذكر لبني إسرائيل حين قيل لآبائهم وسلفهم: اسكنوا هذه القرية، أي: ادخلوها واجعلوها لكم سكنًا وموطنًا.

والمراد بالقرية: بيت المقدس؛ كما في قوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:

٢١]، وكانت كثيرة الأشجار وغزيرة الثمار، رغيدة العيش؛ ولهذا قيل لهم:

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وفي آية البقرة: ﴿رَغَدًا﴾؛ لزيادة الامتنان عليهم، أي: كلوا منها من أي مكان شئتم؛ من وسطها، أو أطرافها، أو غير ذلك.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، أي: وقولوا: حط عنا ذنوبنا.

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي: وادخلوا باب القرية حال كونكم ساجدين لله تعالى خاضعين له؛ شكرًا لله تعالى على نصره لكم وفتحه.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾، ﴿نَّغْفِرْ﴾ مجزوم جواب الطلب.

قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: «تُغْفَرْ» بالتاء والبناء للمجهول، ورفع ﴿خطيئاتُكُمْ﴾ على أنه نائب فاعل.

وقرأ ابن عامر كذلك مع إفراد «خَطِيئَتُكُمْ».

وقرأ أبو عمرو: «نَغْفِرْ» بالنون والبناء للفاعل، و«خَطَايَاكُمْ» بجمع التكسير.

وقرأ الباقون: ﴿نَّغْفِرْ﴾ بالنون والبناء للفاعل كذلك، ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمْ﴾ بجمع المؤنث السالم.

والمعنى: نستر خطيئاتكم وذنوبكم، ونتجاوز عنكم.

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد أن وعدهم بمغفرة الخطايا وزوال المرهوب، وعدهم بالزيادة وحصول المطلوب.

والسين في قوله: ﴿سَنَزِيدُ﴾ للاستقبال، أي: وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: سنزيدهم على مغفرة الخطايا والذنوب بمضاعفة الأجور.

وفي هذا ترغيب بالإحسان بنوعيه، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى

ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ رِجۡـزًا مِّنَ ٱلسَّـمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُـقُونَ﴾ [الآية: ٥٩].

قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ فقالوا: «حبة في شعيرة» استهانة منهم بأمر الله تعالى، ولم يقولوا: «حطة» كما أمرهم الله بذلك بقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾.

وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبديلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا الباب يزحفون على أستاههم، ولم يدخلوه سجدًا كما أمرهم الله تعالى بذلك.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡـزًا مِّنَ ٱلسَّـمَآءِ﴾، أي: فأرسلنا عليهم عذابًا شديدًا من السماء، إما تقديرًا وواقعًا بحيث جاءهم العذاب من فوقهم، أو تقديرًا فقط؛ لأن تقدير كل شيء عنده عز وجل في السماء.

﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب ظلمهم بتبديلهم قولًا غير الذي قيل لهم، ومخالفتهم أمر الله، كما قال تعالى في البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ﴾، ولهذا ختم آية البقرة بقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، فجمع لهم بين وصف الظلم والفسق بسبب تبديلهم قول الله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة القرآن الكريم أن من قوم موسى عليه السلام وأتباعه على دينه؛ أمة يهتدون بالحق ويتبعونه، ويهدون به ويرشدون إليه، وبه يعدلون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

٢- إنصاف القرآن الكريم بهذه الشهادة لقوم موسى عليه السلام، والاحتراز من أن يُظن أنهم كلهم على ضلال.

٣- تفريق قوم موسى عليه السلام وتقسيمهم إلى اثنتي عشرة سبطًا وقبيلة وإلى أمم كثيرة عظيمة، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾.

٤- الامتنان على قوم موسى عليه السلام بالأمن المائي؛ بوحيه عز وجل إليه حين استسقاه قومه بضرب الحجر وانفجار اثنتي عشرة عينًا لكل سبط وقبيلة عين معلومة لهم، لا يزاحمهم عليها غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾.

٥- في انفجار هذه العيون من الحجر آية من آيات الله العظيمة، ودلالة على تمام قدرته عز وجل، ومعجزة لموسى عليه السلام.

٦- الامتنان عليهم بتظليلهم بالغمام والسحاب يقيهم الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾.

٧- الامتنان عليهم بإنزال المن والسلوى مأكولًا لهم من أفضل وألذ أنواع الأطعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

٨- تمام نعم الله تعالى على قوم موسى؛ بحصول الأمن النفسي بتكثيرهم وجعلهم قبائل متآلفة، والأمن المائي بتفجير العيون لهم، والأمن الغذائي بإنزال المن والسلوى عليهم، وهذه من أعظم النعم على الخلق؛ ولهذا امتن عليهم بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٩- إباحة الطيبات؛ وهي: كل ما يُستلذ مما أحله الله تعالى.

١٠- أن الرزق كله من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذا يوجب شكره عز وجل على ذلك.

١١- كفر قوم موسى لنعم الله تعالى، وظلمهم لأنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٢- أن الله عز وجل لا تضره معصية العاصي؛ كما لا تنفعه طاعة المطيع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾.

١٣- التذكير بقوله تعالى وأمره لقوم موسى بسكنى بيت المقدس، والأكل منها حيث شاؤوا، وطلب حط ذنوبهم، ودخول الباب سجدًا؛ لمغفرة ذنوبهم وزيادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- تبديل الذين ظلموا من قوم موسى قولًا غير الذي قيل لهم؛ فبدل أن يقولوا: «حطة» قالوا: «حنطة، حبة في شعيرة»، وبدل أن يدخلوا الباب سجدًا دخلوا يزحفون على أستاههم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

١٥- عقوبة الله تعالى لهم بإرسال رجز من السماء عليهم بسبب ظلمهم؛ لقوله

تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

هذا السياق بسط وبيان لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الآية: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، أي: واسأل- يا محمد- هؤلاء اليهود الذين بحضرتك والمجاورين لك.

ووجه السؤال إليهم- والله أعلم- لأن هذه القصة- فيما ذُكر- ليست في كتبهم، وإنما مما يرويه أحبارهم، وكانت مما يحاولون كتمانه، أي: واسألهم سؤال تقرير وتقريع وتوبيخ.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، أي: عن أهل القرية من آبائهم وأسلافهم من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: واسأل أهل القرية.

ولهذا قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾، والمراد بالقرية: «أيلة»، وهي بين «مدين» و«الطور»، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، أي: بقرب البحر الأحمر على ساحله ومتصلة به.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، أي: حين يعتدون في صيد السمك يوم السبت مع تحريم العمل والصيد فيه.

والمراد بـ«السبت»: يوم السبت، وهو ما بين الجمعة والأحد.

والعدوان: الظلم، ومخالفة الحق، ومجاوزة الحد.

وقوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، أي: حين يعدون في السبت، وهذا هو المقصود بالسؤال، أي: واسألهم عن عدوانهم في السبت.

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعۡدُونَ﴾ لدلالة تكرر ذلك منهم.

﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾، أي: حين تأتيهم حيتانهم، و«الحيتان» جمع: «حوت»؛ وهي السمك.

﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾، ﴿شُرَّعٗا﴾ حال، أي: ظاهرة على وجه الماء كثيرة، آمنة من أن تصاد.

﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾، أي: وفي غير يوم السبت لا تأتيهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾، أي: نختبرهم ونمتحنهم في إتيان السمك شرعًا يوم السبت الذي يحرم العمل والصيد فيه دون غيره من الأيام؛ ليظهر مدى طاعتهم لله تعالى.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، واحتيالهم على محارم الله تعالى؛ حيث احتالوا للصيد في يوم السبت بوضع الشباك والحبائل يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت علقت بتلك الشباك والحبائل، ثم أخذوها يوم الأحد، فجمعوا بين ارتكاب المحرم والاحتيال والمخادعة.

ولهذا قال ﷺ: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾:

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: وحين قالت طائفة وجماعة منهم:

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: لماذا تذكِّرون وتأمرون وتنهون قومًا، ﴿ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ في الدنيا، ﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ في الآخرة؟

و«أو» قد تكون على معناها للتقسيم، وقد تكون بمعنى الواو، أي: مهلكهم ومعذبهم.

وكأن هؤلاء الطائفة يقولون: لا فائدة في وعظ هؤلاء؛ لإصرارهم على الاعتداء، وعدم قبولهم النصح، واستحقاقهم عقاب الله وعذابه.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٩٢ عن أبي عبدالله بن بطة بإسناده. وقال: «إسناده جيد».

وفي هذا ما يدل على كراهتهم فعلهم، وإنكارهم له في قلوبهم.

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ حفص: ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنصب على المفعول لأجله، أي: إعذارًا.

وقرأ الباقون: «مَعْذِرَةٌ» بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: موعظتنا معذرة.

والمعنى: قالت الطائفة المنكرة: نعظهم وننكر عليهم؛ لنعذر أمام الله تعالى فيهم؛ بقيامنا بما أوجب الله علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ معطوف على ﴿مَعْذِرَةً﴾، فهي علة ثانية، أي: نعظهم لنعذر أمام الله، ورجاء أن يتقوا بترك ما هم عليه من الاعتداء والمخالفة ويتوبوا إلى الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، الفاء عاطفة، و«لَمَّا»: ظرف بمعنى: «حين» متضمن معنى الشرط، والضمير في «نسوا» يعود إلى «قومًا»، أي: إلى الطائفة المعتدية في السبت، و«ما»: موصولة.

أي: فلما نسي الذين ا،عتدوا في السبت ﴿مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾- أي: الذي وعظوا به- وأعرضوا عنه، وتركوه، وأبوا قبول النصيحة.

﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، أي: أنجينا الذين ينهون عن العمل السيئ والمنكر، وسلمناهم ووقيناهم من العقوبة.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالاعتداء في السبت، فظلموا بارتكابهم المعصية ومخالفة أمر الله، وظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله تعالى.

﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بِيْسٍ» بكسر الباء وياء ساكنة بغير همز.

وقرأ الباقون: ﴿بَـِٔيسٍۭ﴾ على وزن «فَعِيل» من البؤس، أي: بعذاب شديد.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى.

وقد قسمهم القرآن في فعلهم إلى ثلاث طوائف: طائفة اعتدت في السبت وفعلت

المنكر، وطائفة أنكرت عليهم، وطائفة قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

بينما قسمهم في مجازاتهم إلى قسمين فقط: قسم أنجاهم الله؛ وهم الذين ينهون عن السوء والمنكر، وقسم أخذهم بالعذاب البئيس؛ وهم الذين ظلموا بفعل المنكر وفسقوا.

وسكت عن الطائفة الثالثة، وهم الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وفي هذا دلالة على أنهم قد نجوا؛ وهذا هو الأظهر- والله أعلم- لما يأتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ فهذا يدل على أن الذين عذبوا هم الذين ظلموا وفسقوا فقط بفعل المنكر، ومفهوم هذا أن من عداهم قد نجوا.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهذا يدل على أن هذه الطائفة قد كرهوا بقلوبهم ما ارتكبته الطائفة المعتدية من المنكر وخالفوهم.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الآية: ١٦٦]؛ فهذا يدل على أن الذين عذبوا هم الذين اعتدوا ونُهوا فلم ينتهوا فقط.

رابعًا: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية؛ إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

وقيل: إن هذه الطائفة عذبت ولم تنج؛ لقوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ فمفهوم هذا أن الذين لم ينهوا عن السوء لم ينجوا.

والأظهر- كما سبق- القول الأول؛ لأن مفاد جل أدلته أن هذه الطائفة قد كرهت هذا المنكر وأنكروه بقلوبهم، بل إن قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ يوحي أنهم قد أعذروا منهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، أي: فلما استكبروا وعصوا وتمردوا عن الذي نهوا عنه، أي: عن ترك الذي نهوا عنه؛ وهو اعتداؤهم في صيد السمك في السبت.

﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قدريًا، ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة.

﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾، أي: ذليلين حقيرين مهانين مبعدين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧)﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، أي: واذكر- يا محمد- إذ آذن ربك، أي: اعلم إعلامًا صريحًا، أي: أعلمهم وتوعدهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، اللام لام القسم، أي: والله ليبعثن عليهم، أي: ليرسلن على اليهود ويقيضن لهم إلى يوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، «مَن» موصولة، أي: الذي يهينهم ويذلهم ويفرض عليهم سوء العذاب، أي: أشد العذاب؛ لأن العذاب كله سيئ.

وسوء العذاب: أشده.

وهكذا كانت حال اليهود: فكانوا في قهر وإذلال الأمم السابقة، وأول من سلط عليهم «بُختنصَّر» ملك بابل؛ حيث خرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم ونساءهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وجلاَّ كثيرًا منهم إلى بابل.

ثم تسلطت عليهم ملوك شتى، وتواترت الحروب زمنًا طويلًا على بلادهم إلى أن صاروا جميعًا تحت سلطة الرومان، واستؤصلوا من أرضهم، وتفرقوا في البلاد شذر مذر، صاغرين مقهورين.

ولما جاء الإسلام كانوا تحت صغاره وذمته، يؤدون الجزية للمسلمين.

وهم- وإن كان لهم أحيانًا شيء من القوة والظهور- فحكم الله الكوني عليهم بالذلة يلاحقهم، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وآخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩٧، و«محاسن التأويل» ٥/ ٢١٣.

﴿لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، اللام في الموضعين: للتوكيد، أي: لسريع العقاب لمن عصاه وخالف أمره وارتكب نهيه، فعقابه سريع متحقق وغير متأخر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لمن تاب وأناب إليه، ورجع إلى الحق وعمل صالحًا، يستر ذنبه ويتجاوز عنه، وفي هذا زوال المرهوب، ويرحمه فيثيبه بالمثوبة الحسنى والجنة، وفي هذا حصول المطلوب.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

وقرن بين كونه «سريع العقاب» وكونه «غفورًا رحيمًا»؛ جمعًا بين الترهيب والترغيب.

الفوائد والأحكام:

١- أمره عز وجل له ﷺ بسؤال اليهود والمعاصرين له لتقريرهم وتقريعهم، والإبانة عما كان عليه أسلافهم من المخالفة والعصيان والاحتيال على محارم الله، وأخذهم بالعذاب والمسخ، وفي هذا تحذير أن يحل بهم من العذاب والعقوبة ما حل بأسلافهم.

كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ بأن عصيان هؤلاء إياك امتداد لمنهج سلفهم؛ قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾.

٢- اعتداء بني إسرائيل بالصيد يوم السبت- الذي حرم عليهم فيه الصيد والعمل مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾.

٣- ابتلاء بني إسرائيل بإتيان الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام، وتعريضهم لداعي العصيان؛ وهو وجود المشتهى الممنوع، بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

٤- أن في الابتلاء والامتحان تمييزًا للخبيث من الطيب، وللكافر من المؤمن، ولضعيف الإيمان من قوي الإيمان، فلا يمكن أن يعصي من لم تتوافر لديه أسباب المعصية.

٥- أن الفسق والمعصية سبب للابتلاء بما هو أعظم، والمعصية سبب للمعصية بعدها.

٦- أن انتهاك محارم الله تعالى والاحتيال على حرماته من أسباب الهلاك والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٧- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

٨- أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو استجابة لأمر الله تعالى وإيجابه لذلك، ورجاء أن يتقي المأمور أو المنهي؛ لقوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

١٠- إنجاء الذين ينهون عن السوء والمنكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

١١- أخذ المعتدين الظالمين- لما نسوا وتركوا ما ذكروا به- بعذاب شديد بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

١٢- مسخهم قردة خاسئين لما عتو عما نهوا عنه واستكبروا وتمردوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾، وظاهر هذا بعد قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أنهم عذبوا عذابًا شديدًا، ثم لما لم يردعهم ذلك- بل عتوا وتمردوا- مسخوا قردة خاسئين.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ تأكيدًا وبيانًا لما قبله.

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرم الله من الصيد؛ بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيه الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقهاء وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه،

فمسخوا قردة؛ لأن عملهم ظاهره الاتقاء، وباطنه الاعتداء؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان في الظاهر، وهو مخالف له في الحقيقة»(١).

١٣- إعلام الله بني إسرائيل وتوعدهم بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؛ عقابًا لهم على اعتدائهم وانتهاكهم حرمات الله تعالى، وعتوهم وتمردهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

١٥- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

١٦- أن الله عز وجل سريع العقاب لمن عصاه وخالف أمره وارتكب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لمن خالف أمر الله وانتهك محارمه.

١٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة والرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه غفور رحيم لمن تاب وأناب إليه وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٨- تمام إنعام الله تعالى على عباده؛ حيث يجمع لهم بين المغفرة وإزالة المرهوب، وبين الرحمة وحصول المطلوب.

١٩- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدم المغفرة على الرحمة.

* * *

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٧٠.

قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مزقناهم وفرقناهم في الأرض جماعات؛ فبعد أن كانوا مجتمعين تفرقوا أيدي سبأ، فقل أن تجد بلدًا إلا وفيه قوم من اليهود، حكمة بالغة.

وفرق بين قوله في الآيات السابقة: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الآية: ١٦٠]، وبين قوله في هذه الآية: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فالأول فيه امتنان وتوسعة عليهم، ونماء وتكثير لهم، بينما الثاني فيه تعذيب وعقاب لهم، وإخراجهم من أرضهم، وتشتيتهم في بلاد أعدائهم.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون، الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، وتصديق رسله.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: دون الصالحين، أي: غير الصالحين، كما قال الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحسنات: ما يستحسن. والسيئات: ما يسوء.

والمعنى: اختبرناهم وامتحناهم بالرخاء والشدة، واليسر والعسر، والعافية والبلاء، والرغبة والرهبة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، أي: فجاء من بعد ذلك الجيل الذين منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

﴿خَلۡفٌ﴾، أي: بدل سوء لا خير فيهم، ومنهم الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ.

﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: أخذوه عن أسلافهم، فعلموه وضيعوا العمل به، وخالفوا حكمه، وحكموا بغيره كالرشوة وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ العرض: ما يعرض ثم يزول من متاع الدنيا ومنافعها، والدنيا كلها عرض.

و﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ مأخوذ من «الدنو» بمعنى: القرب الزماني، أي: عرض الدنيا الزائل.

ومأخوذ من الدناءة والحقارة، أي: ما يعرض لهم من حقير المنافع والشهوات، ودنيء المكاسب؛ كالرشوة ونحوها، واستعاضوا بذلك عن اتباع الحق وقوله وبذله ونشره، كما قال تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، أي: يقولون بألسنتهم وبأنفسهم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ يسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالمغفرة، ولا يقلعون عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

ويتمنون على الله الأماني، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾، أي: وإن يأتهم عرض مثل الأول دنيوي حقير يأخذوه، أي: كلما لاح لهم شيء من ذلك أخذوه، حلالًا كان أو حرامًا، فالحلال ما حل بأيديهم.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتقرير.

«الميثاق»: العهد، أي: ألم يؤخذ عليهم العهد في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

«أن»: حرف مصدري ونصب، و«لا» نافية. والمصدر المؤول ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ﴾ في محل رفع بدل ﴿مِّيثَٰقُ﴾، أو عطف بيان.

«إلا»: أداة حصر، أي: ألا يقولوا على الله إلا القول الحق الثابت الصدق، فلا يدّعوا أنه سيغفر لهم وهم على باطلهم، ولا يحكموا بغيره ويقولوا: هذا حكم الله، وأن يبينوه للناس ولا يكتموه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾، أي: وعلموا ما في الكتاب من العهد عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾، أي: وعلموا ما في الكتاب، فخالفوه عن علم وضيعوه.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، الواو استئنافية، أي: والدار الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها خير من الدنيا وعرضها الزائل الحقير.

﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: للذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويتقون عذابه.

وخصهم بالذكر؛ لأن خير الآخرة لهم خاصة لا يستحقه غيرهم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وابن ذكوان وحفص عن عاصم ويعقوب وأبو جعفر بتاء الخطاب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة: «يَعْقِلُونَ».

والاستفهام: للإنكار، أي: أفلا يكون لكم عقول تهديكم إلى إيثار الدار الآخرة التي هي خير، والعمل لها، وعدم الاغترار بعرض الدنيا الحقير الزائل؟!

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «يُمْسِكُونَ» بإسكان الميم وتخفيف السين، من: أمسك يمسك.

وقرأ الباقون: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وتشديد السين من: مسَّك.

ومعنى ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يتمسكون به علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه، ويعملون به، فجمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: وأقاموا الصلاة كما شرعها الله تعالى.

وخصها بالذكر؛ لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وأعظم أركان الإسلام

بعد الشهادتين وأعظم العبادات، ومعينة على إقامة غيرها من العبادات، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، أي: لا نضيع أجر المصلحين في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنفسهم ولغيرهم، بل نحفظه ونزيده ونضاعفه لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، أي: واذكر- يا محمد- إذ قلعنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل الذين كانوا مع موسى عليه السلام، لما امتنعوا من أخذ التوراة والعمل بأحكامها.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، أي: كأنه سحابة أظلتهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، أي: وأيقنوا أنه واقع بهم وساقط عليهم.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: وقلنا لهم، أو قائلين لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، «ما»: موصولة، أي: خذوا الذي أعطيناكم من التوراة، واعملوا بأحكامها بعزيمة وجد من غير تقصير ولا توان.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، أي: واذكروا الذي فيه، أي: الذي في كتاب التوراة؛ من العهود والمواثيق التي أخذت عليكم بالعمل بما فيه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن تتقوا ربكم، وتنجوا من عقابه.

الفوائد والأحكام:

١- تفريق بني إسرائيل وبخاصة اليهود، وتمزيقهم في الأرض شذر مذر؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم وانتهاكهم حرمات الله تعالى وعتوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾.

٢- أن الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب سلب النعم؛ فقد منَّ الله عز وجل على بني إسرائيل بجعلهم أممًا مجتمعة متآلفة متحابة، وأغدق عليهم النعم، ثم لما لم يشكروا، وخالفوا أمر الله، وانتهكوا حرماته، وعتوا وتمردوا سلبهم الله تلك النعم وفرقهم في الأرض عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد أحسن القائل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا   فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحَافِظْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإِلَهِ   فَإِنَّ الإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمْ(١)

٣- أن بني إسرائيل منهم الصالحون ومنهم دون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

٤- ابتلاء بني إسرائيل بالرخاء والشدة، واليسر والعسر، والرغبة والرهبة؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى، ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٥- ذم خلف بني إسرائيل، وأنهم بعد أن كان فيهم الصالح ودونه؛ جاء بعدهم خلف سوء ورثوا الكتاب، وضيعوا العمل والحكم به واعتاضوا عن ذلك بعرض الدنيا الزائل الحقير، ويطمعون مع ذلك بالمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

٦- فضل السلف على الخلف في كل أمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وفي الحديث: «**خيركم قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم...**» الحديث(٢)، وفيه: «**لا يأتيكم عامٌ إلّا الّذي بعده شرٌّ منه حتّى تلقوا ربّكم**»، سمعته من نبيكم ﷺ(٣).

٧- الإنكار على خلف بني إسرائيل وتقريعهم في قولهم على الله تعالى غير الحق، مع أخذ ميثاق الكتاب عليهم وعلمهم بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾.

٨- الترغيب في الدار الآخرة والعمل لها، وأنها خير من الدنيا وعرضها الزائل

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، والنسائي في الأيمان والنذور، والترمذي في الفتن (٢٢٢١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، ومسلم في الفتن (٢٢٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الحقير لمن اتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٩- فضل التقوى وأهلها؛ لأن الله خصهم بخير الآخرة دون سواهم.

١٠- امتداح الذين يمسكون بالكتاب قولًا وعملًا، ويقيمون الصلاة، ووعدهم بالأجر، ووصفهم بالمصلحين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

١١- الترغيب بالتمسك بكتاب الله تعالى، وإقام الصلاة، لأن الله وعد أهله بحفظ أجرهم ووصفهم بالمصلحين.

١٢- فضل الصلاة؛ لأن الله خصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٣- تكفل الله عز وجل بثواب الذين يتمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة؛ لأنه سمى ثوابهم أجرًا.

١٤- التذكير برفع الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة؛ تخويفًا لهم لما أبو أخذ التوراة والعمل بأحكامها، وإلزامهم بالأخذ بها آتاهم الله بقوة، وذكر ما فيه لأجل أن يتقوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

١٥- شدة عتو بني إسرائيل وتمردهم وعنادهم؛ لهذا خوفهم الله برفع الجبل فوقهم ليؤمنوا ويتقوا.

١٦- عظم قدرة الله تعالى؛ حيث اقتلع جبل الطور ورفعه فوق رؤوسهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

بعد الحديث المستفيض الذي بلغ نحو سبعين آية عن بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه وإلى قومه بني إسرائيل، ومعالجته لهم، وما لقي من فرعون وملئه من الكفر والتكذيب، ومن بني إسرائيل من العتو والعناد، وما انتهى إليه الأمر بإغراق فرعون وملئه، وأخذ بني إسرائيل بأنواع العقوبات؛ انتقلت السورة فيما بقي منها إلى محاجة المشركين من العرب، والذي هو المقصود الأهم من السورة ابتداءً وانتهاءً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢)﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: واذكر - يا محمد - إذ أخذ ربك من بني آدم.

﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وقرأ الباقون بالجمع: «ذُرِّيَّاتِهِمْ».

وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بدل بعض من كل، أي: وإذ أخرج ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، أي: حين خلقهم وأخرجهم من أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الضمير يعود إلى الذرية.

والإشهاد بمعنى: الإقرار، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي حديث ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع شهادات»[1]، أي: أقر على نفسه أربع مرات.

أي: وأوجدهم شاهدين على أنفسهم، مقرين بربوبيته ووحدانيته، بلسان حالهم

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨١٥)، ومسلم في الحدود (١٣٩١)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٦)، والترمذي في الحدود (١٤٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومقالهم.

والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون بالحال، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك.

والمعنى: وأشهدهم على أنفسهم بما أودع في فطرتهم من توحيده، أي: أشهد كل واحد من تلك الذرية على نفسه بما أودع في فطرته من الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، الاستفهام: تقريري، أي: أليس أنا خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جواب الاستفهام، ﴿شَهِدْنَآ﴾ تأكيد لمضمون ﴿بَلَىٰ﴾.

أي: أقررنا بأنك ربنا، لا رب لنا غيرك، ولا معبود لنا سواك؛ كما فطرتنا على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟**»(١).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»(٢).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «**يا حصين، كم تعبد اليوم إلهًا؟**» قال أبي: سبعة، ستًّا في الأرض، وواحدًا في السماء. قال: «**فأيّهم تعدّ لرغبك ورهبك؟**» قال: الذي في السماء(٣).

قال ابن القيم: «فهو سبحانه يقول: اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا، حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق، شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب».

الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة»[١].

وقد رويت آثار كثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين في تفسير هذه الآية؛ مفادها أن الله عز وجل أخرج من ظهر آدم ذريته أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، وشهدوا بذلك على أنفسهم، ثم أعادهم إلى صلبه[٢].

ولا يصح رفع شيء منها وإن كان روي ذلك، بل إن جل هذه الآثار لا ترقى أسانيدها لدرجة الصحيح ولا الحسن.

قال ابن القيم: «وأحسن ما فسرت به الآية قوله ﷺ: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه**». فالميثاق الذي أخذه سبحانه عليهم، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم، والإقرار الذي أقروا به؛ هو الفطرة التي فطروا عليها؛ لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره.

وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على ألسنة رسله؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونظائر ذلك كثيرة.

يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم، ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده، وألا يشركوا به شيئًا؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره، وألا يعتذروا إما بالغفلة عن الحق، وإما بالتقليد في الباطل؛ فإن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الباطل، فيتطابق الحديث مع الآية، ويبين معنى كل منهما بالآخر»[٣].

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ قرأ أبو عمر بياء الغيبة في الموضعين: «أن يقولوا»، «أو يقولوا».

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٣٠٢.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٠/ ٥٤٧ وما بعدها، و«تفسير ابن أبي حاتم» ٥/ ١٦١٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٢٧٥- ٢٧٦، بتصرف.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيهما.

ومعنى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، أي: كراهية أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، أي: عن هذا الإقرار لله بالربوبية والوحدانية، وعلى أنفسنا بالعبودية.

﴿غَـٰفِلِينَ﴾، أي: لم ننتبه لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أو كراهية أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا.

﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: سنوا الشرك واخترعوه من قبل زماننا.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ وكنا ذرية، أي: صغارًا من بعدهم؛ فنشأنا على طريقتهم وعلى دينهم تبعًا لهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾، الاستفهام للإنكار، أي: أفتؤاخذنا وتعذبنا؟

﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: بالذي فعل المبطلون، أو بفعلهم الباطل وهو الشرك.

أي: انك أنت الحكيم، لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء، ولا تأخذ أحدًا بجريرة غيره، وحكمتك تأبى ذلك.

قال ابن القيم: «فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد، إحداهما: أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ فبين أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته. والثانية: أن يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وهم آباؤنا المشركون، أي: أفتعاقبنا بذنوب غيرنا؟»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾، أي: ومثل هذا التفصيل في هذه الآيات والبيان فيها نفصل ونبين غيرها من الآيات.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣٠٣.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: ولأجل أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر والشرك ويتوبوا إلى الله تعالى وينيبوا إليه.

الفوائد والأحكام:

١- إشهاد الله عز وجل بني آدم وفطرته لهم على الإقرار بربوبيته ووحدانيته، وإقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

٢- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

٣- أن الإنسان لو خلي بينه وبين نفسه وسلم من المؤثرات الخارجية؛ ما حاد عن الإيمان المستقر في فطرته.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٦- أن الشهادة تطلق بمعنى الإقرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

٧- أن في إشهاد الإنسان على نفسه وقبول إقراره عليها أعظم إنصاف له؛ ففي الحديث أنّ العبد يقول: «**يا ربّ، ألم تجرني من الظّلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهدًا منّي. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي. قال: فتنطق بأعماله، ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا، فعنكنّ كنت أناضل**»(١).

٨- في جعله عز وجل بني آدم شاهدين مقرين بما أودع في فطرهم بربوبيته ووحدانيته، إبطالُ لحجة من أشرك به مدعيًا الغفلة، وتقليد آبائه المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٩- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

١٠- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١١- أن الإنسان لا يعذر بدعوى الغفلة مع وضوح الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

١٢- ذم التقليد الباطل مع قيام الأدلة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

١٣- أن من حكمة الله تعالى وعدله ألا يؤاخذ أحدًا بجريرة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: إن حكمتك تأبى ذلك.

١٤- أن المشركين هم المبطلون، والشرك هو أبطل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

١٥- تأثر الأولاد بما عليه الآباء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

١٦- إقامة الحجة على الناس؛ ليرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾:

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أنه فطر بني آدم على الإقرار بربوبيته ووحدانيته، ثم أتبع ذلك ببيان أن من لم يقدر له الله التوفيق للحق والثبات عليه لا ينفعه ما فطر عليه، ولا ما آتاه الله من الآيات والعلم، لَمَّا لم يقدر الله له الثبات على الهدى، حكمة بالغة.

قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ الخطاب في قوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ للنبي ﷺ.

﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: على المشركين الذين وجهت لهم المواعظ من أول هذه السورة، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم؛ ليعتبروا ويتعظوا.

﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾، النبأ: الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤].

والمعنى: واقرأ وقص عليهم خبر الذي أعطيناه آياتنا، أي: علمناه علم الكتاب. وفي هذا امتنان عليه لو عرف قدر نعمة الله تعالى عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، أي: من الآيات، كما تنسلخ الحية من جلدها، وكما يسلخ الجلد عن اللحم، أي: فخرج منها بكفره، ونبذها وترك العمل بها، فضلَّ بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا، وفارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا.

ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي سعى في انسلاخه منها باتباع هواه، واختار ذلك.

وقد اختلف في المراد بذلك؛ فقيل: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: «بلعام» أو «بلعم» كان مجاب الدعوة، ولكنه لم ينتفع بعلمه.

وقيل: إنه أمية بن أبي الصلت، كان عنده علم بالشرائع المتقدمة وأدرك زمان النبي ﷺ وبلغته دعوته ومعجزاته وآياته، واجتمع به ﷺ ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم.

وقيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لمن عرض عليه الإيمان وعرفه وأبى أن يقبله، ولا يراد به شخص بعينه.

وهذا كما قال تعالى عن فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قرينه، واستحوذ عليه، وغلبه على أمره، وتسلط عليه فأطاعه.

«و«أتبعه» أبلغ من «تبعه» لفظًا ومعنى.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ بعد الرشد، و﴿ٱلْغَاوِينَ﴾: المتصفين بالغي.

والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل؛ كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر»(١).

فـ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ يعني: العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه؛ كعلماء السوء.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ ممّا أتخوّف على أمّتي رجل قرأ القرآن حتّى إذا رئيت بهجته عليه، وكان ردْء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسّيف، ورماه بالشّرك»**. قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: **«بل الرّامي»**(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣١٢- ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٥٠٩، وقال: «هذا إسناده جيد».

﴿ وَلَوْ شِئْنَا﴾، أي: ولو أردنا كونًا وقدرًا، ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا، ﴿بِهَا﴾، أي: بالآيات التي آتيناه إياها.

والمعنى: لو شئنا لرفعنا قدره ومنزلته، وفضلناه وشرفناه في الدنيا والآخرة بالآيات والعلم الذي آتيناه إياه؛ بأن نوفقه للإيمان والعمل بما علم، والثبات على ذلك.

أي: أنه سبحانه لم يشأ رفعه بالعلم؛ فكان سبب هلاكه ووبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

فالرفعة ليست بمجرد العلم، وإنما هي باتباع الحق والعمل به، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

فهذا كان من أعلم أهل زمانه، فلم ينفعه ولم يرفعه علمه، بل ضره ووضعه، نعوذ بالله من علم لا ينفع.

وفي الحديث أن من أول من يقضى عليهم ثلاثة: منهم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

وعالم بعلمه لم يعملَنْ   معذَّبٌ من قبل عبّاد الوثَنْ[1]

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن لم نرفعه بالآيات؛ لأنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ركن ومال إلى الدنيا ورضي بها، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة، واستبدل الأدنى بالذي هو خير.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: جعل ما تهواه نفسه وما تشتهيه إمامًا له يتبعه ويحكِّمه ويقتدي به بعد أن انسلخ من هدى الله.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾، المثل: الشبه، أي: فمثله في تكذيبه بآيات الله واستمراره على الضلال، وعدم انتفاعه بالآيات والمواعظ، وفي حرصه على الدنيا.

(١) انظر: «صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال» (١/ ٣٤). والبيت فيه بلا نسبة.

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأضعفها نفسًا وهمة، وأشدها حرصًا وشرهًا وكَلَبًا؛ لهذا سمي «الكلب».

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾، أي: إن تطرده وتهاجمه ﴿يَلْهَثْ﴾، أي: يخرج لسانه لاهثًا. واللهث: سرعة النفس مع امتداد اللسان لضيق النفس.

﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، أي: يلهث في الحالين، حملت عليه أو تركته، أي: لا يزال لاهثًا في كل حال.

فهذا الذي انسلخ من آيات الله أشبه في إخلاده وركونه إلى الدنيا وركضه وراءها وانهماكه فيها، وحرصه عليها وعدم شبعه منها، وفي عدم انتفاعه بالموعظة، وعظ أو لم يوعظ؛ أشبه الكلب في شدة حرصه وشرهه ودنو همته ولهثانه، حمل عليه أو ترك.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الإشارة إلى «المثل» في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ فهذا المثل السيئ مثل لكل من كذب بآيات الله.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تحقيرًا له.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾، أي: فاقصص يا محمد القصص؛ لما فيها من العظة والتذكير؛ من قصة هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، وغيرها من قصص المكذبين، مما قصصناه عليك في هذه السورة وفي غيرها، وما حل بهم من العقوبات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون بقصص من سبقهم.

قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾، أي: ساء مثلُ القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بئس المثل مثلهم أن شبهوا بالكلب الذي هو من أخس المخلوقات، وحاله من أسوأ الأحوال، فكان مثلهم مثل السوء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس لنا مثل السّوء، الّذي يعود في هبته كالكلب يعود في قيئه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة، لا يحل لأحد أن يرجع في هبته أو صدقته ٢٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨، والترمذي في البيوع ١٢٩٨، وأحمد ١/ ٤٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ قَدَّم المفعول: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾، للاختصاص، أي: ما ظلموا إلا أنفسهم؛ بتكذيبهم بآيات الله، والإعراض عن اتباع الحق، والهوى، فحرموها ثواب الله وأوقعوها في عذابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

لما ذكر عز وجل قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ بين أن ذلك بتقديره عز وجل، وأنه المتفرد بالهداية والإضلال.

قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾، «مَن»: شرطية، أي: من يهده الله؛ بأن يوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، أي: للإيمان وسلوك الطريق المستقيم؛ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فهو المهتدي حقًّا.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، «مَن»: شرطية كسابقتها، أي: ومن يضلله؛ بأن يخذله ولا يوفقه.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة للجواب.

وأكد الخسران وقصره فيهم بكون الجملة اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك الذين خسروا دينهم ودنياهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والإفراد في قوله: ﴿يُضْلِلْ﴾ مراعاة للفظ ﴿وَمَن﴾، والجمع في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ مراعاة لمعناها وللفواصل.

والخسران: حصول ضد المقصود من العمل، وهو ضد الربح الذي معناه: حصول المقصود من العمل.

فهو سبحانه تعالى يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، كما قال ﷺ: **«من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٨٦٨)، وأبو داود في الصلاة (١٩٠٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضًا (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد ذرأنا، أي: خلقنا وأنشأنا.

﴿لِجَهَنَّمَ﴾، أي: لدخولها وسكناها والخلود فيها.

و«جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هيأهم الله لها، وبعمل أهلها يعملون؛ لأن الله تعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون قبل خلقهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السّموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ**»- قال: «**وعرشه على الماء**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله خلق للجنّة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنّار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»(٢).

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي: لا يعقلون ولا يفهمون بها ما ينفعهم، ولا يتفكرون ويتدبرون بها آيات الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، أي: لا يبصرون بها الهدى، وآيات الله الكونية والشرعية، ولا ينتفعون بها.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: لا يسمعون بها الحق وما ينفعهم، كما قال تعالى:

من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في القدر، حجاج آدم موسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في القدر، معنى «**كل مولود يولد على الفطرة**» (٢٦٦٢)، وأبو داود في السنة (٤٧١٣)، والنسائي في الجنائز (١٩٤٧)، وابن ماجه في المقدمة (٨٢).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: لا يسمعون ما ينفعهم، وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨].

فهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح، التي هي وسائل وصول الهدى والنور إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، «إن» حرف نفي بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا كالأنعام السارحة؛ وهي البهائم التي ليس لها عقول.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي؛ للترقي في التشبيه في الضلال، أي: بل أهم أشد ضلالًا من الأنعام؛ لأن الأنعام لها إلهام تهتدي به لما خُلقت له، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل مخلوق لما خلق له، فتراها تهتدي إلى العناية بأولادها، وتهتدي إلى مراعيها ومراحها ومواضع حلبها، وتجتنب التردي من الجبال، والسقوط في لآبار، وتجتنب كل ما يضرها، ونحو ذلك، واسأل أهل الإبل عن عجيب أحوالها، سبحان الخالق البصير.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الغفلة: عدم الشعور بحق ينبغي الشعور به.

وقد أكدت الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»؛ لتوكيد غفلتهم وقصر الغفلة فيهم، وأنهم بلغوا الغاية في الغفلة، فترقى من ذكر عدم انتفاعهم بحواسهم، إلى تشبيههم بالأنعام، إلى كونهم أضل من الأنعام، إلى قصر الغفلة وتأكيدها فيهم.

الفوائد والأحكام:

١ - أمره ﷺ أن يتلو ويقرأ على المشركين نبأ الذي آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها؛ ليتعظوا ويعتبروا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا...﴾ الآية.

٢- خطر ترك العمل بالآيات بعد العلم بها والانسلاخ منها، وأنه سبب لاستحواذ الشيطان وتسلطه ، والغواية والضلال، ووجوب الحذر من ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ الآية.

٣- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٤- أن من ضل وتنكب طريق الهدى بعد العلم أشد ممن ضل على جهل، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٥- أن العلم إذا لم يقارنه العمل صار وبالًا على صاحبه، وسببًا لتسلط الشيطان عليه وغوايته، وما أكثر الذين هم على هذه الصفة.

٦- مشروعية التذكير بأحوال الضالين والغاوين ونهايتهم السيئة؛ لأخذ العظة والعبرة من ذلك.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، ونفي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾.

٨- أن انسلاخ المذكور من آيات الله- بعد العلم بها- بمشيئة الله وتقديره، ولو شاء الله لرفعه بها وأعلى شأنه؛ إذ لا شيء يقع في الكون إلا بمشيئة الله وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾.

٩- فضل العلم إذا قارنه العمل، وأنه سبب للرفعة والعصمة من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

١٠- أن سبب عدم رفعة الله تعالى للمذكور إخلاده إلى الأرض، وركونه إلى الدنيا، واتباعه لهواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾.

١١- التحذير من الركون إلى الدنيا وشهواتها وزينتها، وتقديمها على الآخرة، واتباع الهوى، وأن ذلك سبب للخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾.

١٢- سوء مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ لأن الله شبهه بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات في أخس حالاته؛ وهو كونه يلهث حمل عليه أو ترك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ وذلك في شدة حرصه وشرهه، وعدم انتفاعه بالموعظة وُعظ أو لم يوعظ.

١٣- أن هذا المثل السيئ لكل من كذب بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

١٤- أمره ﷺ بذكر قصص وأخبار السابقين؛ تذكيرًا للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

١٥- إثبات العلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

١٦- شدة قبح وسوء مثل الذين كذبوا بآيات الله تعالى؛ حيث شبهوا بالكلب في أسوأ أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

١٧- أن الذين يكذبون بآيات الله تعالى لا يظلمون إلا أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾.

١٨- إثبات تقدير الله تعالى للأعمال كلها خيرها وشرها، وأن الهداية والإضلال بيد الله عز وجل، وأن من هداه الله تعالى فهو الموفق المهتدي حقًّا، ومن أضله فهو الضال الذي تحقق وتأكد أنه من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾.

١٩- أن الله عز وجل خلق وأنشأ لسكنى النار والخلود فيها كثيرًا من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾.

٢٠- أن سبب دخول كثير من الجن والإنس النار وخلودهم فيها كفرهم بالله، وعدم انتفاعهم بحواسهم: القلب، والبصر، والسمع؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ﴾.

٢١- إثبات وجود جهنم؛ وهي النار أعاذنا الله منها وجميع المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ ﴾.

٢٢- أن الجن مكلفون ومجزيون بأعمالهم كالإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾.

٢٣- نعمة الله تعالى على الإنس والجن بما وهبهم من الحواس؛ من السمع والبصر والعقول التي عليها مدار التكليف لمن عرف قدرها وانتفع بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ

أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

٢٤- أن من منحهم الله تعالى العقول والأبصار والأسماع فلم ينتفعوا بها؛ فهم أشبه شيء بالأنعام، بل هم أضل منها؛ لأن الأنعام تهتدي لما خلقت له، وهم ضلوا عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

٢٥- بلوغ المذكورين الغاية في الغفلة، وتأكيدها فيهم، وقصرها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

ذكر الله عز وجل هذه الآية في سياق الآيات التي فيها ذكر مذام المشركين، ووجه فيها الخطاب للمؤمنين بقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾ للإشارة إلى أن أفظع أحوال المشركين الإلحاد في أسماء الله تعالى والشرك به، ذمًّا لهم، وتحذيرًا للمؤمنين من الإلحاد والشرك وأهله.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، الواو استئنافية، واللام: للاستحقاق والاختصاص، وقدم الجار والمجرور؛ للاهتمام والتأكيد.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الكاملة الحسن في ألفاظها ومعانيها؛ لدلالتها على أوصاف الكمال، أي: له كل اسم حسن بلغ الغاية في الحسن في لفظه ومعناه، بدلالته على صفة كمال عظيمة، وبذلك صارت أسماؤه عز وجل كلها حسنى؛ لأن كل اسم من أسمائه عز وجل دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مئةً إلّا واحدًا، من أحصاها دخل الجنّة، وهو وترٌ يحبّ الوتر**»(١).

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ خطاب للمؤمنين، أي: فادعوا الله بهذه الأسماء الحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

وإنْ دعا لكل مطلوب بالاسم الذي يناسبه فحسن؛ كأن يقول: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف.

وكان جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين باسم الرب؛ لأن معناه: الخالق المالك المدبر، فكأن الداعي يقول: يا من له الخلق والتدبير، اغفر لي، وارحمني، وارزقني.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أصاب أحدًا قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللّهمّ إنّي عبدك، ابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسمٍ هو لك، سمّيت به نفسك، أو علّمته أحدًا من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي؛ إلّا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها**»(١).

وفي هذا دلالة على أن أسماءه عز وجل ليست محصورة في تسعة وتسعين.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ قرأ حمزة بفتح الياء والحاء: «يَلْحَدُونَ».

وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء: ﴿يُلْحِدُونَ﴾.

أي: واتركوا الذين يلحدون في أسمائه ولا تبالوهم.

والإلحاد: الميل والانحراف، والعدول عن القصد.

ومنه سمي «اللحد»؛ وهو: الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط.

ومنه سمي «الملحد» في الدين؛ وهو المائل عن الحق إلى الباطل. وهو الميل والانحراف بأسماء الله تعالى ومعانيها عن الحق المراد بها، أو نفي معانيها، أو تمثيلها بغيرها، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «والإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها؛ كتسمية «اللاة» من «الإله»، و«العزى» من «العزيز»، وتسمية الصنم إلهًا، وهذا الإلحاد حقيقة؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، ٤٥٢.

وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق لجلاله؛ كتسمية النصارى له أبًا.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه.

وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. فيطلقون عليه اسم: السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به.

وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا، ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ بأن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه- تعالى عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا- فهذا الإلحاد في مقابل إلحاد المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه»(١).

﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ السين للاستقبال والتوكيد، و«ما»: موصولة، أي: سيعاقبون بجميع الذي يعملونه من إلحاد وغيره.

والجملة فيها معنى التعليل للأمر بترك الملحدين، أي: لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له؛ لأن الله سيجازيهم ويعاقبهم على ذلك.

وعبر بـ«المضارع» في «يعملون» للدلالة على تجدد ذلك منهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾:

هذه الآية في مقابل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الآية:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣١٤.

١٧٩]، أي: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ للجنة ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، أي: ومن الذين خلقنا من الأمم.

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾، أي: يهتدون بالحق قولًا وعملًا، ويدعون إليه، أي: يعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، أي: وبه يقضون ويحكمون بين الناس.

ومنهم، بل وفي مقدمتهم هذه الأمة المحمدية.

عن قتادة في تفسير هذه الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «**هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها:** ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»(١).

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم؛ حتّى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾، أي: والذين كذبوا بالقرآن، يعني المشركين.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ نأخذهم قليلًا قليلًا، يستدرجون في الطغيان والعصيان بفتح الأرزاق لهم وإدرارها عليهم؛ ليغتروا، ثم نباغتهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤- ٤٥].

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: من حيث لا يعلمون أن ما فتح عليهم من الأرزاق والنعم استدراج لهم؛ كما يظنون أن ذلك رضا الله عنهم، أو لقوتهم وحذقهم ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ ﴾، أي: أمهلهم، والإملاء والإملال: الإمهال.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٦٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٦٤١، ومسلم في الإمارة ١٠٣٧.

أي: أمهلهم مع ما هم عليه من التكذيب والكفر، ولا أهملهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ الجملة في موضع التعليل لما قبلها، أي: لأن كيدي متين، أي: قوي شديد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

كان المشركون يصفون النبي ﷺ بالجنون، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]؛ فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع والتعجيب، أي: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآياتنا، أي: يُعْمِلوا أفكارهم وعقولهم.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ الذي أرسلناه إليهم.

﴿مِّن جِنَّةٍ﴾، أي: من جنون كما يدَّعون؛ قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا نذير مبين، أي: محذر مخوف عذاب الله، بيِّن النذارة ظاهرها.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

أنكر عليهم ووبخهم في إعراضهم عن النظر في رسولهم وأنه ليس به جنة، ثم ترقي في الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم في عدم نظرهم فيما هو أعظم وأعم وأوضح من ذلك؛ وهو سعة ملكه عز وجل.

والمناسبة بين الأمرين أن دعوة الرسول ﷺ لهم إلى التوحيد وإبطال الشرك هي من أكبر بواعثهم على تكذيبه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام- كسابقه- للإنكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظر تأمل وتفكر وتدبر واستدلال ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولهذا عدي الفعل بـ«في»، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

والملكوت: الملك العظيم؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أي: أولم ينظروا في واسع ملك الله تعالى وعظيم سلطانه في السموات؛ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك، وفي الأرض؛ من البحار والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ معطوف على: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، و«ما»: موصولة، تفيد العموم، و«شيء» نكرة تعم، أي: أولم ينظروا في كل ما خلق الله من الأشياء جميعها في السموات والأرض وما بينهما؟

فعطْف قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ على: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن كل ما في الكون من المخلوقات لله تعالى.

فقسّم النظر إلى نظر إلى عظيم ملك الله تعالى وسعته، وإلى نظرٍ في مخلوقاته ودقائق أحوالهم الدالة على عظيم قدرة الله تعالى.

والمعنى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون للآيات في عظيم وواسع ملك الله تعالى في السموات والأرض، وفيها خلقه من الأشياء، مما لا يحصره عدد، ولا يحيط به وصف، ويتفكروا في ذلك ويتدبروا، ويستدلوا بذلك على أنه عز وجل المستحق للعبادة وحده دون سواه، فيؤمنوا به ويخلصوا له العبادة، ويصدقوا رسوله ﷺ، ويخلعوا ما هم عليه من عبادة الأوثان؟!

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أولم ينظروا في احتمال قرب أجلهم وتوقعه، وموتهم على كفرهم، فيصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للتعجيب والاستبعاد والإنكار.

أي: فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ويصدقون؟ قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]، أي: مثل القرآن.

أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن فلن يؤمنوا بشيء من الحديث بعده، كما قال تعالى في سورة المرسلات: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أنكر عز وجل على المشركين عدم النظر في ملكوت السموات والأرض، وسعة ملكه، وعظيم خلقه، وصدق نبيه ﷺ، وعدم إيمانهم بالقرآن، ثم بين في هذه الآية أن من كتب الله عليه الضلالة فلا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته.

قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، أي: من يُقدِّر الله تعالى عليه الضلالة ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، أي: فلا أحد يهديه من بعد الله، ولا يغنيه النظر ولا النذر، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «وَنَذَرُهُمْ» بالنون والرفع عطفًا على جملة: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء التحتية: «وَيَذَرْهُمْ» والجزم على أنه عطف على موضع ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ وهو جواب الشرط.

وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء التحتية وبالرفع على الاستئناف: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ أي: ويتركهم في طغيانهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون، فلا يخرجون من طغيانهم ولا يهتدون إلى الحق.

الفوائد والأحكام:

١- أن لله عز وجل الأسماء الحسنى البالغة في الحسن في ألفاظها ومعانيها، ودلالتها الدالة على أوصاف كماله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٢- وجوب دعاء الله عز وجل بأسمائه الحسنى دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ودعاء

ثناء؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

٣- ترك الذين يلحدون في أسمائه عز وجل، وعدم المبالاة بهم وما هم عليه من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾.

٤- الوعيد والتهديد للذين يلحدون في أسماء الله تعالى، وأنهم سيجازون بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٥- أن ممن خلق الله تعالى أمة قائمة بأمر الله، يهدون بالحق قولًا وعملًا وحكمًا، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

٦- استدراج المكذبين بآيات الله تعالى من حيث لا يعلمون؛ بفتح الأرزاق لهم، وإغداق النعم عليهم؛ ليغتروا ويزدادوا كفرًا وعصيانًا، فيضاعف عليهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٧- أن الله يملي للظالمين المكذبين ويمهلهم؛ ليتمادوا في طغيانهم، ولا يهملهم بل يأخذهم بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾.

٨- أن كيد الله تعالى للكائدين، ومكره بالماكرين قوي شديد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾.

٩- الإنكار على المشركين، وتقريعهم، والتعجيب منهم في رميهم النبي ﷺ بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

١٠- إثبات أنه ﷺ نذير بيِّن النذارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

١١- الإنكار عليهم، وتقريعهم، والتعجيب من حالهم في عدم النظر والتأمل في سعة ملك الله تعالى وتمام قدرته وعظيم سلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾.

١٢- الإنكار على المشركين، والتعجيب من حالهم في عدم نظرهم في احتمال قرب أجلهم وموتهم على الكفر فيصيروا إلى عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾.

١٣- أن من لم يؤمن بالقرآن لا يمكن أن يؤمن بأي حديث بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٤- أن من قدر الله عز وجل عليه الضلالة فلا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

١٥- خذلان الله تعالى لمن اختاروا الضلالة، وتركهم في طغيانهم يترددون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾:

قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٣].

والسائلون عن الساعة هم المشركون الذين كذبوا بآيات الله، أي: يسألك يا محمد المشركون المكذبون عن القيامة سؤال تشكيك وتكذيب بها، واستبعاد لوقوعها، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)﴾ [الشورى: ١٨].

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى وقوعها وقيامها ومنتهاها؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، أي: قل لهم: إنما علم الساعة وقيامها عند ربي وحده مختص به، فإذا سألوك عنها فرد علمها إلى الله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣- ٤٤]، أي: منتهى علمها.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: لا يظهرها جلية ظاهرة لوقتها إلا هو، ولا يعلم جلية أمرها، ومتى تكون على التحديد إلا هو وحده؛ لهذا قال:

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ثقل علمها وخفي على أهل السماء والأرض، واشتد أمرها عليهم؛ فهم من الساعة مشفقون.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا فجأة وعلى حين غفلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾**[الأنعام: ١٥٨]، **ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ السّاعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ كرر للتأكيد.

﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، «حفي» «فعيل» بمعنى «فاعل»، أي: كأنك عنيٌّ بالسؤال عنها، مكثر السؤال عنها وعن وقتها حتى علمته، كما قال الشاعر:

فلـمّا التقينـا بـيّن السّـيف بيننـا لسـائلةٍ عنّـا حفـيٍّ سـؤالها(٢)

فالمعنى: كأنك حريص في المسألة عنها، عالم بها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مؤكدة لجملة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ وللحصر فيها، وأنه عز وجل وحده مختص بعلم الساعة لا يعلمها أحد سواه، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السّائل**»، أي: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾»(٣).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر قال: «**تسألوني عن السّاعة، وإنّما علمها عند الله**»(٤).

وأما ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخّر هذا الغلام فلن يدركه الهرم حتّى تقوم السّاعة**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، طلوع الشمس من مغربها ٦٥٠٦.

(٢) البيت لأنيف بن زبان. انظر: «ديوان الحماسة» (١/ ٤٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، قوله ﷺ: «لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة» ٢٥٣٨.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٧

فهذا محمول على ساعة الشخص نفسه أو القرن الذي هو فيه، وكذا ما في معنى هذا الحديث؛ كحديث: «**إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتّى تقوم عليكم ساعتكم**»(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله، لا يعلمه أحد سواه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

لما ذكر سؤالهم له ﷺ عن الساعة توهمًا أنه يعلم الغيب، بيَّن أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يعلم الغيب.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: قل لمن يسألونك عن الساعة ولغيرهم: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعًا أو أدفع عنها ضرًّا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ﴾ [يونس: ٤٨- ٤٩].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾، «إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي شاءه الله، أي: قدره الله تعالى لي من ذلك.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الغيب: ما غاب عن الناس، أي: عن أعينهم وحواسهم.

أي: ولو كنت أعلم الغيب؛ كما يتوهم من يسألني عن الساعة وهي غيب.

﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: لعملت على الاستكثار من الخير من المال والربح والمنافع الدنيوية بفعل أسباب ذلك؛ لعلمي غيبًا بالنتائج قبل وقوعها.

ولا يجوز أن تحمل الآية على الاستكثار من الخير الأخروي؛ لأنه ﷺ لم يدخر في ذلك وسعًا، بل جاهد في الله حق جهاده، وقام حتى تفطرت قدماه ﷺ، ولما قالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكان عمله ﷺ ديمة(١)، وكان ﷺ إذا عمل عملًا أثبته(٢).

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وما أصابني السوء، أي: ولو كنت أعلم الغيب؛ لعملت الأسباب لاتقاء ما يسوء من فقر، وخسارة في البيع، ونحو ذلك؛ فلم يصبني شيء من ذلك.

ومفهوم هذا أني قد حصل لي ما حصل من عدم الاستكثار من الخير، ومسني ما مسني من السوء؛ لعدم علمي الغيب.

وهذا صحيح؛ فقد حصل له ما حصل من قلة ذات اليد؛ حتى إنه ليمر عليه الهلال ثم الهلال ثم الهلال؛ ثلاثة أهلة في شهرين ما أوقدت في أبياته نار(٣).

وحتى إن أزواجه ﷺ اشتكين من قلة النفقة وطالبنه بزيادتها وهو لا يملك شيئًا، فخيرهن؛ كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الأحزاب(٤).

وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير(٥)، ومسه ﷺ من ألوان الأذى من قومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير وبشير، أي: منذر من النار والعذاب، ومبشر بالجنة والثواب العاجل والآجل.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خص المؤمنين بالنذارة مع أنه نذير لهم ولغيرهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالإنذار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو نذير لهم ولغيرهم.

وأما البشارة فهي خاصة للمؤمنين، وهم أهلها دون غيرهم، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٨٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٤٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٢٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- سؤال المشركين المكذبين بالآيات عن الساعة تكذيبًا بها واستبعادًا لقيامها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

٢- أن علم الساعة وقيامها لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٣- أنه لا يجلي الساعة ويظهرها لوقتها إلا الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

٤- ثقل الساعة، وخفاء علمها على أهل السموات والأرض، وشدة أمرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥- أن الساعة لا تأتي إلا بغتة وفجأة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

٦- توهم الذين يسألون عن الساعة وقيامها أنه ﷺ حفي عنها عالم بها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

٧- أن أكثر الناس لا يعلمون أن علم الساعة عند الله تعالى وحده، لم يطَّلع عليه أحد من الخلق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أنه ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

وفي هذا رد على الذين يغلون فيه ﷺ ويطلبون منه قضاء الحاجات فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٩- أنه ﷺ يملك لنفسه ما شاء الله وقدر له أن يملكه من النفع والضر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٠- أنه ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

١١- أنه ﷺ ما هو إلا نذير يحذر من النار والعذاب والعقاب في الدنيا والآخرة من كفر بالله وعصاه، وبشير يبشر بالجنة والثواب في الدنيا والآخرة من آمن وأطاع الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٢- أنه إنما ينتفع بالإنذار والتبشير أهل الإيمان فقط؛ لهذا خصهم بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ
فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (١٩٠)
أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن
تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ
يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ
شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦) وَٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (١٩٨) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) ﴾:

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، أي: هو سبحانه الذي أوجدكم أيها الناس وأنشأكم ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، أي: من آدم عليه السلام.

﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، أي: وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، وهي حواء عليها السلام، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١].

خلقها عز وجل من آدم وجعلها من جنسه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾، أي: ليطمئن إليها ويأنس بها ويألفها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فلو كان كل واحد من الزوجين من فصيلة خاصة لم يأنس بالآخر ولم يسكن إليه؛ فهذه من نعمة الله تعالى على آدم وزوجه، ورحمته لهما ولذريتهما.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: وطئها وجامعها.

﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل، لا تجد له المرأة ألمًا ولا ثقلًا، وذلك في مراحله الأولى: النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة.

﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾، أي: استمرت به خفيفًا فقامت وقعدت، وكأنها لخفته لم تتفطن له ولم تفكر في شأنه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾، أي: صارت ثقيلة، أي: ذات ثقل بحملها لما كبر في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أي: دعا الزوجان الله ربهما.

﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ الجملة بيان وتفسير للدعاء، واللام: موطئة للقسم، أي: والله ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾، أي: ولدًا صالحًا، بشرًا سويًّا، تام الخلقة لا نقص فيه.

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنكونن من الشاكرين على ما وهبتنا من الولد الصالح.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾، أي: فلما أعطاهما الله ولدًا صالحًا سويًّا كما طلبا، وأنعم عليهما بذلك.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم: «شِرْكًا» بكسر الشين.

وقرأ الباقون: ﴿شُرَكَآءَ﴾ بضم الشين، جمع «شريك».

أي: فلما آتاهما ولدًا صالحًا لم يشكرا الله تعالى على ذلك، وجعلا له عز وجل شركاء فيما أعطاهما من الولد الصالح؛ فعبَّداه لغير الله بتسميتهما له «عبد الحارث»، أو بشركهما مع الله في العبادة بعدما من عليهما بإجابة طلبهما.

واختلف في المراد بقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾:

فقيل: المراد بهما آدم وحواء، روي في هذا آثار عدة عن السلف، وروي أنهما

زوجان من ذريتهما من أهل الملل السابقة(١).

وقيل: لا يقصد بذلك زوجان بعينهما.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم، وعن الذي يشركون به من الشركاء والأنداد، هم وغيرهم من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾:

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾، الاستفهام: للتعجب والإنكار على المشركين، و«ما»: موصولة، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي، أي: أيشركون ويعبدون مع الله الشركاء والأنداد الذين لا يخلقون أي شيء مهما كانت قلته ولو كان مثقال ذرة، ومهما كانت حقارته، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤].

والمضارع في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ يدل على تجدد ذلك منهم، وهو كذلك في قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ لتجديد نفي الخالقية عنهم.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنهم يُخلقون، أي: أنهم مخلوقون لله تعالى، مربوبون له، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

وبُني الفعل ﴿يُخْلَقُونَ﴾ لما لم يسم فاعله؛ لأن الخالق معلوم؛ وهو الله تعالى المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، أي: لا يستطيع هؤلاء الشركاء من دون الله لعابديهم نصرًا؛ بدفع الضر عنهم.

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، أي: ولا هؤلاء الشركاء ﴿أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ بدفع الضر

(١) انظر «جامع البيان» ١٠/ ٦٢٢- ٦٢٩ «تفسير ابن أبي حاتم» ٥/ ١٦٣١- ١٦٣٤، «تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٣٠- ٥٣١.

عنها؛ فهم عاجزون عن نصر أنفسهم، وعجزهم عن نصر عابديهم من باب أولى، فكيف يُشركون مع الله تعالى؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾، أي: وإن تدعو أيها المشركون هؤلاء المعبودين ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: إلى أن يهتدوا، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ﴾، أي: لا يهتدون. فصار الإنسان أحسن حالًا من هذه المعبودات؛ لأنها لا تهدي ولا تهتدي؛ لأنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقيل: المعنى: وإن تدعو أيها المسلمون المشركين لا يتبعوكم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ هذه الجملة مؤكدة لقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ﴾، أي: يستوي في عدم اتباعهم لكم دعوتكم لهم وعدمها.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى: «عندكم».

وإنما جعل الأمران سواء على المخاطبين ولم يجعلا على المدعوين، فلم يقل: سواء عليهم، وإن كان ذلك أيضًا سواء عليهم؛ لأن المقصود تأييس المخاطبين من استجابة المدعوين. ولم يقل: أم صمتم؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت، مع مراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي: إن الذين تدعون وتعبدون من دون الله أيها المشركون من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾، أي: عبيد لله تعالى أمثالكم ومخلوقون له تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ

﴿وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الأمر للتبكيت، أي: فادعوهم لجلب نفع أو كشف ضر، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ هذا الأمر للتحدي والتعجيز، أي: فليستجيبوا لكم دعاءكم وينصروكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم ودعواكم أنهم شركاء مع الله تعالى، وأنهم ينفعون ويضرون ويستحقون العبادة.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾:

قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾، الاستفهام: للإنكار والتبكيت؛ فالجملة تبكيت بعد تبكيت، وتأكيد لما قبلها من التعجيز، وبيان أنهم لا يستطيعون الاستجابة؛ لفقدان آلتها بالكلية.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ﴾، أي: ألهم أرجل يمشون عليها كالأناسي؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ﴾، «أم» في المواضع الثلاثة هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل ألهم أيد يبطشون بها؟ أي: يأخذون بها، و«البطش»: الأخذ بقوة.

قرأ أبو جعفر «يَبْطُشُونَ» بضم الطاء.

وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَبْطِشُونَ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ﴾، أي: بل ألهم أعين يبصرون بها؟

﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: بل ألهم آذان يسمعون بها؟

وكرر الإنكار والتبكيت مع كل واحدة من هذه الجوارح؛ للتأكيد.

والمعنى: ليست لهم هذه الجوارح؛ فهم لا يمشون، ولا يبطشون، ولا يبصرون، ولا يسمعون، والأناسي أكمل منهم.

وفي قوله: ﴿يَمْشُونَ بِهَا﴾، ﴿يَبْطِشُونَ بِهَا﴾، ﴿يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ زيادة

تسجيل العجز عليهم؛ لأنها هي الوسائل التي يحتاج إليها الناصر، وخصها؛ لأنها هي آلات العلم والسعي والدفع والنصر.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾، أي: نادوا شركاءكم واجمعوهم.

﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وإياهم، أي: استنصروا بهم على الكيد لي، وإيقاع السوء والمكروه بي.

و«الكيد»: التدبير لإلحاق الأذى، وأكثر ما يكون بخفية.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: فلا تمهلون ولا تؤخرون.

والأمر والنهي هنا للتعجيز، أي: أنكم غير قادرين على ذلك، وقد كانوا يخوفونه بآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾:

تعليل لعدم المبالاة بكيدهم هم وشركاؤهم، وهو من جملة ما أمر أن يقوله ﷺ.

قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، أي: إن الذي يتولاني هو الله عز وجل، توكلت عليه، وفوضت أمري إليه، وهو حسبي وكافيني، وحافظي وناصري ومعيني.

﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ وصف تعظيم لله عز وجل.

و«أل» في «الكتاب» للعهد، أي: الذي نزل الكتاب العظيم المعهود «القرآن الكريم»، وإنزاله الكتاب عليَّ من ولايته الخاصة بي، وفيه بيان أن الله عز وجل وليي وناصري.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذا كما قال هود عليه السلام لقومه لما قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [الآيات: ٥٤- ٥٦].

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه، من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم، وذلك بحفظهم ونصرهم، وجلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم.

والتعبير بالمضارع «يتولى»؛ للدلالة على تجدد ذلك واستمراره، وفيه بشارة

للصالحين، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وقد روي أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما حضرته الوفاة قيل له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم! فقال: أدخلوهم عليَّ. فأدخلوهم عليه وكانوا بضعة عشر ذكرًا، وليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بني، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني».

وقد تمثل رحمه الله هذه الآية: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

قال راوي القصة: «ولقد رأيت بعض ولده حمل على مئة فرس في سبيل الله»؛ يعني: أعطاها لمن يغزو عليها، أي: أن الله أغناهم من فضله(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧)﴾:

مؤكد لما تقدم؛ إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، وما سبق ظاهر أنه من كلام الله تعالى، وهذا يحتمل أنه مما أمر ﷺ أن يقوله، والكل من كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾:

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ الخطاب للمشركين، أي: وإن تدعو أيها المشركون آلهتكم إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنهم مجرد صور لا حياة فيها ولا حواس، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقيل: الخطاب للرسول ﷺ، أي: وإن تدعُ يا محمد هؤلاء المشركين ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا...﴾ الآية.

﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الخطاب في «تراهم» لغير معين، أي: وترى

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الآية: ٩].

أيها الناظر هذه الآلهة ينظرون إليك في ظاهر صورهم.

﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يبصرون؛ لفقدانهم الحياة والبصر وسائر الحواس.

وقيل المراد بقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: المشركون المكذبون ينظرون إلى النبي ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب من خلال أقواله وأفعاله.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل هو الخالق وحده؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾.

٢- أن الناس خلقوا من نفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣- أن حواء خلقت من آدم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهي مخلوقة منه، وهي من جنسه.

٤- امتنان الله تعالى على الناس بأن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، خلقًا وجنسًا ليسكن إليها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

٥- إباحة جماع الرجل لزوجته، بل هو أمر مندوب، بل هو حق للزوجة على الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾.

٦- أن سلالة الإنسان من النطفة التي تحصل بالجماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾.

٧- أن الحمل يبدو أول مرة خفيفًا على المرأة، ثم يثقل شيئًا فشيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾.

٨- مشروعية الدعاء بصلاح الولد وسلامته منذ كان حملًا؛ لقوله ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

١٠- وجوب شكر الله تعالى على نعمة صلاح الولد حملًا وبعد ذلك، وعلى كل نعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١١- كفر كثير من الناس نعمة الله تعالى عليهم بصلاح الأولاد وغيرها من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.

١٢- تنزيه الله تعالى نفسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٣- الإنكار على المشركين وتقريعهم والتعجيب من حالهم في إشراكهم مع الله ما لا يخلق شيئًا، بل هو مخلوق مربوب لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

١٤- ضعف الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله؛ فهي لا تستطيع نصرًا لعابديها، ولا لنفسها، ولا تتبع من دعاها إلى الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، فكيف يشرك هؤلاء مع الله؟!

١٥- أن المعبودين والآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله هم عبيد لله تعالى ومربوبون له، أمثالهم لا يستطيعون الاستجابة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٦- تسفيه المشركين بعد الإنكار عليهم في عبادتهم الأصنام، وتحديهم أن تستجيب لهم هذه المعبودات كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٧- بيان فقدان هؤلاء المعبودين الجوارح والأدوات التي تمكنهم من الاستجابة لعابديهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

فهذه الجوارح التي عند الأناسي ليست موجودة عند هؤلاء المعبودين، فكيف يطلب المشركون منهم النصر؟

١٨- أمره ﷺ بأن يتحدى المشركين بأن يدعو شركاءهم ثم يكيدونه فلا ينظرونه؛

لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

١٩- تفويضه ﷺ أمره إلى الله تعالى، وتوكله عليه، وثقته بولاية الله عز وجل له وحفظه له ونصره؛ لقوله- ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾.

٢١- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾.

٢٢- الترغيب في الصلاح؛ لأن الله تعالى يتولى الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

٢٣- تأكيد أن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يستطيعون نصر عابدهم ولا نصر أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧)﴾.

٢٤- أن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من دعاهم إلى الهدى، ولا يبصرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾:

قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو خطاب لكل من يصلح خطابه.

والعفو: الصفح والتجاوز؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

ويأتي بمعنى: «الكثرة»؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي: كثروا.

ويأتي بمعنى «الفضل»؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والمعنى هنا: خذ ما عفا لك وتيسر من أخلاق الناس وبذلهم، وهو الفضل، وعاملهم بالمسامحة، وقبول العذر، وترك الاستقصاء والتفتيش عن البواطن، ولا تكلفهم ما يشق عليهم، وهكذا كان ﷺ في تعامله مع أصحابه، بل ومع المخالفين له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أُفًّا قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا!»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب: «هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب، الكنية للصبي ٦٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٧٧٤، والترمذي في الصلة ٢٠١٤.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله»(١).

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، «العرف»: المعروف؛ كمثل «النكر» هو: المنكر، قال النابغة(٢):

فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا العُرْفُ ضَائِعُ

فقابل النكر بالمعروف.

والعرف: المعروف، وهو: ما عرف في الشرع وعرف المسلمين ولم ينكر. وهو: كل قول حسن، وعمل طيب، وخلق جميل.

والأمر بالمعروف يشمل النهي عن المنكر؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

وأعرف المعروف: توحيد الله بلا شرك، وأداء حقوقه وحقوق العباد.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الإعراض: إدارة الوجه عن النظر إلى الشيء. مشتق من «العارض» وهو «الخد»؛ فإن الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

والمراد هنا: لا تؤاخذهم، ولا تعاتبهم وتقابلهم بجهلهم، بل أعرض عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والمراد بالجهل في الآية: السفه، ضد الحلم.

والمراد بالجاهلين: السفهاء.

وليس معنى الآية: الإعراض عن الجاهل بترك تعليمه وإرشاده.

فأمر الله عز وجل في هذه الآية بثلاثة أمور هي ملاك الخير كله:

الأول: أن يأخذ من أخلاق الناس وبذلهم ما تيسر من غير مشقة عليهم.

والثاني: أن يأمر بالمعروف من قول وفعل وخلق.

والثالث: أن يعرض عن الجاهلين؛ فلا يقابلهم بجهلهم؛ لأن من يأمر بالمعروف لا يسلم من أذية الجاهلين، بل إن من يخالط الناس فقط لا يسلم من أذاهم ولو لم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأعراف ٤٦٤٢.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٥٣).

يأمرهم، فكيف إن أمرهم ونهاهم؟

وقد جمع الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأمته مكارم الأخلاق في هذه الآية.

قال ابن القيم: «فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم؛ فإن العفو ما عفى من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾:

بعدما ذكر ما يعامل به الجاهل- وهو الإعراض عنه- ذكر بعده ما يعامل به الشيطان من الجن- وهو الاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يندفع شره إلا بالاستعاذة بالله منه، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الآيات: ٣٤- ٣٦].

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾، «وإما»، أي: في أي وقت، وفي أي حال.

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ النزغ: النخس والغرز، والمراد به: الوسوسة بتزيين ترك الخير أو فعل الشر، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: زين لهم الشيطان الحسد له عليه السلام والكيد له.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، أي: بإيقاع العداوة بينهم.

والمعنى: وإما يصيبنك من الشيطان وسوسة بتزيين عدم الأخذ بالعفو، أو عدم الأمر بالعرف، أو عدم الإعراض عن الجاهلين، أو تثبيط عن الخير، أو ترغيب في الشر؛ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط «إما»، والسين والتاء للطلب، أي: التجئ إلى الله تعالى، واعتصم به، ولذ بحماه، واستجر به.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٦].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ ، أي: سميع مجيب لاستعاذتك ودعائك، ولجميع الدعاء، وسميع لجميع الأصوات.

﴿عَلِيمٌ﴾ بك وبنيتك وقوة التجائك، وعليم بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

هذا تأكيد وتقرير لما قبله من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «طَيْفٌ»، وقرأ الباقون: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، أي: إن الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾، أي: إذا أصابهم، ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: نزغ ووسوسة وعارض من خواطر الشيطان من غضب، أو هم بمعصية، أو اقتراف لها، أو غير ذلك.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾، «التذكُّر» تفعُّل من الذكر، وهو: استحضار المذكور وشهوده في القلب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والمعنى: تذكروا أوامر الله تعالى ونواهيه، ووعده ووعيده فتابوا، واستعاذوا بالله وأنابوا إليه من قريب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، الفاء للتعقيب، و«إذا» هي الفجائية، أي: فإذا هم سرعان ما تبين لهم الحق وأبصروه، واهتدوا إليه، ورجعوا إليه.

والهدى مداره على هذين الأمرين: التذكر، والتبصر.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «يُمِدُّونَهُمْ» بضم الياء وكسر الميم.

وقرأ الباقون: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم.

و«الإمداد»: الزيادة، وتقوية الشيء بالمدد ونجدته.

«والغي»: الغواية والجهل والضلال.

والضمير في «إخوانهم» يعود على الشياطين؛ بدلالة لفظ «الشيطان»؛ لأن المراد به الجنس، والضمير في ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعود على الجاهلين غير المتقين، أي: يعود على الكفار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] والتقدير: وإخوان الشياطين من الكفار تمدهم الشياطين في الغي وتزيدهم.

ويجوز أن يعود الضمير في «إخوانهم» وفي «يمدونهم» على الكفار، والتقدير: وإخوان الكفار وأولياؤهم من الشياطين يمدونهم في الغي، أي: يزيدونهم في الغي. والمعنى واحد.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، أي: ثم لا يقصر الشياطين في إمداد إخوانهم الكفار بالغي، أي: لا يألون جهدًا في إغوائهم وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

أو لا يقصر الكفار، أي: لا يدخرون وسعًا في فعل الغي والضلال والشرور؛ فالشياطين تمدهم ولا تقصر في إغوائهم، وهم لا يقصرون في فعل الغي والضلال والشرور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: حسب اقتراحهم، إما خارق للعادة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وإما بقرآن غير هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥].

﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، «لولا» للتخصيص، أي: هلا اجتبيتها، أي: هلا اخترتها واختلقتها وجئت بها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾، أي: قل لهم: إنما أتبع الذي يوحى إلي من ربي، وليس إليَّ ولا من مقدوري الإتيان بالآيات؛ فأمرها إلى الله.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تنويه بشأن القرآن المشتمل على أعظم الآيات، أي: هذا الكتاب العظيم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لخطاب جميع الناس.

أي: هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الحجج والدلالات، وأوضح البراهين والبينات، على مر العصور وتعاقب الأوقات.

قال ﷺ: «**ما من نبيٍّ من الأنبياء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما الّذي أوتيته وحيٌ أوحاه الله تعالى إليّ، وأرجوا أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

﴿وَهُدًى﴾، أي: هداية، وبيان، وإرشاد.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهي سبب هداية من هداه.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: هدى ورحمة لهم خاصة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن، ويهتدون بهديه، ويتبعونه، ويعملون به.

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأخذ العفو، وما تيسر من أخلاق الناس وبذلهم، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وهذا أمر له ﷺ ولأمته.

٢- ينبغي معاملة الناس بالتسامح، وأخذ ما تيسر من أخلاقهم وبذلهم، وعدم المشقة عليهم، وبخاصة ممن ولي من أمر المسلمين شيئًا.

٣- وجوب الأمر بالمعروف؛ لأن الأمر في الآية أمر له ﷺ ولأمته.

٤- ينبغي الإعراض عن الجاهلين، وعدم مقابلتهم بجهلهم؛ لأن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بذلك، وهو ﷺ الأسوة والقدوة لأمته.

٥- سمو مبادئ الإسلام، وبلاغة القرآن؛ فقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق:

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٤، ومسلم في الإيمان ١٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي: الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين.

٦- الأمر بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

٧- أن الإنسان عرضة لنزغ الشيطان ووسوسته مهما كان عليه من قوة الإيمان؛ لأن الله خاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فغيره من المؤمنين من باب أولى.

٨- أن شر الشيطان وأذاه لا يدفعه إلا الله وحده؛ لهذا أمر الله عز وجل بالاستعاذة به سبحانه منه ومن نزغاته.

٩- إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى، الذي وسع جميع الأصوات من الاستعاذة والدعاء وغير ذلك، وأنه سبحانه يعيذ من استعاذ به، ويجيب من دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾.

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١١- ثناء الله تعالى على المتقين بأنهم إذا أصابهم نزغ ووسوسة من الشيطان تذكروا فاستعاذوا بالله منه، وذكروا وعد الله ووعيده وأنابوا إليه، وأبصروا الحق ورجعوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

١٢- الإشارة إلى أن المسلم قد لا يسلم من نزغات الشيطان، بل إنه قل من يسلم من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فينبغي للمسلم أن يستحضر هذا الأمر حتى لا يوقعه الشيطان فيما لا تحمد عقباه ولا يمكن تلافيه.

وقال ﷺ وقد رأى رجلًا قد اشتد به الغضب: «**إني أعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

ولقى رجل أحدَ السلف فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم

---

(١) سبق تخريجه.

أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي»[1].

١٣- أن الشياطين يمدون إخوانهم من شياطين الإنس في الغي وتزيين الشر والباطل لهم، ولا يألون جهدًا في إغوائهم وإضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

١٤- أن شياطين الإنس من المشركين وغيرهم لا يدخرون وسعًا في فعل الشر والضلال، ولا يرعوون عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ على الاحتمال الثاني لمعنى الآية.

١٥- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم، واقتراحهم الآيات عنادًا منهم وتعجيزًا له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾.

١٦- أن الرسول ﷺ إنما هو متبع لما يوحيه الله تعالى إليه، وليس إليه أمر الإتيان بالآيات، وليس ذلك من مقدوره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

١٧- أن ما جاء به ﷺ من القرآن الكريم فيه أعظم الآيات، والبراهين والحجج والبينات؛ لقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم بصائر لجميع الناس وعامتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والخطاب لجميع الناس.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٠- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون به ويتبعونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- امتداح المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يهتدون بالقرآن، والترغيب في الإيمان؛ لأن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٢).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾:

ذكر عز وجل أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، ثم أتبع ذلك بالأمر بالاستماع والإنصات عند تلاوته؛ تعظيمًا له، وتدبرًا لمعانيه؛ ليحصل الاهتداء به.

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، أي: ألقوا له أسماعكم، وأصغوا له، وأحضروا له قلوبكم، وتدبروه.

﴿وَأَنصِتُوا﴾ الإنصات يكون في الظاهر بترك التحدث وما يشغل عن الاستماع، أي: اتركوا التحدث وما يشغلكم عن استماعه؛ فهو مؤكد لقوله ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، أي: استمعوا وأنصتوا، وتدبروا ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه.

والخطاب عام لجميع الناس، وبخاصة المؤمنين؛ لقوله قبل هذا: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن ترحموا، أي: لأجل أن يرحمكم الله.

فمن ألقى سمعه وأحضر قلبه وتدبر القرآن، وأنصت عند سماعه؛ رحمه الله، ونفعه بالقرآن وما فيه من الذكر والهدى والعلم الغزير، والخير الكثير، ما يزيد الإيمان واليقين والبصيرة في الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ويتأكد بل ويجب الإنصات لقراءة القرآن في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام في القراءة؛ لقوله ﷺ: «**إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به، فإذا كبّر فكبّروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»(١).

واستثنى بعض أهل العلم قراءة المأموم الفاتحة كما سبق في الكلام على الفاتحة.

كما يجب الإنصات حال خطبة الإمام يوم الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

---

(١) سبق تخريجه.

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، وأكمل الذكر وأتمه ما واطأ فيه القلب اللسان والجوارح.

﴿فِى نَفْسِكَ﴾، أي: في وحدتك وانفرادك بقلبك ولسانك؛ بقراءة القرآن، وأنواع الذكر من التهليل والتسبيح والتحميد والدعاء وغير ذلك.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم**»(١).

﴿تَضَرُّعًا﴾ حال، أي: تخشعًا وتذللًا له عز وجل، ورغبة ورجاء.

﴿وَخِيفَةً﴾، أي: وخوفًا وخشية منه عز وجل، ورهبة ووجلًا.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾، أي: أقل من الجهر، أي: لا يكون الذكر والدعاء نداء وجهرًا بليغًا، بل وسطًا بين الجهر والمخافتة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وروي أنهم لما سألوا رسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦](٢).

ولما رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار قال ﷺ: «**يأيّها النّاس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّه معكم سميعٌ قريبٌ، تبارك اسمه، وتعالى جدّه**»(٣).

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار، ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ آخر النهار.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٣١٤

(٣) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٤ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وهذان الوقتان أفضل الأوقات، ولهذا أمر الله عز وجل بتسبيحه وعبادته فيهما في آيات كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وقد يراد بهما: ما يشمل الوقت كله؛ فأول النهار «غدو»، وآخره مع الليل «آصال»، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ومعلوم أن رزق أهل الجنة وطعامهم لا ينقطع في أي وقت.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾، أي: ولا تكن من الغافلين الساهين عن ذكر ربك.

وهذا نهي له ﷺ ولأمته، وحاشاه ﷺ أن يكون من الغافلين عن ذكر ربه، فقد قام ﷺ من الليل حتى تفطرت قدماه[١]، وكان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة[٢].

وكان يقول في المجلس الواحد مئة مرة قبل أن يقوم «**ربِّ اغفر لي وتب عليّ؛ إنّك أنت التّوّاب الغفور**»[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾:

لما أمر عز وجل نبيه ﷺ بذكر الله تعالى، وهو أمر له ﷺ ولأمته، ونهى عن الغفلة؛ أتبع ذلك بذكر حال الملائكة المنقطعين لعبادة الله تعالى وتسبيحه والسجود له؛ ترغيبًا بالإكثار من ذكره وعبادته، وبيان أنه لا يريد أن يستكثر بعبادتهم من قله، ولا ليتعزز بها من ذله، وإنما يريد النفع والخير لهم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين.

والتعبير عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دون أن يقول: إن الملائكة؛ لبيان رفعة منزلتهم، والإغراء بالتشبه بهم في عبادتهم وطاعتهم لله عز وجل.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ كما هي حال المشركين، بل يعبدونه، ويخضعون له،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٤ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وينقادون لأمره.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، أي: ينزهونه قولاً بألسنتهم، واعتقادًا بقلوبهم عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ قدم المعمول لإفادة الاختصاص، أي: وله وحده يسجدون، أي: يخضعون ويصلون ويتعبدون بجوارحهم.

وهذه أول سجدة في القرآن الكريم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرئيل، ومريم، والحج، وسجدة الفرقان، وسليمان سورة النحل، والسجدة، وفي ص، وسجدة الحواميم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الحث على الاستماع لقراءة القرآن والإنصات، وإحضار القلب له، وتدبره؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾.

٢- أن الاستماع لقراءة القرآن والإنصات له سبب لرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

٣- التعريض بالمشركين الذين يعرضون عن الاستماع للقرآن والإنصات له، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٤- الحث على ذكر الله تعالى، والترغيب فيه؛ لأن الله أمر رسوله ﷺ بذلك، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾.

٥- ينبغي أن يتواطأ القلب مع اللسان والجوارح في الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾.

٦- ينبغي أن يكون الذاكر لله تعالى متضرعًا متذللًا لله تعالى، راجيًا لثوابه، خائفًا وجلًا من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾.

٧- ينبغي أن يكون الذكر والدعاء دون الجهر وفوق المخافتة، أي: وسطًا بين ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، عدد السجود ١٠٥٦.

٨- ينبغي المداومة على ذكر الله تعالى في الغدو والآصال، بل في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

٩- الحذر من الغفلة عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

١٠- أن النبي ﷺ كغيره قد تعرض له الغفلة والنسيان، ولكن سرعان ما يذكره الله عز وجل.

١١- ثناء الله عز وجل على ملائكته المقربين بعبادتهم له وتسبيحه وسجودهم له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

١٢- فضل الملائكة؛ لتشريف الله تعالى لهم بكونهم عنده.

١٣- الإغراء بالتشبه بالملائكة في دوام عبادتهم لله تعالى وتسبيحه والسجود له.

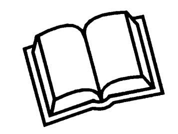
١٤- التعريض بذم المشركين في استكبارهم عن عبادة الله تعالى وعن السجود له، وسجودهم لغيره.

١٥- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

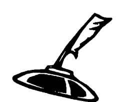
* * *

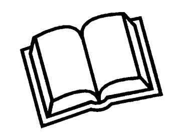
فهرس الموضوعات

* * *



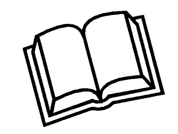
مفكرة





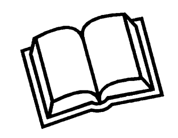
مفكرة





مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

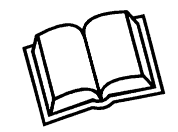
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

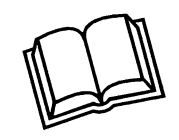
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

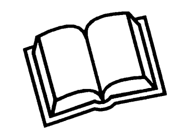
✍

✍

✍

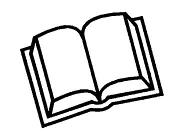
✍

✍



مفكرة



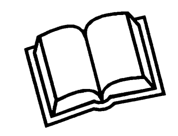


مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

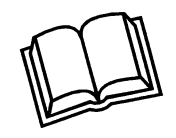
✍

✍

✍

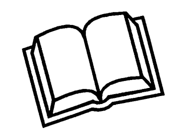
✍

✍



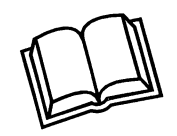
مفكرة





مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

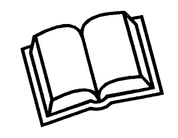
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة





دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958